أشهر الرسائل العالمية

من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر

الجزء الأول

اختارها وترجمها

محمد بدران

الكتاب: أشهر الرسائل العالمية.. من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر (الجزء الأول)

الكاتب: مُحَمَّد بدران

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

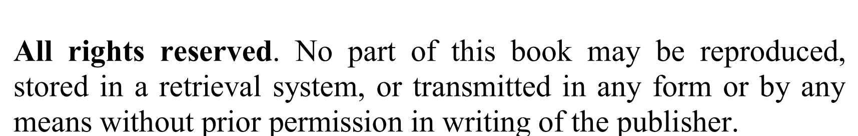
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بدران ، مُحَمَّد

أشهر الرسائل العالمية.. من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر / اختارها وترجمها : مُحَمَّد بدران

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٧٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٤٨٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٤٥٢ / ٢٠٢٢

أشهر الرسائل العالمية

من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر





المقدمة

إذا كانت السير أكثر فروع الأدب طرافةً ومتعةً فإن أكثر ما في السير من طرافةٍ ومتعةٍ الرسائل الشخصية. ذلك أن رسائل الشخص هي روحه سافرة، ومرآة قلبه الصادقة، ينعكس عليها ما يدور بخلده وما يخفيه في قرارة نفسه، فيظهر فيها واضحًا على حقيقته غير مشوه ولا معكوس، يظهر فيها حتى في أثناء تكونه قبل أن يستكمل عناصره ويتخذ شكله النهائي.

فالرسالة تسجل الحياة العقلية لكاتبها، وتعين على تحليل غرائزه وعواطفه، والأسس الحقيقية التي تقوم عليها أعماله. والرسالة تنم عن أخلاق كاتبها، وعن الأسباب الخفية لسلوكه وأعماله عَرَفَ ذلك أو لم يعرف، وتظهر الأمور الصغيرة التافهة الكامنة وراء الحقائق العظيمة، وتذكرنا بأن التاريخ كان في يومٍ من الأيام حياة حقة، وأن أشخاصه كانوا رجالًا ونساءً أحياء. وإن كنزًا من هذه الرسائل لهو في الحق كنز من المواطن الصادقة الحية، ظهرت للعالم صريحةً غير مكبوتة. وما أصدق ما قيل في وصف الرسائل: "إن الرسائل أرواحًا، وإنها لتتكلم، وإن فيها من القوة ما يعبر عن نشوة القلب، وليس ينقصها شيءٌ من حرارة العواطف، وإنها لتبعثها في القلب كما يبعثها الكاتب نفسه، وفيها كل ما للكلام من رقةٍ وحنو، وقد يكون فيها أحيانًا من الجرأة على التعبير ما لا يستطيعه الكلام[١].

وإذا كان أكثر ما يهتم به المؤرخون هو أخبار الملوك وحروبهم فإن الرسائل الشخصية هي التي يجب الرجوع إليها لمعرفة الناس على حقيقتهم، والكشف عما كانوا يخفونه من أخلاقهم وأعمالهم عن أعين غيرهم في الحياة العامة. ذلك أن صندوق الرسائل، كما قال شيشرون، "مستودع مقدس" يضع فيه الناس أسرارهم وهم واثقون

(١) انظر هذا الوصف في الرسالة رقم ١٠ من "هلواز إلى أبلار".

من أنهم قد ألقوا بها في مكانٍ أمين، وأن ما حوته من الأسرار لن يطلع عليها إلا المرسلة إليهم.

من أجل هذا عنينا بترجمة الرسائل التي يحويها هذا الكتاب، ولم نقتصر فيها على نوعٍ واحدٍ بل حاولنا أن ننوعها بقدر المستطاع، فذكرنا منها ما يصف عواطف كاتبها من حبٍ واستعطاف، وما يعنى بالحادثات الهامة التي غيرت مجرى التاريخ، أو بالشخصيات البارزة التي كان لها أعظم الأثر في هذا العالم ملوكًا كان أصحابها أو فلاسفة أو رجال دين، رجالًا أو نساء، شيبًا أو شبابًا. وكثير منها رسائل خاصة لم يكن كاتبوها يظنون أن أحدًا سيطلع عليها في يومٍ من الأيام.

ولم نقتصر في هذا الكتاب على إيراد الرسائل وحدها، بل قدمنا لكل رسالةٍ بيانًا وافيًا عن الباعث على كتابتها، وأوضحنا بعض ما حوته من إشاراتٍ غامضة. نعم إن الرسالة في بعض الأحيان تقص قصتها بنفسها، ولكنها حتى في هذه الحال تصبح أشد وضوحًا وأكثر متعةً إذا عرف القاري شيئًا عن كاتبها، وعن الباعث على كتابتها، وما كان يحيط به من الظروف وقت أن كتبها؛ ومن أجل هذا يرى القارئ في بعض الأحيان أن رسائل قصيرة سبقتها مقدمات طويلة. وقد أتبعنا كل رسالةٍ بالرد عليها تارةً وبخلاصة هذا الرد تارةً أخرى، أو بما كان لها من أثرٍ وما أعقبها من نتائج إن لم يكن لها رد.

والرسائل منقولة بنصها الكامل فلم يحذف من هذا النص إلا القليل النادر، وقد أشير فيها إلى أجزائها المحذوفة، وهي مرتبة حسب أقدميتها ولكن في نيتنا متى تم ما نريد ترجمته منها أن نرتبها كلها حسب موضوعاتها، وأن نتبعها بفهرس يحوي أسماء كتابها ومن كُتِبَت إليهم، ومن وردت أسماؤهم فيها كما هي في الأصل الإنجليزي.

وليست الرسائل التي أثبتناها هنا خير الرسائل العالمية على الدوام، ولكن الذي روعي في اختيارها أن تمثل أكثر ما يمكن تمثيله من ألوان الأدب، أو أن تلقى أكثر ما يمكن إلقاؤه من الضوء على أهم حوادث التاريخ. وقد اختير بعضها لغرابته، واختيرت

كلها بوجهٍ عام لما فيها من متعةٍ وطرافة. كذلك ليس كاتبوها كلهم من عظماء التاريخ، فمنهم العظيم، ومنهم غير العظيم، بل إن منهم من لا يمت إلى العظمة بسبب مثل نيرون وهنري الثامن. وقصدنا من ذلك أن تمثل الرسائل أوسع ما يمكن تمثيله من مناحي الحياة الإنسانية.

وستلقي هذه المجموعة متى تمت ضوءًا ساطعًا على أهم حوادث تاريخ الإنسانية: على بداية المسيحية، وعلى النهضة الأوربية، والثورة الأمريكية، والثورتين الفرنسية والروسية، والانقلابين النازي والفاشي، وعلى حياة العلماء الأعلام أمثال دارون وهكسلي ومدام كورى.

وكل الرسائل منقولة عن اللغة الإنجليزية، حتى ما كتب منها في الأصل بغير هذه اللغة، فهو منقول عن ترجمته الإنجليزية. ولم نشأ أن نضم إليها شيئًا من الرسائل العربية لأن الذي نهدف إليه هو أن نُطلِع قراء لغتنا على نماذج من الأدب الغربي. أما الرسائل العربية في وسعهم أن يطلعوا على ما يريدون منها في كتب الرسائل المعروفة.

ولعلنا بهذا نكون قد أدينا بعض الواجب علينا للغتنا وأبناء وطننا.

محمد بدران

الإسكندر الأكبر ودارا الثالث يتنازعان سيادة العالم

تتكون سيرة الإسكندر الأكبر كما نقرؤها في كتب التاريخ من مزيجٍ من الحقائق والأوهام لا يسهل التفريق بينها. وليس في المدارس تلميذ لا يعرف ما يعزى إلى الإسكندر في شبابه من أعمالٍ حربيةٍ مجيدة، بعضها على الأقل مما لا يقبله العقل. فهو يتلقى من معلميه الشيء الكثير عن شجاعته الشخصية وجرأته المنقطعة النظير، وعن سيره السريع في القارات الثلاث أوربا وآسيا وإفريقيا، وعن مباغتته أعدائه، وعن فنونه الحربية المبتكرة، وعن رفضه أن يهاجم عدوه ليلًا أو "مختلس منه النصر اختلاسًا"، وعن دراسته على أستاذه أرسطوطاليس، وعن قراءته الدائمة لهوميروس، وعن فتح بيت المقدس وتأسيس الإسكندرية، وعن زيارته لمعبد الإله آمون في الصحراء، وعن أبهته الشرقية، وقسوته البالغة، وعن حياته القصيرة وموته المبكر في الثالثة والثلاثين من عمره.

وقد بدا في السنين الأخيرة ميل من جانب بعض المؤرخين إلى الشك في بعض ما يُروى عن الإسكندر من قصص، وليست الرسائل الواردة هنا مما تبادله الإسكندر ودارا الأكبر الذي هزم في سهل مرثون[١] عام ٤٩١ ق.م والذي ورث عرش دولة كورش الفارسية، بل كانت بينه وبين دارا الثالث الذي ارتقى العرش في نفس السنة التي ارتقى فيها الإسكندر عرش مقدونية (٣٣٦ ق. م). وهي منقولة عن كتاب "روضة الصفا" للمؤرخ الفارسي المسلم ميرخوند (١٤٣٣– ١٤٩٨م)[٢]. ذلك أن قصصًا عن الإسكندر ومجده وعظمته انتشرت بين الناس في العصور الوسطى، وقد جمع ميرخوند طائفةً منها في كتابه السالف الذكر، ووصف صاحبها في هذا الكتاب بأنه جمع بين الرحمة والقسوة، وبين الوعد والوعيد....؛ وقال عنه "إنه عاد من حروبه منتصرًا ظافرًا".

---

(1) Marathon

(٢) ابن برهام الدين الخوندشاه، قضى جزءًا من حياته في هرات وتوفي فيها في ٢٢ يونيه سنة ١٤٩٨ [عن دائرة المعارف الإسلامية]، وتوجد نسخة من هذا الكتاب بالفارسية في دار الكتب المصرية. (المترجم)

وكان مولد الإسكندر نفسه في مدينة بلا[1] عاصمة مقدونية في عام ٣٥٦ ق. م.، وتربى على يد أرسطوطاليس، وناب عن والده في حكم بلاده حين هاجم هذا بوزنطية.

ولم يكن الإسكندر قد بلغ سن العشرين حين اعتلى العرش بعد موت أبيه، وبعد سنتين من توليته أي عام ٣٣٤ ق. م عبر مضيق هلسنت[2] (الدردنيل) على رأس ثلاثين ألفًا من المشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، ونال أول نصرٍ على جيوش الفرس في موقعة نهر غرانيكوس[3]. وعلى أثرها فتحت مدن آسيا الصغرى أبوابها له. ويقول ميرخوند إن دارا هاله تقدم جيوش الإسكندر فكتب إلى عامله على طرسوس يقول: "وصلت إلى مسامعنا.... أخبار عن لصٍّ جمع حوله طائفةً كبيرةً من اللصوص أمثاله، واتخذ طريقه إلى بلادنا. وقد كتبت هذا إليك لآمرك أن تلقي القبض على جميع من معه، وتلقي بهم وأسلحتهم وماشيتهم في البحر. أما زعيمهم فأرسله إلينا مكبلًا بالأغلال. وإن لك من حكمتك وشجاعتك ما يعينك على تنفيذ هذه المهمة اليسيرة. ولما كان هذا اللص فضلًا عن ذلك كله غلامًا حقيرًا من أبناء الروم، فإنا لن نغفر لك عجزك عن القيام بهذا الواجب أو توانيك في القيام به".

ولما عاد الإسكندر من أرمينية نزل على شاطئ نهر أسطوخوس[4] فهدد بذلك مركز دارا. وفي هذا الوقت أرسل إليه دارا الرسالة التالية:

- ١ -

... إن إله السماء قد وهب لي ملك الأرض...

[من دارا إلى الإسكندر]

من عاصمة ملوك العالم. ليعلم الإسكندر اللص إلخ.... ما دامت الشمس تشرق على رأسه، أن مالك السماء قد وهب لي ملك الأرض، وأن الله القادر على كل شيء

(1)Pella

(2)Hellespont

(3)Granicus

(4)Astukhus

قد منحني أركانها الأربعة، وأن العناية قد خصتي بالمجد والرفعة والجلال، وبعددٍ لا حصر له من الأنصار والأحلاف.

وقد ترامى إليَّ أنك جمعت حولك طائفةً من اللصوص وأراذل الخلق، وأن كثرتهم قد أعجبتك وغرتك فأردت أن تستعين بجمعهم ليكون لك تاج وعرش، ولتخرب ملكنا وتدمر أراضينا وتهلك شعبنا.

ولعمري إن هذه النية الخبيثة لخليقة بأمثالك المفتونين من أبناء الروم. والآن يجدر بك بعد أن تقرأ هذه الرسالة أن تغادر من فورك المكان الذي تقدمت إليه. أما الحركة الإجرامية التي أقدمت عليها فلا تخش من أجلها بطشنا وعقابنا، لأنك لم تصبح بعد في عداد أولئك الذين يستحقون غضبنا وانتقامنا. وهأنذا أرسل إليك صندوقًا مملوءًا بالذهب، وحمارًا محملًا بالسمسم لتعرف منهما مقدار ما لدي من مال، وما لي من سلطان، ومع هذه الهدية سوط وكرة؛ فأما الكرة فلكي تلهو بها اللهو الخليق بسنك، وأما السوط فلتعذب به نفسك.

***

ولما وصلت هذه الرسالة إلى يد الإسكندر أمر بالقبض على حامليها وقطع رؤوسهم، ولكن رجال حاشيته هالهم الأمر فرجوه أن يعفو عنهم، فأجابهم إلى طلبهم، وكتب إلى دارا الرسالة التالية.

- ٢ -

.... حتى تقر لي الغلبة وتذوق مرارة نصري

[من الإسكندر إلى دارا]

من ذي القرنين إلى من يدعي أنه ملك الملوك، وأن جيوش السماء نفسها ترهبه، وأن أهل الأرض جميعًا يستضيئون بنوره! أفهل يليق بإنسان كهذا أن يخشى عدوًّا حقيرًا كالإسكندر؟

ألا يعلم دارا أن الله العلي الأعلى يهب العزة والسلطان لمن يشاء، وأن من يدعي من عباده الضعفاء الهالكين أنه إله مثله تخضع له جيوش السماء، يحل به غضب الله فيدمر ملكه ويخرب بلاده!

وكيف يدعي الألوهية إنسان قدر عليه الموت والفناء، معرض لأن ينتزع منه ملكه ويصبح تقسيم الدنيا في يد غيره؟

ألا فاعلم أني عقدت النية على لقائك في ميدان القتال، وهأنذا سائر إلى بلادك مقر بأني خادم الله، ضعيف ذليل، أتضرع إليه وأستغفره وأمجده. ولقد بعثت إليّ مع رسالتك التي تفخر فيها بقوتك سوطًا وكرةً وصندوقًا مملوءًا بالذهب وحمارًا محملا بالسمسم، وأنا أعد هذا كله فألًا حسنًا ودلالةً طيبة. فأما السوط فدليل على أني سأكون أداة لتأديبك، وأني سأصبح حاكمك ومعلمك وهاديك؛ وأما الكرة فتشير إلى أن الأرض وما عليها ستكون خاضعةً لرجالي؛ وأما الذهب وهو بعض ما لديك من كنوزٍ فيدل على أن مالك كله سينقل إلينا؛ وأما السمسم فإن حباته وإن كثر عديدها ناعمة الملمس، وهي من أحسن الأطعمة وأقلها ضررًا؛ وهأنذا أرسل إليك بدلها حفنةً من حب الخردل لتذوق فيها مرارة نصري. ولقد أسرفت في القول وغرك ملكك الواسع فتجبرت وتعاليت، وادعيت أنك رب هذه الأرض، وزعمت أنك تروعني بكثرة جندك وعظم استعدادك. أما أنا فلست أعتمد على غير العناية الإلهية، وما من شكٍّ لدي في أن الله جلت قدرته سيجازيك على كبريائك هذا بأن يجعلك عبرةً لخلقه، وأنه سيقمع من طغيانك، ويذلك إذلالًا لا يعادله إلا كبرياؤك نفسه، ويجعل لي الغلبة عليك. ولست أعتمد في هذا كله إلا على الله وحده والسلام.

***

واضطر الإسكندر أن يعود إلى مقدونية لمرض والدته. فلما شفيت واصل سيره لقتال دارا، والتقى الجيشان، ودارت بينهما رحى القتال. وفي ذلك يقول ميرخوند.

وتحرك الجيشان كأنهما بحران صاخبان، وتلاطما كأنهما جبلان من حديد، وأظلم الجو

من كثرة ما ثار من النقع في الميدان، وصمت الآذان من صوت الأبواق ودق الطبول، وأدرك الناس ما رأوه وشاهدوه معنى قوله تعالى: {إن زلزلة الساعة شيء عظيم}؛ وانشقت السماء.... وجرت الدماء على شفار السيوف كأنها المطر المنهمر، وانعكس على نصال الخناجر الزمردية لون دماء القتلى القرمزى....، وحجبت أجسامهم أرض السهل كله عن الأنظار...

وحالف النصر الإسكندر وولى دارا الأدبار فعبر نهر الفرات، وجمع جيشًا أكبر من جيشه الأول، وعرض الصلح على الإسكندر، وقبل أن ينزل في سبيل ذلك عن نصف ملكه. ولكن الإسكندر رفض ما عرضه عليه، وفضل أن يغامر بجنده في موقعةٍ أخرى يمتلك بها بلاد الفرس كلها، وخالف في ذلك نصيحة قواده. وإليك نص الرسالة التي بعث بها إلى دارا:

- ٣ -

سترى أني أعرف... كيف أعامل من أغلبهم؟

[من الإسكندر إلى دارا]

يا دارا

إن دارا الذي تُسمي باسمه[١] (إذا صدق ما يقوله المؤرخون) قد دمر جميع مدن اليونان على شاطئ الهلسينت وخرب جميع المستعمرات اليونانية على شاطئه الآسيوي. ولم يكتف بهذا كله بل عبر البحر إلى شاطئه الغربي بجيشٍ جرار، وأغار به على بلادنا. ثم حلت به الهزيمة في البحر، فعاد إلى بلاده، ولكنه ترك قائده مردونيس[٢] ليخرب في غيبته أرض اليونان الخصبة المثمرة و يدك مدنها العامرة.

أضف إلى ذلك مقتل أبي فليب الذي سولت لكم نفوسكم الدنيئة أن تحرضوا عليه

(١) دارا الأكبر الذي هم في سهل مرثون **Marathon**.

(2)**Mardonius**

من اغتالوه وتغروهم بما وعدتموهم من مالٍ وفير. بذلك الغدر أوقدتم نار الحرب، وبتلك النذالة أججتموها، وهل ثم غدر أو نذالة أكبر من أن تنحط نفوسكم إلى هذا الدرك، فتحاولوا قتل من تخافون لقاءه في ميدان القتال؟

وهل نسيت ما فعلته حين كنت تقود بنفسك جيشك العظيم لقتالي؟ إذ وعدت من يأتيك برأسي بألف تالنت(١)؟ إن الحرب التي أخوض غمارها الآن ليست إذن إلا حربًا أدافع بها عن نفسي، وقد أثبتت الآلهة عدالة قضيتي بما أتاحته لجيوشى من النصر، وبما استوليت عليه من أقاليم واسعة في بلادك.

لقد انتصرت عليك في ميدان القتال، والشرف لا يحتم علي أن أجيبك إلى شيءٍ تطلبه، وليست لك علي يد أغضي لها، ولكن مع ذلك أعدك وعدًا صادقًا أنك إذا جئتني، كما يجب أن يجيئنى من هم على شاكلتك، أطلقت سراح زوجتك وأبنائك من غير فدية. أما أنت فإنك من الغزاة الفاتحين ولك في هذا تجارب كثيرة، وسترى أني أعرف كيف أعامل من أغلبهم معاملةً شريفة. وإذا كنت في شكٍّ من أنك ستكون هنا آمنًا على نفسك، فإني أعدك بأن أرسل إليك من يحرسك في مجيئك إليَّ وفي عودتك من عندي. وإذا شئت أن تكتب إلى الإسكندر قبل مجيئك فلا تنس أنك لا تكتب إلى ملك وحسب بل اعلم أنك تكتب إلى مليكك أيضًا.

***

وفي اليوم الحادي والعشرين من سبتمبر سنة **٣٣١** ق. م عبرت جيوش مقدونية بقيادة الإسكندر نهر الفرات في أثناء خسوف القمر. وتقابل الفرس واليونان مرةً أخرى عند أربيلا ودارت بينهما معركة من أعظم المعارك الحاسمة في التاريخ. وفيها انتصر الإسكندر وأصبح صاحب الأمر والنهي في الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ، ولم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين من عمره. وفر دارا من ميدان القتال ولكنه اغتيل بيد أحد مرازبته.

---

(١) يقدر التالنت الواحد بين ٢١٣، **٢٣٥** جنيهًا إنجليزيًّا.

وواصل الإسكندر سيره إلى أواسط آسيا ثم أخذ في الثمان السنين الباقية من حياته في تدعيم ملكه، وتنظيم حكمه، وتأديب الخارجين عليه، وفي الدرس والكتابة إلى العلماء والفلاسفة[1]، وفيما لا يحصى من ضروب البذخ والدعارة إلى أن مات في عام ٣٢٣ ق.م. غير متجاوز ثلاثة وثلاثين عامًا، وترك ملكه يتنازعه قادته، حتى اقتسمه بطليموس وسلوكس وانتجنس[2]؛ وأقام أولهما في مصر وثانيهما في سوريا وثالثهما في مقدونية.

---

(١) اقرأ الخطاب التالي الذي أرسله إلى ديوجين.

(2)Selcucus و Antigonus

ديجين يرفض الذهاب لمقابلة الإسكندر

ولد الفيلسوف ديجين في سينوب من أعمال آسيا الصغرى في عام ٤١٢ قبل الميلاد، ومات في كُرنث ببلاد اليونان في عام ٣٢٣ ق. م وقد أظهر منذ صباه اهتمامًا عظيمًا بالمسائل الفلسفية، وما لبث أن اشتهر بالفقر المدقع، وبقدرته العظمى على ضبط النفس، وببحثه المتصل عن رجلٍ شريف، "وبالتنقيب عنه في الظلام الحالك، مستعينًا على ذلك بنورٍ ضئيلٍ ينبعث من مصباحٍ صغير". ويُظهِر الخطاب الآتي كيف استطاع رجلٌ يسيطر على نفسه أن يتحدى رجلًا سيطر على العالم المعروف كله.

- ٤ -

فليأت هو إليّ:

كتب ديجين إلى أرستيبس[١] يقول

إلى أرستيبس:

كتبت إليَّ تقول إن الإسكندر ملك مقدونية شديد الرغبة في أن يراني، ولقد أحسنت إذ ذكرت لقبه لأنك تعلم أن لا سلطان لأحدٍ عليّ مهما يكن من شأنه وشأن المقدونيين. فإذا كان هذا الأمير يريد أن يتصل بي ليعرف كيف أعيش فليأت هو إليّ، لأني أعتقد، وسأظل أعتقد أن أثينا تبعد عن مقدونية بقدر ما تبعد هذه عن تلك والسلام.

***

وكان الاجتماع الوحيد بين الإسكندر وديوجين هو اجتماعهما التاريخي في أثينا حين التقيا صدفةً، وسأله الملك كيف يستطيع أن يخدمه؟ فكان جواب الفيلسوف: "إن

---

(1)Aristippus

أعظم ما تستطيع أن تخدمني به أن تبتعد عن ضوء مصباحي". وتأثر الملك العظيم بقناعة ديجين فتنحى عن طريقه وهو يقول: "لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديجين".

ويعلق المؤرخ الكبير بلوطارخ صاحب كتاب "السير"على ذلك بقوله: "وماذا يعني هذا في الحقيقة ؟ إن معناه أن الإسكندر قد ساءه ما هو عليه من غنى وعظمة وجاه، لأنها كلها عقبات تحول بينه وبين الفضيلة، ولا تترك له من الوقت ما يمكنه من البحث عنها أو ممارستها، وأنه كان يحسد ديجين على ثيابه الساذجة الممزقة التي كانت له درعًا أقوى من دروع الإسكندر وخيله وحرابه، ولو أنه استطاع أن يسيطر على نفسه لبلغ من القوة ما بلغه ديجين، ولاحتفظ فضلًا عن هذا بملكه وقوة بأسه. بل إن مقامه العظيم كان يجب أن يحفزه إلى التخلق بأخلاق ديجين، لأن ثراءه وملكه وعظمته المعرضة لعبث الأقدار كانت تتطلب إليه قوةً في الخلق، وسيطرة على التنفس، أكثر ما تتطلبه أحوال ديجين نفسه".

بين شيشرون وقيصر

لا يزال الهدف الذي كان يهدف له قيصر بأعماله كلها موضع الحدس والتخمين؛ ولكن شيئًا واحدًا على الأقل لا شك فيه، ذلك أنه لم يكن يريد أن يبقي على ذلك الحكم الأرستقراطي الفاسد الذي كانوا يسمونه "الجمهورية الرومانية" وكان معظم منافسيه يعرفون عنه ذلك وإن اختلفوا في مقاصده النهائية. ولما تهددت أخطار من هذا النوع سلطة مجلس الشيوخ العليا قبل عهد قيصر بجيلٍ أو بجيلين وجد هذا المجلس من يدافع عنه من الأنصار في شخص سلا[1]. أما قيصر فكان شأنه غير شأن سابقيه، فقد أثار المجلس عليه أقوى رجاله، ولكنهم كانوا أضعف من أن يقفوا في سبيله.

ولم يكن ماركس تليوس شيشرون[2] أيضًا من غير ذوي الأطماع، ولكنه كان من ذلك الصنف الذي يفضل أن يقف من الكفاح القائم بين قيصر ومجلس الشيوخ موقف المتفرج؛ غير أن المتفرج المحايد مهما تكن نزاهته –وكان شيشرون أبعد الناس عن هذه النزاهة– لا يسلم من ضربةٍ طائشةٍ تصيبه من حينٍ إلى حين. على أن شيشرون لم يقف موقف الحياد الدقيق، إذ خال أن له من القوة السياسية أكثر مما كان له في واقع الأمر؛ فقد كان قبل عهد قيصر أعظم رجلٍ في إيطاليا، وكان الناس بعد أن يفرغ من خطبة يلقيها عليهم يحيونه بقولهم إنه "أبو البلاد". وقد لقبه كاتو[3] بأنه جمهورى يمثل في شخصه أقدم تقاليد الجمهوريين، وكان لهذا التقدير أعظم الأثر في عقل شيشرون.

واشتغل شيشرون أول الأمر بالمحاماة، وكانت من المهن التي تدر على أصحابها المال الكثير، واشتهر فيها ببلاغته التي أوصلته إلى منصب القنصلية. وكانت قوة قيصر آخذة وقتئذٍ في الظهور فبدأ يخشى هذا الخطيب المفوه، ولكنه لم يكن يحقد عليه، وبلغ

---

(1)Sulla

(2)Marcus Tullius Cicero

(3)Cato

من أمره أنه لما ألف هو ويمي وكراسس[1] الحكومة الثلاثية الأولى عرض على شيشرون أن يشترك معهم في حكم الدولة الرومانية اعتقادًا منه أن من مصلحتهم أن يضموه إلى جانبهم.

غير أن شيشرون رفض هذا العرض، وظل في ظاهر أمره صديقًا لقيصر، ولكنه كان في خبيئة نفسه يفضل عليه يمي ظنًّا منه أن انتصار يمي يحفظ لمجلس الشيوخ سلطانه. ولما تحول النزاع بين يمي وقيصر إلى حربٍ سافرةٍ انضم شيشرون بكليته إلى أولها. فلما حاقت به الهزيمة وفرَّ إلى بلاد اليونان أصبح شيشرون غير آمنٍ على حياته وتملكه اليأس كما يستدل على ذلك من رسالةٍ كتبها في ١٤ أبريل سنة ٤٩ قبل الميلاد إلى صديقٍ له يدعى تيتس يميونيس أتكس[٢]، وهو رجل روماني من رجال الأعمال ذو ميولٍ أدبية. وبعد ثلاثة أيام من تاريخ هذه الرسالة جاءته الرسالة التالية من قيصر يؤمنه فيها على حياته، ولكنه يحذره من التدخل في النزاع القائم بينه وبين يمي.

- ٥ -

... رأى شيء أجدر من هذا بالرجل الصالح؟

في الطريق إلى أسبانيا- في ١٦ إبريل [٤٩. ق.م]

قيصر الإمبراطور يحيي شيشرون الإمبراطور[٣]

إني أعرف أنك لا تقدم على عملٍ خالٍ من الحكمة ينقصه العقل والروية، ولكن شائعات وصلت إلى علمي لم يطمئن لها خاطري، فرأيت أن الواجب يقتضيني أن أكتب إليك لأسألك بحق ما بيننا من ودٍّ متبادل ألا تتخذ لك الآن، وقد أصبح الحظ حليفي،

(1)Crassus, Pompey

(2)Titus Pomponius Atticus

(٣) كل ما كان للفظ إمبراطور Emperator من معنى في الزمن القديم هو "القائد".

موقفًا لم تر من الواجب عليك أن تتخذه وقت أن كان الأمر محوطًا بالشك والغموض. فإن خالفت هذه النصيحة أسأت أشد الإساءة إلى ما بيننا من صداقة، وسلكت سبيلًا أبعد ما تكون عن مصلحتك، لأنك حينئذ لا تترك مجالًا للشك في أنك تتبع الجانب الخاسر -فالحظ كله الآن في جانبنا والخسارة كلها في جانبهم-، وفي أنك لا تعرف الظروف الحقة المحيطة بقضيتنا، والتي لا تختلف الآن في شيءٍ عما كانت عليه حين رأيت أن من الخير ألا تشترك في النقاش الذي يدور حولها. وفضلًا عن هذا فإنك تكون قد طعنت في عملٍ من أعمالي وأنا أعد هذا الطعن أشد ضربة توجه إلي، وأستحلفك بحق ما بينا من الود ألا تفعل.

وهل ثمة شيء أجدر بكرامة الرجل الصالح والمواطن الهادئ المسالم من أن يبتعد عن الاشتراك في المنازعات الداخلية؟ ذلك موقف يسر الكثيرين من الناس أن يقفوه، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك لما يكتنفه من الأخطار. أما أنت فإنك بعد أن تقنع نفسك بما في حياتي من دلائل على الظفر صادقة، وبما اتخذته في شأنك من قرارٍ أملته عليّ صداقتي لك، ستجد ألا شيء أسلم ولا أشرف لك من أن تنفض يدك من كل تدخلٍ جدي في النزاع القائم بيننا.

***

ومع أن شيشرون عرف وقتئذٍ أن لا أمل ليمي وأتباعه في النصر، فإن ما أظهره له قيصر في رسالته من أدلة صداقته، وما قدمه له من نصحٍ بأن يتبع سبيل العقل والحكمة، لم يتغلبا على ما كان يشعر به من عطفٍ على يمي. غير أنه مع ذلك آثر العزلة والانسحاب من ميدان السياسة، وظل عدة شهور يراسل زعماء الطائفتين المتنازعتين، حتى علم أن قيصر حاق به الخطر في حروبه مع أنصار يمي في أسبانيا، فاستقر رأيه على أن ينضم إلى بطله في اليونان. ولكنه لم يلق من يمي ما كان يطمع فيه من ترحيب. ولم يلبث قيصر أن تغلب على أعدائه في أسبانيا ثم سار بجيوشه إلى بلاد

اليونان في عام ٤٨ ق.م.، وهزم يمي في موقعة فرسالس[1] الحاسمة.

وظن شيشرون أن قيصر لن يصفح عنه هذه المرة، ولكن القائد الظافر أمنه على نفسه، وسمح له بأن يغادر أرض اليونان، وأن يقيم في جنوب إيطاليا. ولما جاء قيصر إلى تارنتم[2] في سبتمبر سنة ٤٧ أتاه شيشرون محييًّا وهو يرتجف من الخوف، ولكن قيصر في ساعة نصره كان في مقدوره أن يكرم وفادة هذا الشيخ المحطم، فنزل من عربته وعانق شيشرون وتحدث إليه حديثًا وديًّا طويلًا، ودعاه أن يعود إلى حياته القديمة.

وظل شيشرون من ذلك الوقت يعيش معيشة سراة الريف حتى قُتل قيصر بعد عودته إلى إيطاليا بنحو ثلاث سنين. وكان في هذه الفترة يقضي وقته في دراسة الآداب والفلسفة وفي كتابة الرسائل. ولم يكن له وقتئذ نفوذ.

وكان همه كله أن يدافع عن المنفيين من أنصار يمي؛ وكانت إشاراته إلى قيصر هي النفاق بعينه. وظل الرجلان يتظاهران بالصداقة والحب إلى يوم مقتل قيصر، وبلغ من أمر شيشرون أن استضافه في بيته الريفي الفخم قبل مقتله بثلاثة شهور.

ولم يشهد شيشرون مقتل قيصر في الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ ق.م، ولكن أنطونيوس أكد أنه كان العقل المدبر للمؤامرة. ولم يلبث شيشرون أن جهر بعدائه الكامن لقيصر، وانضم إلى قاتليه، وكان جزاؤه أن قتله أنصار أنطونيوس في السابع من ديسمبر سنة ٤٣ ق. م.

وبعد عدة سنين من ذلك الوقت، وبعد أن أصبح أكتافيوس –ابن أخى قيصر ومتبناه– إمبراطور الرومان، رأى أحد أحفاده يقرأ بعض كتابات شيشرون، فتناول الإمبراطور ما كان يقرؤه الشاب، ونظر فيه نظرةً فاحصة، ثم أعاده إلى الصبي المضطرب وهو يقول: "لقد كان هذا يا بني رجلًا بليغًا.. رجلًا بليغًا محبًّا لوطنه".

---

(1)Pharsalus

(2)Tarentum

من أجريبينا أم نيرون إلى ولدها الامبراطور

تسترحمه وتطلب إليه أن يبقي على حياتها

كانت أجريبينا[١]، أم نيرون وزوج الإمبراطور كلوديس[٢] هي التي أعانت ابنها على أن يرتقي عرش الإمبراطورية الرومانية في عام ٥٤ ق. م بدل برتنكس[٣] الوارث الشرعي، وكان نيرون معاصرًا للمسيح وللقديس بولس. ويصف المؤرخون هذا العاهل بأنه كان أفحج الساقين، غليظ العنق، بطينًا، وأنه كان يسير في الطريق أحيانًا عاري الجسم. وكان إذا غضب على رجلٍ من أصدقائه أو من رجال الدولة أرسل إليه كملةً قصيرةً يوحي إليه فيها أن انتحاره لن يسيء إليه أو إلى الدولة. وكانت هذه الإشارة في بعض الأحيان تؤدي الغرض المقصود منها، وكان ممن قتلهم بهذه الطريقة الفيلسوف سنكا نفسه حين تلقى إشارةً بهذا المعنى من تلميذه. وكان من المشروعات الغريبة التي ملكت على نيرون تفكيره أن يكتب تاريخًا شعريًّا لروما في أربعمائة كتاب. وكان يسره أحيانًا أن يقرأ على الناس بعض ما كتبه من هذا التاريخ بصوت مرتفع.

واستطاع نيرون بعد أن جلس على سرير الملك أن يقضي على حياة الكثيرين ممن كانوا يعارضونه في مشروعاته الجنونية. وقد أغرته يياسبينا[٤] إحدى محظياته وزوجة الإمبراطور أتو[٥] فيما بعد بإعدامها، واتهمتها كذبًا بالخيانة وبالتآمر على حياة ابنها، فكتبت أجريبينا إلى ولدها الرسالة التي أثبتناها هنا. أما أجريبينا نفسها فكانت من أسوأ النساء سيرةً، فقد دبرت مختلف المؤامرات، وحاكت كثيرًا من الدسائس حتى ارتقى ابنها عرش الإمبراطورية، فقضت

---

(1)Agrappina

(2)Claudius

(3)Britannicus

(4)Poppaea Sabina

(5)Otho

بالسم على حياة منافسيه وأعدائه، ومنهم الإمبراطور كلوديس عمها وزوجها الثالث. ويشك بعض المؤرخين في هذا، ولكن مهما يكن من صدقه أو كذبه فإن فيه دليلًا قويًّا على ما كان شائعًا في روما في القرن الأول الميلادي من قسوةٍ وفساد.

***

- ٦ -

"... لقد حملتك في رحمي... وغذيتك... بدمي..."

لست أعجب من أن سلانا العقيم لا تشعر بشيءٍ من العطف والحنان، لأن التي لم تلد قط ولدًا لا تعرف بطبيعة الحال ما يصيب الأم إذا فقدت ولدها. والمرء يكره بطبيعته ما لم يجربه، وإذا لم يكن يكرهه فإنه على الأقل لا يعبأ به.

.... وإني لأعجب كيف تستطيع الألفاظ مهما بلغ من سحرها أن تحملك على أن تعير هذه التهم الشنيعة أقل عناية.

ألست تعرف يا ولدي ما تنطوي عليه قلوب الأمهات كلهن من حبٍّ لأبنائهن؟ إنه حب لا تحده حدود، ويزيده على الدوام ما في قلوبهن من حنوٍّ لا تعرفه إلا الأمهات أنفسهن. وهل يمكن أن يكون شيء أعز علينا مما اشتريناه نحن بحياتنا حين عرضناها إلى الخطر، أو أن يكون شيء أعظم لدينا قدرةً مما حصلنا عليه بما لا يعرفه غيرنا من الحزن والألم؟ إنها آلام وأحزان تجل عن الوصف، ولولا ما يملأ قلوبنا من أملٍ في أننا سوف نبصر في خاتمتها مولودًا سعيدًا ينسينا آلامنا لفني العالم ولم يبق به إنسان. وهل نسيت أني حملتك في رحمي تسعة أشهر كاملةً وغذيتك فيها بدمي؟ وهل يصدق إنسان أني بعدئذٍ أأتمر بولدي العزيز الذي جئت به إلى العالم وسط هذه الآلام الشديدة؟ لست أدري لعل الآلهة قد أغضبها مني إسرافي في حبك، فدبرت ما دبرت لتجزيني على هذا الحب شر الجزاء.

ويل لك يا أجريبنا! إنك تُتهمين بجريمةٍ لا يصدق أحد من الناس أنك ترتكبينها... وماذا أفيد من لقب الإمبراطورة إذا كنت أُتهم بجريمةٍ تشمئز منها أحط النساء... ألا ما

أتعس الذين يتنفسون هواء بلاط الملوك...!

إن أكبر الناس عقلًا، وأعظمهم حكمةً، لا يأمنون على أنفسهم من العواصف التي تثور في قصورهم، بل إن الخطر ليكمن فيها حتى وهى هادئة. ولكن لِمَ ألوم بطانتك؟ فهل هؤلاء هم الذين يتهمونني بقتل ولدي؟... بحقك ألا ما خبرتني لم أأتمر بولدي لأقتله؟ أأقتله ليزداد بذلك بؤسي وشقائي؟ إن هذا غير معقول. وأي أملٍ أرتجيه بالقضاء عليك؟ إني لأعرف أن التطلع إلى الملك كثيرًا ما يفسد الفطرة البشرية، وأن العدالة تعجز أحيانًا عن الانتقام من يرتكبون هذا الجرم الشنيع، وأن من يطمحون إلى مثل هذا المركز السامي لا يبالون بما يرتكبون من الآثام إذا ما نالوا ما يشتهون... أما أنا فأي إله أرتجيه ليغفر لي ذنبي ويطهرني من هذه الخطيئة إن ارتكبتها؟...

وهل ثمة يا ولدي صعاب لم أتغلب عليها لأضع التاج على رأسك؟ ولكني أسيء إليك حين أذكرك بما فعلت لك. ليس من واجبي وأنا البريئة من الذنب أن أدفع التهمة عن نفسي، بل واجبى هو أن أعتمد كل الاعتماد على عدالتك والسلام.

***

ويبدو أن نيرون لم يتأثر بدفاع أمه عن نفسها أو يقتنع به، فأمر بقتلها، وأُعدمت خنقًا في عام ٥٩ بعد الميلاد، ثم تملكته فيما بعد سورة الغضب فركل برجله بوبيا التي دبرت مقتل أمه، وكانت بوبيا حاملًا في ذلك الوقت فقضت نحبها من أثر الضربة.

وبعد أن حكم نيرون روما أربعة عشر عامًا كأسوأ ما يكون الحاكمون قضى مجلس الشيوخ بإعدامه، ولكنه استطاع أن يفوت على المجلس قصده إذ قتل نفسه بالسيف. وتقول بعض القصص إن آخر ما نطق به هو قوله: "وا أسفاه! كيف يموت الفنان هذه الميتة!". ويروى أن أحدًا لم يجرؤ على مجابهة نيرون بحقيقة أمره إلا بترونيس[١]، فقد كتب إليه خطابًا يصفه فيه بأنه "أسوأ مغنٍ عرفه العالم"، وأيقن أن الإمبراطور سوف لا يعفو عنه فانتحر بقطع بعض شرايينه.

(1)Petronius

سنكا يندد بالمعاملة التي يلقاها العبيد في أيامه

ويدعو إلى الرجوع للمعاملة الإنسانية القديمة
التي كانوا يعاملون بها في أيام الرومان

رسالة إلى صديقه لوسليس[١]

لم يقرر التاريخ بعد أكان سنكا من سفلة الناس أم لم يكن منهم، فمن المؤرخين القدماء من يقول إنه كان من كبار المرابين، وإنه أوقد نار الثورة في بريطانيا بقسوته على مدينيه؛ ومنهم من يقول إنه وهو معلم نيرون قد سمح لهذا الغلام بأن يطلق العنان لشهواته الوحشية.

وكانت حياة هذا الفيلسوف سلسلة من الظفر والنجاة من المآزق الحرجة. وقد ولد في أسبانيا وانتقل منها في أيام شبابه إلى روما وأصبح فيها من كبار الكتاب والمحامين. وأثار نجاحه فيها عداء الإمبراطور كلجيولا[٢] الذي وصف كتاباته بأنها لا تفترق في شيءٍ عن "تمارين صبية المدارس". ولم يُنجه من غضب كلجيولا إلا اعتلال صحته، فقد أكدوا للإمبراطور أنه لن يعيش طويلًا. وفي أيام الإمبراطور كلوديس[٣] غضبت عليه زوجته مسالينا[٤] وعملت على نفيه إلى كورسكا. ولما سقطت مسالينا وتزوج كلوديس بأجريبينا استدعى سنكا إلى روما ليكون معلمًا لولدها نيرون. وزاد سلطان سنكا أول الأمر في أيام نيرون ثم ضعف هذا السلطان حتى لم يكد يبقى له أثر بعد أن وافق على قتل ولية نعمته أجريبينا، فانزوى في عقر داره وتوسل إلى نيرون أن يأذن له بالانسحاب من الحياة العامة –أي أن يبقى حيًّا. وظل شبح الموت يتتبعه فترةً من الزمان كتب في

(1)Lucilius
(2)Caligula
(3)Claudius
(4)Messalina

سنتين منها –بين سنتى ٦٣، ٦٥ ميلادية– رسائله الشهيرة إلى لوسليس، وهو فيلسوف أبيقوري. وقد حوت هذه الرسائل مبادئ خلقية هي التي يشتهر بها هذا الفيلسوف اليوم، وهي تبحث في الأسفار والصحة والدين والعلوم والموت ومباريات المصارعين، ومنها رسالة في الرق حوت من الأفكار ما لا يقل جدةً عن أفكار هذه الأيام:

-٧-

"وقد تكون روحه... روح رجلٍ حر"

يسرني ما حدثني به بعض القادمين من عندك، وهو أنك تعيش مع عبيدك معيشة الصديق مع الصديق، وهذا هو الذي يليق بمن كان له مثل عقلك وعلمك. ولقد يقول الناس: "إنهم عبيد!" كلا أيها الرفاق "عبيد!" كلا: إنهم أصدقاء منزهون عن الزهو والصلف. "عبيد!" كلا! إنهم عبيد مثلنا إذا ما فكر الإنسان أن للأقدار سلطانًا متساويًا على العبيد والأحرار.

من أجل هذا تراني أسخر من أولئك الذين يظنون أن الرجل إذا جلس إلى مائدة الطعام مع عبده كان في ذلك ما يشينه ويحط من قدره. ولست أدري أي حطةٍ في هذا؟ وهل لهذا الاعتقاد من سببٍ إلا أن آداب من يفخرون بمالهم تقضي بأن يحيط صاحب الدار نفسه بطائفةٍ من العبيد يقفون في خدمته وهو على مائدة الطعام، فيأكل السيد من طعامه أكثر مما يطيق، ويدفعه نهمه إلى أن زخم معدته حتى تتخمر ولا تؤدي عملها الذي خُلقت له، فيقاسي من الآلام في إفراغها مما فيها أكثر مما قاساه في إدخاله إليها. والعبيد في أثناء ذلك لا يتحركون ولا ينطقون، وإذا همس أحدهم ألهب جسده بالعصا وجوزي على أقل صوتٍ يصدر منه، ولو كان سعالًا أو عطسًا أو فواقًا، بضرب السياط، وقصارى القول أن من يفسد على رب الدار هذا السكون الشامل يعاقب على عمله أشد العقاب. وهم ملزمون أن يظلوا طوال الليل وقوفًا على أقدامهم جياعًا صامتين.

ونتيجة هذا كله أن أولئك العبيد الذين لا يُسمح لهم بالحديث في حضرة سيدهم يتحدثون عنه من وراء ظهره. أما عبيد الأيام الغابرة الذين لم تكن أفواههم مكممة، والذين لم يكن يُسمح لهم بالحديث في حضرة سيدهم فحسب بل كان يُسمح لهم أيضًا بالحديث معه، فقد كانوا على استعدادٍ لأن يقدموا رقابهم فداءً لسادتهم، وأن يتحملوا طائعين كل خطرٍ يحيق به.

.. ومن أجل هذه المعاملة المتغطرسة نشأ القول المأثور وذاع: "يكون للرجل من الأعداء بقدر ما له من العبيد". ولم يكن هؤلاء أعداء في أول أمرهم، بل إننا نحن الذين جعلناهم لنا أعداءً.

وهناك ضروب أخرى من سوء المعاملة القآسيا الوحشية سأضرب صفحًا عنها. وحسبي أن أقول إنا لا نعاملهم معاملة بني الإنسان بل معاملة دواب الحمل، وإذا ما اضطجعنا على التقاعد في وليمةٍ أقبل أحدهم يمسح ما تجشأناه من الطعام، وانحنى آخر تحت المائدة ليجمع فضلات الأضياف السكارى، وجاء ثالث ليقطع من لحم الطير أحسن ما فيه وهو صدره وفخذه، بيد دربت على هذا العمل حتى أتقنته فلا تخطئ فيه.

ألا ما أتعس هذا الإنسان. إن همه في الحياة "أن يتقن قطع لحم الطير السمين"، ولعل أتعس ممن يتعلم هذا الفن وهو مرغم على تعلمه، ذلك الذي يتعلمه رغبةً منه في ذلك التعليم. وثمة عبد آخر يقدم النبيذ، وهو مرغم على أن يتزين بزى النساء، وألا يجعل لتقدم السن أثرًا في عمله، فظل غلامًا طول حياته، يجذب إلى هذه السن جذبًا. فإذا لاحت عليه مخايل الجندي لم يسمح له بالالتحاء، بل يقص شعره أو يقتلع من جذوره. وعليه أن يظل طوال الليل يقظًا يقسم وقته بين مشاهدة سكر سيده ونخوره. فهو رجل إذا آوى سيده إلى حجرته وغلام إذا جلس إلى مائدته. وثمة عبد آخر لا عمل له إلا تقدير قيمة الضيفان؛ وما أشق عمل هذا المسكين الذي أرغم على أن يقضي فيه كل وقته، وعليه أن يعرف أي الناس يؤهله ملقه أو فحشه أو نهمه أو سفاهته لأن يدعى إلى وليمة الغد. ولا تنس بعد ذلك موردي الطعام البارعين في

ملاحظة أذواق سادتهم، ليعرفوا أي التوابل تقوي فيهم شهوة الطعام، وأيها تسر أعينهم، وأي مزيجٍ جديد يوقظ المعدة المتخومة، وأي طعامٍ تعافه أنفسهم إذا كانت المعدة ممتلئة، وأيها تشعره بالجوع في يومٍ معين؟ أولئك هم العبيد الذين يأبى السيد أن يطعم معهم لأنه يرى في الجلوس مع عبده على مائدة واحدة حطة له ومهانه، نسأل آلهة السماء أن تقينا شر هذا الاعتقاد.

ولكن كم من الأسياد يخلقهم السيد نفسه من بين أولئك العبيد! لقد رأيت بعيني سيد كلستس[١] السابق واقفًا في الصف أمام بيت كالستس، ورأيته ممنوعًا من دخول القصر وغيره يرحب بهم فيه. وهذا السيد نفسه هو الذي لصق على جسم كلستس بطاقةً كتب عليها "للبيع"، وأرسله إلى سوق الرقيق مع غيره من العبيد غير الصالحين. ولكن ذلك العبد الذي كان بين الطائفة الأولى من العبيد الذين بحت حنجرة النخاس من النداء عليهم في سوق الرقيق قد انتقم لنفسه فيما بعد من سيده فمحا اسمه من سجل الضيفان، وقرر أنه غير جديرٍ بدخول بيته. لقد باع كلستس سيده، ولكن انظر أي جزاءٍ جازى به كلستس هذا السيد؟

ألا فلتعلموا أن الذين تسموهم عبيدًا. خلق أمثالكم، تبسم لهم السموات التي تبسم لكم، ويتنفسون الهواء كما تتنفسون، ويحبون كما تحبون، ويموتون كما تموتون. وأي شيءٍ يمنعكم أن تنظروا إليهم على أنهم قد وُلدوا أحرارًا كما وُلدتم؟ وأي شيءٍ يمنعهم أن ينظروا إليكم على أنكم عبيد أمثالهم؟ وكم من رجلٍ عظيمٍ بمولده ونشأته كان يخطو الخطوات الأولى إلى مقعده في مجلس الشيوخ، تؤهله إليه خدمته في الجيش، قد سقط من سماء مجده عقب مذبحة يوم ماريوس[٢]؛ فمنهم من أصبح راعيًا، ومنهم من أضحى خادمًا في كوخٍ ريفي. فحقروا إذًا من قد تنزل بكم الأقدار إلى مستواهم في يومٍ من الأيام، وقد يكون نزولكم إلى مستواهم في اليوم الذي تحقرونهم فيه.

---

(1)Calistus

(2)Marius

ولست أريد أن أقحم نفسي في هذا الموضوع الواسع، فأفضل القول في معاملة العبيد الذين نشمخ عليهم بأنوفنا، ونعذبهم ونهينهم، ولكني أحب أن أتقدم لبني وطني بهذه الكلمة الموجزة التي تجمع كل ما أريد أن أنصحهم به: "عاملوا من هم دونكم كما تحبون أن يعاملكم من هم فوقكم، وكلما ذكرتم ما لكم من سلطانٍ على عبيدكم، اذكروا أيضًا أن لغيركم هذا السلطان نفسه عليكم". وقد يقول الواحد منكم: "ولكني لا سلطان لأحدٍ عليَّ"، ولكن لعل من يقول هذا لا يزال في مستهل حياته، ولعله سيكون له سيد في وقتٍ من الأوقات. فهل تعلمون في أية سنٍ استُرِقَّت هكيبا(١) وأم دارا، أو استرق كروسس(٢) أو أفلاطون أو ديجين؟

كن شفيقًا على عبدك، بل أستطيع أن أقول كن لطيفًا في معاملته، واسمح له بأن يتحدث إليك، ويفكر معك، ويعيش معك. ولست أشك في أني حين أقول هذا سيهب في وجهي جميع المتطرفين ويرفعون عقيرتهم قائلين: "لا شيء في العالم أكثر من هذا تحقيرًا لنا ومهانة". ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين أراهم أحيانًا يقبلون أيدي عبيد غيرهم. ألا تعلمون كيف كان آباؤنا ينتزعون من نفوس السادة كل ما يثير الحقد عليهم، وينتزعون من نفوس العبيد كل ما يدعو إلى إذلالهم وإهانتهم؟ إنهم كانوا يدعون السيد "أبا الأسرة" ويدعون العبيد "أعضاء الأسرة"، وهي عادة لا نزال نشاهدها في المسرحيات الهزلية. وكانوا فوق ذلك يخصصون يومًا من الأيام يجتمع فيه السادة والعبيد على مائدةٍ واحدة؛ ولم يكن هو اليوم الوحيد الذي يجتمعون فيه، بل كانت لهم أيام أخرى من نوعه، ولكن الاجتماع في هذا اليوم كان فرضًا واجبًا، سواء اجتموا في غيره أو لم يجتمعوا. وكانوا فوق ذلك يمكنون العبيد من أن تكون لهم في منازلهم مكانة ممتازة شريفة، وأن تكون لهم كلمة مسموعة في تصريف شئونها. ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن المنزل ليس إلا دولة صغيرة تصرف أمورها بالتشاور بين أعضائها جميعًا.

ورب قائلٍ يقول: "هل تطلب إليَّ أن أجلس مع عبيدى كلهم على مائدة واحدة

(1)Hecuba

(2)Croesus

؟" لا يا سيدي! لست أطلب إليك هذا كما لا أطلب إليك أن يجلس معك الأحرار جميعهم، بل الذي أريد أن أقوله لك إنك تخطئ إذا ظنت أني أريد أن تمنع من الجلوس معك على المائدة بعض العبيد الذين تظن أن عملهم حقير، كسائقي البغال أو الرعاة. يجب أن تقدر الناس بأخلاقهم لا بما يؤدونه من أعمال؛ ذلك أن الأخلاق يكسبها الرجل نفسه، أما الأعمال التي يؤديها فإن الظروف هي التي تخلقها له. ادع إلى مائدتك بعض العبيد لأنهم جديرون بهذا الشرف، وادع إليها غيرهم حتى يصبحوا جديرين به، فإذا كان في طباعهم بعض صفات العبيد لطول اختلاطهم بالطبقات الوضيعة، فإن هذه الصفات تزول حتمًا حين يختلطون بالطبقات الراقية التي نالت من التربية الحسنة نصيبًا موفورًا. ولست يا صديقي لوسليس في حاجةٍ إلى أن تبحث عن أصدقائك على منصات الخطابة أو في مجلس الشيوخ، بل إنك إذا وجهت لهذا الأمر عنايتك والتفاتك وجدت هؤلاء أيضًا في منزلك. فأنت كثيرًا ما ترى الألوان الطبيعية مهملة لا ينتفع بها لعدم وجود الفنان القادر على مزجها، ولكنها إذا جربت ظهر بهاؤها ورونقها. وكما أن الأحمق الأبله هو الذي يشتري الجواد من غير أن يفحص عن صفاته وفضائله، بل يكتفي بالنظر إلى سرجه ولجامه، كذلك السفيه الأخرق هو الذي يقدر الناس بثيابهم أو منزلتهم، إذ ليست منزلة الرجل إلا ثوبًا يرتديه. "إنه عبد" ولكن نفسه قد تكون نفس الرجل الحر؛ "إنه عبد" ولكن هل يقوم وضعه هذا عقبة في سبيله؟ وهل فيكم من ليس عبدًا؟ إن هذا عبد لفجوره، وهذا عبد لشرهه، وذاك عبد لمطامعه، والناس كلهم عبيد للخوف. وفي وسعي أن أدلكم على قنصلٍ سابقٍ وهو الآن عبد لعجوزٍ شمطاء، وعلى من هو عبد لخادمه وهو من أصحاب الملايين. وكم من شبانٍ كرام المحتد يستعبدهم الممثلون الماجنون. والحق أن ليس ثمة عبودية تحقر من صاحبها كالعبودية التي يفرضها هو على نفسه؛ لهذا يجب ألا يمنعكم أولئك المتحذلقون أن تحسنوا معاملة العبيد، وألا تتعالوا عليهم. إنهم بذلك يحترمونك بدل أن يرهبوك. وقد يظن بعضكم أني حين أدعوا العبيد إلى احترام سادتهم بدل أن يخافوهم، إنما أدعو إلى تحرير العبيد جملةً، وإنزال السادة من سماء عليائهم. سيقولون: "إن الذي يريد أن يقوله في بساطة هو أن العبيد

يجب أن يحترموا سادتهم كأنهم عملاء لهم أو زوارًا جاءوهم في الصباح الباكر!" ومن يقل هذا ينس إن ما يكفي لرضاء الإله لا يمكن أن يكون أقل مما يرضي السيد. إن الاحترام معناه الحب، والحب والخوف لا يجتمعان، ولهذا أرى أنكم على حقٍّ حين ترغبون في ألا يرهبكم عبيدكم، وحين تكتفون بعقابهم بلسانكم؛ فالحيوان الأصم هو وحده الذي يحتاج إلى السوط.

وليس كل ما يغضبنا يؤذينا حتما، بل إن حياتنا المترفة هي التي تجعلنا نغضب وتثور إذا وقف شيء في سبيل أهوائنا. إننا نتطبع في ذلك بطباع الملوك، فهم أيضًا ينسون ما لهم من بطشٍ وما في غيرهم من ضعف فيغضبون ويثورون كأن أذى قد لحقهم، في حين أن مركزهم السامي يجعلهم بمنجاةٍ من كل أذى؛ ولكنهم لا يدركون هذا بل يتلمسون أخطاء الناس ويصبون عليهم جام غضبهم وأذاهم، ويصرون على أنهم قد أوذوا لكي يبرروا إيذاء غيرهم.

ولست أريد أن أطيل عليكم في غير حاجة، فلستم في حاجةٍ إلى من يحذركم وينذركم؛ وهذا دليل آخر على حسن أخلاقكم، وعلى قدرتكم على أن تصدروا أحكامكم بأنفسكم، وألا تحيدوا عن هذه الأحكام. أما صاحب الخلق السيء فيتبع هواه، والهوى متقلب لا يثبت على حال، وهو لا يحول من شيءٍ إلى ما هو خير منه، بل يحول لمجرد الرغبة في التحول، وحسبي هذا والسلام.

***

وفقد سنكا سيطرته على نيرون، ولكنه لم يفقد سيطرته على العالم. وقد وضعه سانت جيروم في مصاف "كتاب الكنيسة" وكانت كتاباته مصدرًا استمد منه كثيرون من علماء العصور الوسطى. وكانت مآسيه المسرحية بنوعٍ خاص نماذج نسج على منوالها كتاب المسرحيات الأولى وكتاب المسرحيات في عصر الملكة إليزبث.

ووقع له في عام ٦٥م ما كان يخشاه طوال حياته، فقد طلب إليه نيرون أن ينتحر. ولما جاءه الأمر طلب أن يؤذن له بكتابة وصيته، فلما رفض هذا الطلب التفت إلى

أصدقائه وقال لهم إنه إذا حيل بينه وبين مكافأتهم على حسن صنيعهم، فإنه يترك لهم ذلك الشيء الوحيد الذي بقي له والذي يعده خير تراثٍ يخلفه لهم، وهو العبرة التي يستمدونها من حياته. ثم حاول في الوقت نفسه أن يخفف من أحزانهم، ويكفكف دموعهم، ويعيد إليهم صبرهم وقوتهم. ولم يكن أحد في البلاد كلها بمأمنٍ من بطش نيرون ووحشيته، وهل ينتظر من أمر بقتل أمه وأخيه أن يتردد في قتل أستاذه ومربيه؟

بلني الأصغر يسأل الإمبراطور تراجان

كيف يقضي على الخرافات المنحطة الشائنة

التي يتمسك بها المسيحيون الأولون ويعاقبهم عليها

يكشف هذا الخطاب عن قوة إيمان المسيحيين في أواخر القرن الأول الميلادي، وكيف كانت هذه القوة خطرًا يهدد كيان الإمبراطورية الرومانية.

وكان بلني[١] الأصغر –ابن عم بلني الأكبر ومتبناه– حاكمًا على بثينيا[٢] إحدى ولايات آسيا الصغرى في عام ١٠٤ ميلادية حين أرسل هذا الخطاب إلى إمبراطور من أكبر أباطرة الرومان يستشيره في الطريقة التي يعامل بها المسيحيين الأولين. وكان الرومان قبل سقوط بيت المقدس في عام ٧٥ ميلادية يعدون هؤلاء المسيحيين طائفةً من الطوائف اليهودية، فيسمحون لهم بإحياء شعائر دينهم، ولكنهم في أواخر القرن الأول الميلادي أخذوا يعدونهم خطرًا يتهدد دولتهم. وأراد معظم حكام الأقاليم أن يستأصلوا هذه "الخرافات المعدية"، ولكن بلني الأصغر، وقد أُعِدَّ إعدادًا قانونيًّا في روما، سار على حذر وبعث إلى الإمبراطور يستشيره في الأمر.

وفيما يلي خطاب بلني إلى الإمبراطور ويليه ملخص ما أجابه به.

– ٨ –

".... فإذا أصروا فاقتلهم..."

تعودت يا مولاي أن أرجع إليكم إذا ما حيرني أمر من الأمور. وهل ثمة من هو أقدر منكم على جلاء ريبي وإرشادي فيما يتخالجني من شكوك؟ وإذ كنت لم أشهد

(1)Pliny

(2)Bithinia

حتى الآن محاكمة المسيحيين فإني لا أعرف ما يتبع في أمرهم، وما يحل بهم من عقاب، وهل يختلف هذا باختلاف سنهم؟ أو هل يستوى في ذلك صغيرهم وكبيرهم؟ وهل تنجيهم التوبة من العقاب؟ أو هل يكون اعتناق المسيحية جرمًا لا تكفر عنه توبة؟ وهل يعد الجهر بالمسيحية في ذاته جريمة وإن لم يصحبه عمل من أعمال الإجرام الأخرى؟ أو هل ترى أن الجرائم المتصلة بهذا الدين هي وحدها التي يعاقب عليها مرتكبها؟ تلك كلها مسائل لم أقف على جلية أمرها.

أما الخطة التي اتبعتها حتى الآن فيمن عرض عليَّ أمرهم من هؤلاء المسيحيين فهي:

سألتهم هل هم مسيحيون؟ فإذا أجابوا بنعم أعدت السؤال عليهم مرةً أخرى وأنذرتهم في الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم؛ فإذا أصروا أمرت بقتلهم، وذلك لأني أعتقد أن التمرد والعناد خليقان بأشد العقاب، مهما يكن من أمر دينهم الجديد. وجيء إليَّ أيضًا بخلق افتتنوا بهذا الدين، ولكني وجدتهم من أبناء روما فأمرت أن ينقلوا إليها. وأخذت أخبار هؤلاء المتهمين تنتشر وتذيع في أنحاء البلاد لمجرد أن أمرهم كان موضع البحث والاستقصاء، وسرعان ما تكشف لنا كثير من شرهم وأذاهم. فقد علقت لوحة كتبت عليها أسماء بعضهم دون أن يوقعها كاتبها، وجيء بهم ووُجِّهت إليهم التهمة فمنهم من أنكر أنه مسيحى أو أنه كان مسيحيًّا في يومٍ من الأيام، ونطق بدعاء لقنته له يتضرع فيه إلى آلهتنا، وأقام شعائر ديننا، وسكب الخمر وحرق البخور أمام تمثالك (وقد أمرت به فأحضر مع تماثيل الآلهة لهذا الغرض)، ثم سب المسيح (ويقولون إنه ما من مسيحي حق يُستطاع إرغامه على هذا العمل) فإذا فعل ذلك رأيت أن أعفو عنه.

ومنهم طائفة أخرى ترامت إليَّ أخبارها، وأقر أفرادها أول الأمر أنهم مسيحيون، ثم أنكروا ذلك فيما بعد، وقالوا إنهم كانوا من أتباع هذا الدين ثم ارتدوا عنه، (بعضهم من ثلاث سنين وبعضهم من قبل ذلك بكثير. ومنهم من ارتد عنه من خمس وعشرين سنة)، وكلهم يعبدون الآن تمثالك وتماثيل آلهتنا ويلعنون اسم المسيح.

وقد أكدوا جميعًا أن ذنبهم، أو خطأهم، الوحيد هو أنهم تلاقوا في يومٍ معين قبل مطلع الفجر، وأنشدوا للمسيح نشيدًا دينيًّا كما ينشدون للآلهة، وأقسموا ألا يقترفوا إثمًا، وألا يسرقوا أو يزنوا أو يكذبوا أو ينكروا وديعةً إذا طلب إليهم أن يردوها. وكانوا بعد ذلك يفترقون ثم يعودون إلى الاجتماع فيما بعد ليأكلو من طعام– طعام عادى بريء[1]؛ على أنهم أقلعوا عن هذه العادة الأخيرة بعد أن أذعت عليهم منشورًا حرمت عليهم بأمرك الاجتماعات السياسية. ثم رأيت من واجبي أن أستطلع طلع امرأتين منهم يسمونهما شماستين فلم أتبين فيهما إلا انحطاطًا وتحريفًا فاقا كل ما يتصوره العقل.

ولم أر بعد ذلك كله بدًّا من أن أؤجل النظر في هذه الشئون حتى أعرضها عليك، ذلك أن الأمر من الخطر بحيث يجب أن يُعرف رأيك فيه، لأن كثيرًا من الناس كلهم معرضون له رجالًا ونساءً، صغارًا وكبارًا، من مختلف الدرجات؛ وهؤلاء جميعًا سوف يُنظر في أمرهم. ولم تقتصر عدوى هذا التخريف على أهل المدن، بل انتشرت أيضًا في جميع القرى والدساكر، ولكني لم ينقطع أملي في قدرتي على صد هذا التيار، وعلاج هذا الداء. على أن بارقةً من الأمل قد بدت لي. ذلك أن الناس بعد أن هجروا المعابد فلا يكادون يطرقونها، قد أخذوا الآن يعودون إليها، وبعد أن انقطعوا عن ممارسة شعائر دينا زمنًا طويلًا، شرعوا الآن يحيونها من جديد؛ وكثر الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال عليها. وليس بعسيرٍ على مولاي أن يعرف من هذا عدد من يمكن هدايتهم وردهم عن هذا الضلال، إذا ظل باب التوبة مفتوحًا.

***

وقد وصف رد الإمبراطور الخطة التي سار عليها بلني بأنها "خطة حكيمة"، وقال إنه لا يحب أن يضع قاعدةً عامةً تُطبق على جميع الناس، ثم أضاف إلى ذلك: "يجب ألا تجدَّ في البحث عن هؤلاء الناس، ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم؛ فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيد ذلك بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه بعد أن

(١) لقد كان اليهود في العصور الوسطى يتهمون بأكل لحوم الأطفال.

يتوب مهما يكن رأيك الأول فيه".

ويعلق المؤرخون الأولون للمسيحية على رسالة بلني أهمية كبيرة، وقد أشار إليها كثير من هؤلاء المؤرخين منهم القديس جيروم وترتليان[١]، وقد قال ثانيهما في رسالةٍ وجهها إلى القضاة الذين كانوا يحاكمون المسيحيين الأولين: "إن يد التاريخ قد كتبت هي الرد على رسالة بلي الأصغر، وإن مقاومة تيار المسيحية الجارف كانت تزداد صعوبةً في كل يوم".

ومما جاء في هذه الرسالة قوله:

"والآن أيها القضاة المكرمون، حافظوا على هذا المظهر الزائف من عدالتكم، وأيقنوا أنكم ستكونون في أعين الناس أكثر عدلًا كما أمعنتم في تعذيب المسيحين. فاصلبوهم وعذبوهم واقضوا عليهم بالإعدام، واجعلوهم إن استطعتم ترابًا يوطأ بالأقدام، ولكن اعلموا أنكم كلما أمعنتم في ظلمهم كان ذلك الظل أوضح دليلٍ على طهرهم وبراءتهم، فهاتوا ما عندكم، واخترعوا من وسائل التعذيب كل ما يتصوره خيالكم، فلن يفيدكم ذلك إلا أن تلفتوا أنظار العالم إلى ديننا، وتجذبوا قلوبهم إليه؛ وبقدر ما تسرعون في حصد أرواحنا نسرع نحن في النهوض، وليس الدم المسيحي الذي تريقونه إلا بذورًا له تزرعونها بأيديكم، يخرج نباتها عما قليلٍ من الأرض، يحمل أطيب الثمر".

---

(١) Tertuallian ١٥٥ – ٢٢٢م.

بلني الأصغر يصف موت عمه

في ثورة بركان ويزوف

[رسالة إلى تَستِس]

كان بلني الأصغر كما كان شيشرون محاميًّا وأديبًا وسريًّا من سراة الريف. وقد كتب كثيرًا من رسائله، أو قل معظم رسائله، وهو يقصد أن تنشر؛ ولعل الكثير منها لم يرسل إلى من كتب إليهم، ولسنا نخطئ إذا قلنا إنها كلها قطع أدبية مختارة كتبت في موضوعاتٍ مختارة كذلك. ومن أجل هذا استطاع بلني أن يعرض فيها صورةً مفصلةً لحياة رجلٍ من سادة الرومان مثقف العقل واسع الثراء. ولم يكن بلني يظهر أمام القضاة في المحاكم إلا إذا كانت القضية التي يدافع عنها تجمع بين الأجر الكبير والفرصة السانحة لإظهار مواهبه الخطابية. ولهذا أتيح له أن يقضي معظم وقته متنقلًا بين بيوته الريفية المترفة. أما أصدقاؤه فكانوا نخبة قليلة مختارة. وكان إذا كتب في السياسة كتب بأسلوب الرجل الحذر الذي لا يرغب في أن يثير عليه عداء الناس أو حسدهم، ولا يريد أن ينغص عليه الناس أوقات فراغه. وما من شكٍّ في أن تستس المؤرخ الروماني الشهير، حين أخذ يجمع المادة التي يريدها لتاريخه، تحدث في الأمر مع صديقه بلني؛ وما من شكٍّ أيضًا في أن الحديث شمل ثورة بركان ويزوف الشهيرة التي حدثت في عام ٧٩م، والتي دمرت فيها مدن بمبياي، وهركيولانيم واستابية[١] ووصفها أبدع وصفٍ لورد إدورد لتن في روايته الشهيرة "آخر أيام بمبياي". وكان بلني نفسه ممن شهدوا بعض أدوار هذه الثورة، كما كان بلني الأكبر عمه الذي تبناه قد مات فيها مختنقًا برماد البركان. وكان من الطبيعي أن رغب تستس في أن يكتب له بلني الأصغر قصة هذا الثوران البركاني ليضمها إلى تاريخه، أو أن يرغب بلني الأصغر نفسه في أن يمده بهذه القصة.

---

(1)Stabiae, Herculaneum, Pompeii

وتعد هذه القطعة الفنية القصصية الممتازة من أجمل الرسائل القديمة، وقد رحب بها المؤرخ الكبير تستس الذي كان بلغني شديد الإعجاب بأسلوبه.

- ٩ -

"…. ووجه السفينة مباشرةً إلى نقطة الخطر…"

[سنة ١٠٠ ب.م]

إن طلبك إليَّ بأن أقص عليك قصة موت عمي، لكي تنقل إلى الخلق صورة صادقة منها لجدير بالشكر. ذلك أنه إذ أتيح لقصة موته أن ينشرها قلمك، فإني لا أشك في أنها ستخلد أبد الدهر. ومع أنه قد هلك مع من هلك من الناس، وما دمر من المدن، حين خُرب ذلك الإقليم العامر الجميل في تلك الكارثة المدلهمة، وإن هذا من شأنه أن يخلع على اسمه شيئًا من الخلود، ومع أنه هو نفسه قد ألف من الكتب ما لا يبلى الزمان جدته، فإني أعتقد أن ذكرك إياه في كتاباتك سيكون من أكبر الأسباب في تخليد اسمه. وما أسعد من حبتهم العناية الإلهية بالقدرة على أن يعملوا ما هو خليق بأن يسجل في صحف التاريخ، أو بأن يسجلوا هم أنفسهم ما هو جدير بالقراءة، ولكن أسعد من هؤلاء وأولئك من امتازوا بهاتين الموهبتين النادرتين؛ وسيكون عمي بين هذه الطائفة الأخيرة بفضل كتاباته وكتاباتك. ومن أجل هذا فإني يسرني أعظم السرور أن أقوم بالعمل الذي دعوتني إليه، بل أن أتقدم أنا من تلقاء نفسي للقيام به.

لقد كان وقتئذ في ميسنيوم، هو والأسطول المعقود لواؤه له. وحوالي الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس، لفتت أمي نظره إلى سحابةٍ لاحت في السماء ذات منظرٍ غريبٍ وحجمٍ غير مألوف. وكان قبل ذلك بقليلٍ قد جلس ساعةً من النهار في ضوء الشمس الساطع، ثم اغتسل بالماء البارد، وتغدى على مهل، ثم آوى إلى حجرة درسه. فلما نبهته أمي إلى ذلك المنظر، لبس نعليه من فوره، واعتلى ربوةً ليستطيع أن يرى في وضوحٍ هذا المنظر غير المألوف. ولم يكن في وسع

الإنسان أن يتبين في ذلك الوقت من أي الجبال خرجت هذه السحابة، ثم عرف بعدئذ أن مصدرها هو بركان ويزوف. ولست أستطيع أن أصورها لك بأحسن من تشبيهها بشجرة صنوبر، فقد علت أول الأمر علوًّا عظيمًا في صورة جذع شجرة، ثم انقسمت من أعلاها إلى عدة فروع، ولعل ذلك قد نشأ من عاصفةٍ هبت عليها لحظةً قصيرة ثم سكنت فتبددت في بعض جوانبها وقت أن أخذت تذوب، أو لعل ضغطها الذي كان يدفعها إلى أسفل هو سبب هذا المنظر الذي رآه. أما لونها فقد بدا ساعةً من الزمان أبيض، وساعةً أخرى أسود مبرقشًا كأنها تحمل معها ترابًا ورمادًا.

ورأى عمي، وهو العالم بحق، أن هذه الظاهرة جديرة بأن يرقبها عن كثب، فأمر من فوره بأن يعد له قاربًا خفيفًا، وسمح لي أن أرافقه إذا شئت، فأجبته أني أفضل العكوف على الدرس، لأعد موضوعًا إنشائيًّا كلفني هو بكتابته. وبينما هو خارج من البيت وصلته رسالة من ركتينا[1] زوجة باسس[2]، وكانت قد أوجست خيفةً من الخطر المحدق بها لأن بيتها يقوم أسفل بيتنا مباشرةً ولم يكن أمامها سبيل للنجاة إلا بطريق البحر، ولذلك ألحت عليه أن يذهب إليها لينقذها من هذا الخطر الشديد، فلم ير عمي بدًّا من أن يرجع عن قصده الأول. ولكن رباطة جأشه التي حفزته إلى الخروج لتحقيق غرضه العلمي لم تفارقه في مقصده الجديد، وأمر أن تقلع بعض السفن الكبيرة، وركب هو واحدةً منها لينقذ ركتينا ولينقذ كثيرين غيرها ممن كانوا معرضين للخطر مثلها، لأن هذا الشاطيء الجميل كان مزدحمًا بالبيوت الصغيرة ذات الحدائق – وأسرع عمي إلى المكان الذي كان الناس يفرون منه، ووجه السفينة مباشرةً إلى نقطة الخطر. فعل ذلك وهو مشبع الجنان مطمئن القلب اطمئنانًا استطاع به أن يملي ما شاهده من تغيرٍ متوالٍ في صورة هذا المنظر الرهيب.

وفي ذلك الوقت أخذت كثافة الرماد البركاني تزداد وحرارته تشتد كلما قرب عمي من البركان، ثم بدأ يتساقط على السفينة، ونزلت بعد الرماد حجارة الخفاف وصخور

---

(1)Rectina

(2)Bassus

جبلية صلبة مسودة ومحترقة ومحطمة بفعل النيران؛ ثم انحسر ماء البحر فجأةً، وظهر الشاطئ وقد حفت به الصخور المنهارة من الجبال، فأخذت على القوم ملاجئهم، وبدأ عمي ينظر هل يستمع لنصيحة ربان السفينة الذي كان يلح عليه في الرجوع، ثم أجابه بقوله: "إنما يفوز باللذة الجسور، سر بنا إلى بمبنيانس[١]". وكان بمبنيانس وقتئذ في استابية[٢]، وهي تبعد عنه بنصف عرض الخليج، لأن الشاطئ كما تعلم ينحني فجأةً في ذلك المكان فيدخل البحر فيه. وكان بمبنيانس قد نقل متاعه لأن استابية، وإن لم تكن في تلك الساعة معرضة للخطر العاجل، كانت على مرأى منه؛ وما من شكٍّ في أن الخطر سيحيق بها متى اتسع نطاقه؛ وكان هو يعتزم الفرار ساعة تسكن الريح المضادة له. على أن تلك الريح نفسها كانت صالحة لتسيير السفينة لتقل عمي إلى بمبنيانس. وما أن وصل إلى صديقه المرتاع حتى أخذ يعانقه، ويسليه، ويشجعه، ويسكن روعه، بما يظهره هو من عدم المبالاة بما يحيط به؛ ثم طلب أن يذهب إلى الحمام، ولما استحم جلس إلى مائدة الطعام، وتعشي وهو مبتهج منشرح الصدر، أو لعله كان يتظاهر بالبهجة والانشراح. (وليس هذا في رأيي بأقل دلالةً على الشجاعة من ذاك).

وكان بركان ويزوف في ذلك الوقت متأججًا في عدة مواضع، يقذف باللهب فينتشر في الجو، ثم يهبط نحو الأرض ويزيده ظلام الليل تلألؤًا وضياءً. وأراد عمي أن يسكِّن من روع صديقه، فأخذ يقول إن بعض الذين غادروا دورهم قد تركوا في فزعهم نيرانًا متقدة، وإن اللهب الذي يشاهدونه ليس إلا بيوتًا تشتعل فيها النار بعد أن هجرها أصحابها حين غادروا هذا الإقليم. ثم آوى عمي ليستريح. وما من شكٍّ في أن هذه الراحة كانت نومًا عميقًا، فقد كان هو كما تعلم بادنًا، ومن أجل هذا كان تنفسه غطيطًا يسمعه الواقفون على خدمته بباب حجرته. وكانت الردهة الموصلة إلى حجرته قد امتلأت وقتئذٍ بخليطٍ من حجر الخفاف والرماد، حتى أصبح خروجه من هذه الحجرة مستحيلًا إذا لم يغادرها من فوره. ولما أوقظ من نومه خرج لتوه من الحجرة، واجتمع

---

(1)Pomponianus

(2)Stabiae

بصديقه بمينيانس وغيره من أصحابه، ولم يكونوا قد ذاقوا للنوم طعمًا، وأخذوا يتبادلون الرأي هل يبقون في البيت أو يخرجون إلى العراء، لأن البيت كان في ذلك الوقت يترنح من أثر الصدمات الكثيرة العنيفة، حتى خُيِّل إليهم أن أساسه قد تقوض. أما في العراء فكانت تهددهم حجارة الخفاف المتساقطة، وإن كانت حجارة خفيفة مسامية؛ وكان هذا أخف الضررين. وقد وصل عمي إلى هذه النتيجة بالعقل والتفكير، ووصل إليها غيره بموازنة المخاوف بعضها ببعض. فلما وصلوا إلى هذه النتيجة خرجوا من البيت، وقد شدوا الوسائد بالفوط على رؤوسهم، وهو كل ما فعلوه ليتقوا به وابل الحجارة المتساقطة حولهم.

وكان ضوء النهار قد سطع في كل مكانٍ إلا مكانهم هم، فقد كان لا يزال في ظلامٍ حالكٍ أشد من ظلام الليل البهيم، تبدده في بعض الأحيان مشاعل وأضواء مختلفة، وظنوا أنه يحسن بهم أن يسيروا على الشاطئ نحو الماء ليروا هل يستطيعون أن ينزلوا إلى البحر وهم آمنون؟ ولكنهم وجدوا أن الأمواج لا تزال تعلو كالجبال، ولا تمكنهم من الإبحار. وهناك ألقى عمي بنفسه على شراعٍ قديم، وطلب الماء مرارًا، وشربه وبعد لحظاتٍ قليلة فرقت ألسنة اللهب تتقدمها رائحة الكبريت القوية سائر الجماعة وأرغمتهم على الفرار. أما عمي فكل ما فعلوه به أن أيقظوه، فرفع جسمه عن الأرض متكئًا على عبدين من عبيده، ولكنه سقط من فوره. وأكبر الظن أن بخارًا قويًّا كتم أنفاسه وسد قصبته الهوائية، وكانت ضيقة وضعيفة بطبيعتها ومصابة بالتهابٍ مزمن. ولما طلع النهار بعد ثلاثة أيام من اليوم الذي أبصر فيه العالم آخر مرةً وُجِدَ جسمه كاملًا سليمًا وعليه ملابسه كاملةً كأنه لا يزال حيًّا، ويظنه من يراه أنه نائم وليس بميت.

وفي هذه الأثناء كنت أنا ووالدتي لا تزال في ميسينيوم[1]، ولكن هذا لا صلة له بالتاريخ، وأنت لم تطلب إليَّ أكثر من أن أصف موت عمي، ولهذا فإني أختم رسالتي.

وكل الذي أرجوه أن تسمح لي بأن أضيف إليها أني كنت أمينًا فيما قصصته

(1)Miseneum

عليك، فلم أحدثك إلا بما رأيته بعيني، أو سمعته وقت حدوثه حين لا ينقل من الأخبار إلا الصحيح. ولك أن تختار من هذا الوصف ما يتفق وغرضك، لأن ثمة فرقًا كبيرًا بين الرسالة والتاريخ، وبين الكتابة إلى صديقٍ والكتابة إلى الجمهور.

والسلام

***

ومما هو جدير بالذكر أن بلني الأصغر حين دعاه عمه إلى أن يصاحبه في رحلته العلمية فضل أن يبقى في الدار ليدرس، ونجا بذلك من الهلاك. وقد كتب في رسالةٍ قبل هذه إلى تستس أنه كان مغرمًا بصيد الخنازير البرية، ثم أضاف إلى ذلك أنه إذا خرج الصيادون للصيد كان هو يجلس ليدوِّن ملاحظاته، وفي هذا وذاك ما يدل على أن بلني كان يفضل الحياة الهادئة المستقرة. لكنه في الخمسين من عمره اضطر أن يغادر بيوته إلى خارج بلاده، فقد عينه صديقه الإمبراطور تراجان[1] حاكمًا على ولاية بثينيا[2]، ولكن ما بذله من الجهد في عمله هذا أثر في صحته، فتوفي بعد أن خلف وراءه طائفةً كبيرةً جدًّا من الرسائل المتبادلة بينه وبين صديقه الإمبراطور، يحتوي بعضها وصفًا شائقًا للعلاقة التي نشأت بينه وبين المسيحيين الذين كان عددهم وقتئذٍ آخذًا في الازدياد.

---

(1)Trajan

(2)Bithynia

لوسيوس فيروس يحذر مركس أورل‍ىوس

من الخيانة فيرد عليه مكس رداً فلسفياً

أشرك مركس أورليوس معه في حكم الدولة الرومانية لوسيوس فيروس[(١)] أخاه من أبيه. وقد قيل عن مركس "إنه كان شيخًا كبيرًا يعود إلى بيته بعد أن يفرغ من عمله اليومي ليشغل نفسه في الكتابة التافهة". وأقام مركس في إيطاليا ليصرف فيها شئون الدولة، أما فيروس فقد ذهب إلى الشرق ليحارب الخارجين عليها. وكان لوسيوس ضعيف القلب خوار العزيمة، فترك أمر القتال إلى أفيديس كاسيس[(٢)] كبير قواده، يتعرض فيه للأخطار وينتصر على الأعداء. ولما عاد لوسيس هو وجنوده إلى إيطاليا في عام ١٦٦م استقبل فيها استقبال الفاتحين، فأثار ذلك غضب أفيديس كاسيس، وأخذ من ذلك الوقت يأتمر بالأخوين. وعرف لوسيوس بما كان يدبره، فبعث بالرسالة التالية إلى مركس يحذره.

- ١٠ -

"... إنه... يسميك عجوزاً تتفلسف...."

[١٦٦م]

يطمع أفيديس كاسيس في عرش الإمبراطورية، أو أن هذا على الأقل هو الذي يبدو لي من أمره؛ ولقد أظهر ذلك من قبل في أيام جدي وأيام أبيك، ولذلك أحب ألا تغفل عينك عنه، إنه مستاء من كل شيءٍ نعمله، وهو يتأهب للعمل، ويسخر من رسائلنا، ويسميك عجوزًا تتفلسف، ويسميني أنا متلافًا أحمق. ورجائي إليك أن تفكر

---

(1)Lucius Verus

(2)Avidius Cassius

فيما يجب أن نفعل. إني لا أكره الرجل نفسه، ولكني أعتقد أنك إذا استبقيت في معسكرك رجلًا يحب الجند أن يروه، ويستمعوا إليه، فحاذر أن تفسد عليك أمرك، وتضر بمصلحتك وملصحة أبنائك:

***

وإليك رد الفيلسوف الرواق الهادئ على هذه الرسالة التي لم يعبأ قط بها.

- ١١ -

"... أبنائي... فليهلكوا...."

[١٦٦م]

قرأت رسالتك فوجدت فيها من القلق ما لا يليق بالأباطرة، وما لا يتفق مع المألوف من عادات أيامنا الحاضرة. فإذا شاءت الأقدار أن يجلس كاسيس على عرش الإمبراطورية فليس في مقدورنا نحن أن نقتله ولو شئنا. ألست تذكر قول جدك الأكبر "ليس في وسع إنسانٍ أن يقتل خليفته". أما إذا لم يكن مقدرًا له أن يتربع على عرشها، فسيقع في شرك الأقدار من غير أن نرتكب نحن عملًا من أعمال القسوة والعنف. نحن لا نستطيع أن نتهمه بالخيانة، فإن أحدًا لم يوجه إليه هذه التهمة، والجند يحبونه كما تقر أنت نفسك، وحتي لو اتهمناه نحن بها فإن من شأن هذه التهمة أن تجعل الناس يظنون أن أصحابها، حتى لو ثبتت عليهم، كانوا ضحية ذوي السلطان.

فدعه إذن يسير في طريقه، ولا تنس أنه قائد محنك، شجاع، دقيق في عمله، لا تستطيع الدولة الاستغناء عنه. أما قولك إن من واجبي أن أقتله لأرعى بذلك مصلحة أولادي، فذلك ما لا يمكن أن أفعله. فإذا كان أفيديس أجدر بالحب من أبنائي، وإذا كان من مصلحة الدولة أن يعيش هو وألا يعيش هؤلاء الأبناء، فليهلكوا.

***

ومات لوسيوس فيروس في عام ١٦٩م تاركًا مركس أورليوس وحده على عرش الدولة الرومانية. وثار عليه أفيديس كاسيس كما توقع لوسيوس، ولكنه قُتل بيد جنده بعد بضعة شهور من ثورته. ومركس أورليوس هو صاحب كتاب "التأملات" الذي يصفه رينان[1] الفيلسوف الفرنسي الذائع الصيت بقوله إنه "أكثر الكتب كلها إنسانيةً".

ويدل تصرفه في ثورة أفيديس على نبله. فقد أراد مجلس الشيوخ أن يقتل أتباعه كلهم، وأن يقتل أيضا أبناؤه وزوجته، ولكن الإمبراطور عارض في هذا أشد المعارضة ودافع عنهم دفاعًا مجيدًا. ومن أقواله في هذا الدفاع "دعوهم حينما وجدوا وفي جميع البلدان يتحدثون بهذا المثل الذي تضربونه وأضربه أنا لهم في فهمنا للحق".

وكانت نتيجة هذا الدفاع أن نقض مجلس الشيوخ حكمه على أسرة أفيديس وأتباعه، وأثنى على فلسفة مركس أورليوس وصبره وعلمه ونبله وطيبة قلبه، وحياه بقوله: "إنك من الآلهة ولذلك فإنك تهزم أعداءك وتظفر بشانئيك".

(1)Renan

أورلين إمبراطور الرومان يأمر زنوبيا ملكة تدمر بأن تستسلم له وهي تتحداه

بدأ لوسيس دميتيس أورليانس[١]، "محي الإمبراطورية الرومانية" في القرن الثالث بعد الميلاد، حياته الحربية جنديًّا عاديًّا. فلما بلغ أعلى المراتب في الجيش اختير امبراطورًا في عام ٢٧٠ ميلادية. وامتدت فتوحه شرقًا وغربًا حتى التقى بزنوبيا ملكة تدمر، وكانت تسيطر على بلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر. وقد كتب إليها خطابه الآتي يطلب إليها الخضوع له.

- ١٢ -

"إني آمرك أن تسلمي المدينة..."

لست أطلب إليك الآن إلا ما كان يجب عليك أن تفعليه من نفسك قبل هذا الوقت بزمنٍ طويل. إني آمرك أن تسلمى المدينة، ولك عليَّ في نظير ذلك أن أبقي على حياتك وحياة من معك. لكنني لا أستطيع أن أعدك بحريتك. فعليك أنت يا زنوبيا وأبنائك أن تقنعوا بالرحيل إلى المكان الذي أرتضيه لكم ويرتضيه مجلس روما الموقر. أما ما لديك من مالٍ وحلي وذهب وفضة فستذهب كلها إلى الخزانة الرومانية، وسيظل رعاياك وحدهم أحرار، وسيضمن لهم ما يتمتعون به الآن من حقوقٍ وامتيازات.

***

ولكن الملكة لم ترهب سطوته، وأرسلت إليه تتحداه. وكانت زنوبيا قد أعانت زوجها قبل وفاته في حربه المظفرة مع الفرس، ثم ورثت ملكه الواسع؛ وكانت لها السيادة على جميع بلاد الشرق الأدنى، وكانت لها دراية بكثيرٍ من العلوم والفنون، تلقتهما عن لنجينس[٢]

(1)Lncius Do mitius Aurilianus

(2)Longinus

العظيم، وكانت تجيد اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية والسريانية.

وإلى القارئ ما أجابت به أورلين:

- ١٣ -

"... ما من شكٍّ في أنك ستبدل يومئذٍ لهجتك"

لم يجرؤ أحد من قبلك على أن يأمرني بما أمرتني به. إن الشجاعة وحدها يا أورلين هي التي تبلغك مأربك في ميدان القتال. أتريد أن أسلم لك تدمر عاصمة ملكي؟ كأنك لا تعرف أن ملكةً من أسلافي هي كليوبطرة قد آثرت أن تموت ملكة، على أن تعيش أسيرة، مهما يبلغ شأنها، في يد سلفك أغسطس.

إننا سنلقى العون من الفرس، وسينجدنا العرب، وقد أعلن الأرمن أنهم في صفنا؛ فإذا كانت جيوشك قد بددت شملها في الشام طائفة من قطاع الطريق، ففكر فيما سيصيبك يوم تصلنا هذه القوى الهائلة.

وما من شكٍّ في أنك ستبدل يومئذٍ لهجتك، فلا تشمخ عليَّ بأنفك وتأمرني أن أسلم إليك تراث الآباء والأجداد، كأنك وحدك المسيطر على هذا الكون.

***

وهزمت جيوش أورلين زنوبيا في واقعة أنطاكية، وتقدمت إلى تدمر الجميلة القديمة وحاصرتها ودمرتها، وقبض على زنوبيا وهي فارة من وجه أعدائها مع أطفالها، ولكنها أنقذت حياتها بأن ألقت تهمة إشعال نار الحرب على لنجينس معلمها وأمين سرها. فأمر به الإمبراطور أن يُقتل، وأخذت زنوبيا أسيرة لتزين موكب أورلين وهو عائد منتصرًا إلى روما، وسمح لها الإمبراطور أن تعيش فيها معززة، وتزوجت بناتها بأشراف الرومان، وعُيِّن ابنها حاكمًا على ولايةٍ صغيرةٍ في آسيا الصغرى.

أما أورلين فقد اغتيل بالقرب من بوزنطية عام ٢٧٥م في حربٍ بين الفرس والرومان.

سان جيروم يشهد بعينه اضمحلال روما وسقوطها

في الرسالة التالية وصف شاهد عيان لما حل بروما من خرابٍ ودمار، وما أصاب أكبر دولةٍ في العالم من انحلال. وقد ولد سان جيروم أويوزيبيس سفرونيس هيرنمس[١] في عام ٣٤٠م ومات في عام ٤٢٠م.

أما الرسالة التي أثبتناها فيما بعد فكانت رسالة خاصة بعث بها إلى صديق. وتقوم مكانة جيروم في التاريخ على ما جاء في هذه الرسالة من وصفٍ ممتعٍ لحادثة من أعظم الحوادث في تاريخ العالم كله، وعلى ترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التي قيل عنها إنها "من أعظم ما خلَّف للكنيسة الغربية من تراثٍ ذهني مجيد". ويقول إرزمس[٢] المصلح الدينى الشهير إن سان جيروم شيشرون[٣] المسيحية. وقد ظل كتاب العهد القديم الذي كتب بالعبرية حتى القرن التاسع عشر سرًّا مخفيًّا عن جميع الناس عدا العلماء وبعض القساوسة. وكانت اللاتينية وقتئذ لغة جمهور الشعب فنقل جيروم التوراة إلى هذه اللغة وجعلها بذلك في متناول عامة الناس.

وكان آباء جيروم من سكان دلماشيا[٤] المسيحيين، فأرسلوا ولدهم إلى روما ليتلقى العلم فيها، ولكنه تأثر بروائع الأدب الروماني الوثنية. غير أنه عاد بعد ذلك إلى دين آبائه وندم أشد الندم على ما قضى من حياته في الوثنية. ولما مات صديقه إنوسنتيس[٥] أثناء رحلةٍ له في بلاد الشرق، وشفي هو من مرضه الخطر الذي أصابه وقتئذ، أنذر أن يكرس "حياته كلها لتعليم الناس وللعمل بقلمه في خدمة الله". وقد وفى بهذا النذر بترجمته اللاتينية للتوراة، وهي من

(1)Saiut Gerome or Eusebius Sophronius Hieronymus

(2)Erasmus

(3)Cicero

(4)Dalmatia

(5)Innocentius

الأعمال التي غيرت مجرى التاريخ. وانقض ألريك[1] على روما من الشمال ونهبها في عام ٤١٠ ميلادية. وكان يوزيبيس سفرونيس هيرنمس وقتئذ في سن السبعين، وما من شكٍّ في أنه خُيِّل إليه أن العالم أوشك على نهايته. وهل أدل على ذلك من تخريب المدينة الخالدة؟ وهذه الحادثة هي التي وصفها أعظم الآباء اللاتين في رسالته التالية:

- ١٤ -

"... لكن ذئاب الشمال انطلقت من عقالها"

لقد نزلت بنا في هذه الأيام مصائب تقشعر من هولها الأبدان. فلقد ظلت دماء الرومان عشرين عامًا كاملةً تراق كل يومٍ في طول البلاد وعرضها من القسطنطينية إلى جبال الألب، واجتاح البلاد القوط والألانبون والهون والوندال[٢].

وكم من سيدةٍ شريفةٍ طاهرةٍ عبث بها هؤلاء الوحوش الذين خربوا الكنائس، وجعلوا بيوت الله مربطًا للخيول، وانتهكوا مقابر القديسين ونبشوا عظامهم.

وما من شكٍّ في أن الدولة الرومانية قد آذنت بالزوال، ولكننا نحن ما زلنا نرفع رؤوسنا عاليةً غير منكسة. ولقد بدا في وقتٍ من الأوقات أن الشرق بمنجاةٍ من شرهم، ولكن ذئاب الشمال انطلقت من عقالها في السنة الماضية، وأقبلت من حصونها النائية، واجتاحت أقاليم واسعة، فحاصرت أنطاكية وغيرها من المدائن التي كانت في يومٍ من الأيام حواضر دول عظيمة.

ولو أنني أوتيت مائة فم ومائة لسان، وصوتًا كصوت الحديد، لما أحط بكل جرائمهم، أو ذكرت ما يستحقون من عقاب.

وهل يصدق الناس فيما بعد أن روما تقاتل الآن داخل حدود بلادها، وأنها لا تحارب لتظفر بالمجد والسلطان، بل تكافح في سبيل الحياة.. "إذا حل الضعف بروما

---

(1)Alaric

(٢) Vandal, Huns, Alans, Goths, وكلهم من القبائل المتبربرة التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية وقتئذ.

فأين تكون القوة؟" كما يقول الشاعر لوكان[١].

وقد ذاعت الآن شائعة رهيبة: إنهم يقولون إن الأعداء يحاصرون روما، وإن أبناءها قد اضطروا أن يشتروا حياتهم بالذهب. إن الألفاظ تقف في حنجرتي، والعبرات تخنقني. كيف لا وهذه المدينة التي سادت العالم قد أصبحت الآن أسيرة في يد الأعداء، يجتاحها القحط، ويموت أهلها من الجوع.

لقد حلَّ بالعالم الدمار، وأخذ كل شيءٍ يزول إلا خطايانا فهي دائمة الانتشار على الدوام، واندلعت ألسنة اللهب في المدينة العظيمة، والتهمتها النيران، وفرَّ أهلها إلى كل مكان.

ولعل أحدًا لا يصدق هذه الأقوال. وهل يصدق الناس أن روما التي عمرتها على مدى القرون فتوحها العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها قد هوت إلى الحضيض، وأن باعثة الحياة في الأمم جميعها قد أصبحت قبرًا لها؟ وهل في الناس من يتصور أن في المدائن التي استقامت إلى أمنها ومنعتها وثروتها الطائلة قد ذلت حتى شرد أبناؤها، وأخذوا يطوفون البلاد يسألون الناس القوت؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يساعدهم؟ إن كل ما في وسعنا هو أن نظهر العطف عليهم، ونمزج دموعنا بدموعهم.

***

وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه الرسالة إلى أصدقاء جيروم كانت جحافل أخرى من البرابرة تستعد لتدمير ما بقي من عاصمة الدولة الرومانية. وكان هذا الهجوم الثاني أشد قسوةً وهولًا من الهجوم الأول، فقد دك ما شيده القياصرة العظام. ولم تستعد المدينة شيئًا من عظمتها القديمة إلا بعد سنين طوال من ذلك الوقت، في عهد البابوات العظام. وقد كتب جيروم نفسه في رسالةٍ أخرى "أعيدوا هذه القصة على مسامع الخلف حتى يعلموا أن الفضيلة لا يمكن أن تدول دولتها حتى بين قرقعة السيوف وفي مجاهل الفيافي والقفار والحيوانات الكاسرة، وأن من يُسلم أمره إلى الله قد يُقتَل، ولكنه لا يُهزَم".

---

(1)Lucan

سيدونيس[1] يرسم صورة منافق روماني

في رسالة إلى ولده أبولينارس[2]

لم يكن من غير المألوف في القرن الخامس الميلادي أن يعتزل السياسي الفاشل عمله السياسي ويأوي إلى الدير، أو يقضي وقته في ضربٍ من ضروب النشاط الديني. وهذا ما كان من أمر أبولينارس سيدونيس. فلم يكن بين رجال السياسة في وقته من هو أكثر منه نشاطًا؛ وكان متصفًا بكل الصفات التي تؤهله وقتئذ للحياة السياسية الرفيعة؛ فقد كان من سلالة أسرةٍ نبيلة، وتعلم تعلمًا راقيًا، وكان ذا شخصيةٍ قويةٍ جذابة؛ وكان ذا صلةٍ بأكابر القوم في ذلك الوقت؛ وقد وفق في اختيار زوجته أعظم توفيق.

وكان العصر الذي يعيش فيه سيدونيس عصر قلق واضطراب، فقد كانت ولايات الدولة الرومانية، ومنها موطنه غالة (فرنسا)، معرضة لهجات البرابرة، وقد ارتقى أحدهم ثيودريك عرش تلك البلاد، بعد أن قتل أخاه. وكان سيدونيس كاتبًا وخطيبًا يطمع في منصب القنصلية، وهو من أرفع المناصب في الدولة الرومانية. وقد كتب رسالته التالية في عام ٤٦٩م حين بلغ ذروة مجده وقبل أن يعتزل الحياة السياسية.

– ١٥ –

"ليس قلبه بأقل قذراة من لسانه"

[سنة ٤٦٩م]

إني أحب فيك طهارة قلبك التي أبعدتك عن مخالطة السفهاء؛ وتلك خلة أسر بها وأقدرها، ويزيد من سروري بها وتقديري إياها أن من تبتعد عنهم هم أولئك الذين برعوا في التقاط ما يُشاع عن الناس من أخبار السوء وإذاعتها، فلا يسلم من لسانهم شيء مهما بلغ من الرفعة والتقديس. أولئك قوم أنذال يظنون أنهم يمزحون حين يصدعون

(1)Sidonius

(2)Apollinares

الناس ببذيء ألفاظهم، يقذفون بها في المجالس بلا حياء. واستمع الآن إليّ حين أبلغك أن حامل لواء هؤلاء الأوغاد هو ثرثار هذا البلد ولسانه الناطق. تصور لنفسك صورة إنسان هو أكثر الناس كلهم تخرصًا واختلاقًا، وأكثرهم افتراءً على الناس، واتهامًا لهم بالباطل، وأبرعهم في النميمة، إذا تحدث فلا يقف حديثه عند حد، ولا يصل به إلى غايته، ما سجن يعوزه جمال المرح، صخاب وقح، وجبان رعديد، فضولي يتقصى أحوال الناس في غير فراسة، يتصنع الأدب والرقة في سماجة، فينكشف عن فظٍّ جلف، همه حاضره، لا ينفك عن ذم الماضي والاستهزاء بالمستقبل. إذا كانت له حاجة بزَّ المتسولين في الإلحاف واللجاجة، فإن لم ينلها كان أكثر الناس تحقيرًا للمسئول وذمًّا له؛ وإن أعطيته غضب وسخط، ولم يترك وسيلةً يستزيد بها من العطاء إلا لجأ إليها. إذا طُلب إليه أن يرد دينًا أنَّ وناح وندب حظه، وإذا رده لم ينقطع له أنين ولا نواح، وإذا استدانه أحد كذب وادعي الفقر والإملاق، وإذا أقرض تباهى بعمله وأشاع السر بين الناس، وإذا تأخر المدين عن الوفاء بدينه استطال في عرضه وطاخه بكل قبيح، فإذا وفي به أنكر الوفاء. أبغض شيءٍ إليه الصيام، فهو شره نهم، لا يمتدح من يحيا حياةً هنيئةً راضيةً إلا إذا استضافه في منزله. وهو البخل المجسم، خير ما تهضمه معدته من الطعام طعام غيره، لا يأكل في منزله إلا إذا استطاع أن يختلس اللحم ويزدرده وسط عاصفةٍ من اللطمات. على أننا لا نستطيع أن ننكر عليه فضيلة القناعة، فهو يمسك عن الأكل إذا لم يستضفه مضيف. وهو في كثيرٍ من الأحيان يتملكه طيش الطفيليين، فيرفض دعوة الداعين. فإذا رأى الناس يبتعدون عنه وينفرون منه حاك شباكه حولهم، وسعى إلى موائدهم، فإذا دعوه لم يسلموا من لسانه، وإذا أهملوه لم يسلموا من تيهه وصلفه. لا تصيبه لطمة ضالة غير متوقعة، وإذا جاءه الطعام متأخرًا انقض عليه انقضاض الوحش، وإذا شبع قبل الأوان لم ينقطع له عويل، وإذا لم يُرو ظمؤه أرغى وأزبد، وإذا شرب ثمل.

إذا مازح سفه، وإذا مازحه غيره غضب، جماع صفاته أنه كأقذار المجاري يزيد قذارةً كلما حركته. حياته لا تبعث السرور إلا في نفوس القلة، ولا تبعث الحب في نفس أحد،

وتبعث الازدراء والاستهزاء في نفوس الناس جميعًا. وهو من أولئك الذين تتقطع على جلودهم السياط وتتكسر على أجسامهم العصى، ومن لا تفوق لهفتهم على الخمر إلا لهفتهم على الاغتياب. زفيره تعافه النفس، وأنفاسه تفوح منها رائحة الخمر، وألفاظه تنفث السم، لا يدري الإنسان أي شيءٍ يكرهه من أجله، أيكرهه لنتنه أم لسكره – أم لنذالته؟ ولرب قائل يقول: "إن الوجه المليح قد يستر الطبع الذميم، وقد يكون هذا الإنسان من جمال منظره ما يعوضه عن سخف عقله، قد يكون الرجل جميل المنظر أو حسن الذوق فيكون لذلك أحسن الأثر في نفس من يلقونه".

لكن الحقيقة أن جسمه أقذر وأقبح من جيفةٍ مشوهة، تدحرجت وهي نصف محترقة من كومة الوقود التي يحرق عليها الموتى حين هبطت؛ يستنكف عبد دافن الموتى أن يردها إلى مكانها لقبح منظرها. قائم[1] العينين لا تنقطعان عن الهملان، أقنف الأذنين يحيط بصحينيهما جلد متقرح، يكسوه صملاخ متحجر، وتسد الصحينين أورام لاينقطع لها نحيح[2]. أفطس الأنف، ضخم المنخرين، يدرك بأنفه المشموم لساعته، ولكنه كالكهف يرتاع منه مبصره. يطل عليك بوجهٍ أحم الشفتين[3] تظنه لسعته فم حيوان لا إنسان، له أسنان ذهرة[4]، ولثة يسيل منها الصديد، تنبعث من أسنانه القوادح[5] الجوفاء التي أنقدتها الأرضة روائع نتنة، يزيدها خبثًا تجشؤ معدته من وليمة الأمس، وانتفاخها من إفراطه في الطعام. وهو يزهو بجبهة بشعة مغضنة، تمدد عليها حاجباه، ولحية لم تبيض، وإن كان قد بلغ أرذل العمر، لأن مرضًا خبيثًا أصابه يحفظ عليها سوادها. وله وجه أصفر لا تفارقه الكآبة. وإني أشفق عليك من وصف بقية جسمه السمين المتهدل المصاب بالنقرس، وجمجمته المجمدة التي يملوها من القروح

(١) العين القائمة التي ذهب بصرها وحدقتها سليمة.

(٢) تحت الفرحة سال منها الدم والقيح.

(٣) أسودهما.

(٤) سود.

(٥) المتآكلة.

بقدر ما ينبت عليها من الشعر، وقفاه الذي يخيل إليك لشدة قصره أن رأسه إذا ألقاه إلى خلفه غاص بين منكبيه.

وأشفق عليك من وصف وجه المكفهر، وذراعيه المسترخيتين، ويديه المتصلبتين من النقرس تغطيهما ضمادتان زيتيتان كأنهما قفازان. أشفق عليك من هذا كله، وأشفق عليك أيضًا من وصف إبطيه اللذين تنبعث منهما رائحة خبيثة كرائحة المعز تفسد الهواء على كل من يقترب منه، وتنشر الوباء من حوله... أما ثدياه اللذان ذهب ما تحتهما من شحم، واللذان تعاف العين بروزهما في الرجال، فتراها متهدلين كثديي المرأة. وله بطن ذو طياتٍ معلقةٍ لا تقل قذارةً عما تغطيه من عورته... وما حاجتي إلى وصف ظهره وعموده الفقري. نعم إن أضلاعه تخرج من ظهره، وتتقوس فتغطي صدره، ولكن عظامها كلها غارقةً في طيات بطنه. أما إليتاه فقد بلغتا من الضخامة مبلغًا يصغر إلى جانبه بطنه على ضخامته. ولست أذكر شيئًا عن فخذيه الضامرتين المنحنيتين، وركبتيه المتورمتين وساقيه العصويتين، وكمبيه الضعيفين وقدميه الكرشاوين الكزماوين[1].

وهو كما صورته لك مشوه الخلق بشع المنظر، يستنزف عجيجه وضجيجه نصف ما في جسمه من حياةٍ ودم. ليس في وسعه أن يجلس ساعةً أو يسير خطوتين، مهما أعانوه على الجلوس أو المشي. أما لسانه فأخبث من سائر جوارحه، لا ينفك يستخدمه في أحط الشهوات، وهو أشد ما يكون خطرًا على من يحسن إليه إذا أخفى عنه شيئًا، ينظم به عقود المدح للمحظوظين ويغدر به المنكوبين.

وإذا لاحت له فرصة للتجسس على صديقٍ حطم من فوره كل الحواجز وفض كل أختام الرسائل، يقوض بأساليب غدره الخفية ما عجزت عنه الكباش والمجانيق. أما الخطة التي يتبعها هذا الوغد في صداقته فهي أن يلازم الصديق في السراء ويفر منه في الضراء.

وكلما ابتعدت عن معرفة أمثال هذا الإنسان، سرني ذلك منك، وبخاصةً إذا كان

(١) الغليظين القصيرة الأصابع.

ممن لا يستحون فيتحدثون كسفلة الممثلين، ويطلقون لألسنتهم العنان. ذلك أن المتهتك الذي يباهي بتهتكه واستهتاره، والذي يطلق لسانه بالأقذار التي تأباها كل الآداب والشرائع، ليس قلبه بأقل قذارةً من لسانه. فقد توجد الكبد الخبيثة مع اللسان الجاد، أما اللسان القذر والحياة الفاضلة فقلما يجتمعان والسلام.

***

وقبل انحلال الدولة الرومانية الغربية بنحو ستة أعوام أو سبعة خرج سيدونيس من روما ولم يعد إليها أبدًا. وما من شكٍّ في أنه رأى الأخطار تحيق بها فتخلى عن مكانه فيها على كرهٍ منه، وعاش في أول الأمر كما كان يعيش من قبل في مزارعه الواسعة. ثم تبدلت حالته فأصبح أسقفًا للمدينة الغالية القديمة المعروفة في هذه الأيام باسم كليرمنت[١]، وهي التي شهدت بعد ذلك البابا إربان الثاني[٢] يدعو للحرب الصليبية الأولى. وكان في وسع سيدونيس أن يعيش في هذه البلدة هادئا لولا أنه اصطدم بعد ذلك بالأمير القوطي الذي خلف ثيودريك. فانتزع سيدونيس من أبرشينه وزج به في السجن فترةً من الزمان؛ وكان سلوك سيدونيس في محنته مشرفًا له يكاد يرفعه إلى مقام الأبطال أو القديسين. ثم سُمح له أخيرًا بالعودة إلى منصبه الديني.

---

(1)Cleremont

(2)Urban II

هلواز وأبلار يخلدان قصة حبهما في رسائلهما

كان بيتر أبلار[١] من أبناء إحدى الأسر الشريفة الموسرة في فرنسا في العصور الوسطى. ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره في عام ١١١٦م كان قد حصَّل من العلم ما لم يحصِّله غيره من أبناء الأشراف، فكان أستاذًا للمنطق في جامعة باريس، وكان من كبار رجال الدين في كنيسة نتردام[٢]، وأقبل عليه الطلاب من جميع أنحاء أوروبا ليستمعوا إلى محاضراته الفلسفية العميقة.

وجاءت هلواز وهي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها من إحدى مدارس الأديرة إلى بيت عمها فلبرت[٣] لتستمع إلى محاضراته الشيقة في باريس، وكانت كلها وقتئذ تنظم عقود المدح لأبلار. وأعجب الفيلسوف بجمالها وذكائها فعمل على أن يكون مدرس الفلسفة لها؛ وكان لابد أن تنشأ بين الاثنين صلات الحب وتقوى. ويصف أبلار في خطابٍ لصديقٍ له يدعى فلنتس[٤] –ويعرف هذا الخطاب باسم تاريخ المصائب– ما يشعر به نحو هلواز من وجدٍ وهيامٍ بقوله:

"لقد حاولت عبثًا أن أتجنبه (الحب) وأنا فيلسوف ولكن هذا الحب العارم استبد بعقلي فغلب على حكمتي، وكانت مهامه أقوى من منطقي واستدلالي، فشد وثاقي بقيوده الحلوة وسار بي حيث شاء... أما هي فقد أوتيت من الذكاء والجمال ما يلين أقسى القلوب، ولم يكن علمها أقل من ذكائها وفطنتها...، رأيتها فأحببتها وعولت على أن أجعلها تحبني...، ولم أفكر في شيءٍ سواها، وما من شيءٍ رأيته إلا رسم صورتها في مخيلتي...، وكنت منذ البداية عظيم الأمل في كسب عطفها ورضاها، فقد ذاعت شهرتي في طول البلاد وعرضها – وما من سيدةٍ فاضلةٍ تضن بحبها على رجلٍ برّ علماء

(1)Heloise, Peter Abelard
(2)Notre-Dame
(3)Fulbert
(4)Philintus

جيله، وكنت في مقتبل الشباب... جميل المنظر أنيق الملبس لا كغيري من العلماء. والملبس الحسن كما تعلم عظيم الأثر في قلوب النساء...، ورأيت هلواز وتحدثت إليها... ثم ضمنا بيت واحد وحب واحد ورغبة واحدة. وكم من لحظةٍ حلوةٍ قضيناها معًا".

ولكن هذا الحب كما يقول أبلار بعدئذ لم يبق سرًّا مكتومًا. فقد تحول اهتمامه من درسه إلى حبه، ولم يكن يستطيع أن يركز عقله إلا في الشعر ينظمه في مدح محبوبته، وما لبثت أغانيه أن شاعت بين المحبين، وعرف الناس كلهم، عدا فلبرت، ما كان بين أبلار وهلواز. على أن جهل فلبرت نفسه لم يدم طويلًا، فقد عرف ما نشأ بين هلواز وأبلار من صلات، فغضب لذلك وثار، وأخرج أبلار من بيته.

وكان أبلار كما يقول هو عن نفسه لا يستطيع أن يعيش من غير أن يرى هلواز، فظلا يتقابلان خفيةً ثم فرَّ بها إلى برتني[1]، وأخذ يلح عليها أن تتزوج به، ولكنها رفضت على الدوام أن تخطو خطوةً تقضي على منصبه في الكنيسة، واستعانت على ذلك بكل ما كان لها من مواهب؛ وكان مما قالته له: "أليس الحب أقوى على ربط قلبينا من الزواج؟" ولكنه استطاع في آخر الأمر أن يتغلب عليها، فتزوجا وعادا بعد الزواج معًا إلى باريس. وسمع فلبرت خبر عودتهما فانتقم من أبلار شر انتقام، إذ أغرى به جماعة من السفلة الأشرار هجموا عليه في بيته ليلًا، وبتروا بعض أعضائه. وفرَّ أبلار بعد ذلك من باريس وأشار على هلواز بأن تدخل الدير فدخلته، ثم صارت فيما بعد كبيرة راهباته. أما هو فقد ظل أعداؤه يطاردونه في الأديرة التي ساقته الأقدار إليها، وثارت نفسه لما شاهده فيها من إثم الرهبان وجورهم، فأخذ يتنقل من ديرٍ إلى ديرٍ يحاول عبثًا أن يجد في واحدٍ منها ما ينشده من راحةٍ وأمان؛ ولكنه مع ذلك لم يتغلب على تلك العاطفة التي سببت لي كل هذا الشقاء، فأنا في ملجأي أبكي وأنتحب، ويذوب قلبي وجدًا، وأردد اسم هلواز، محبوبتي ويقع صوتي على أذني بردًا وسلامًا".

ولم يكن له في هذا العذاب من سلوى إلا الرسائل التي كانا يتبادلانها.

---

(1)Brittany

والخطابان اللذان ترجمناهما هنا من خير ما كتبا، فهما يصوران مأساةً من أعظم المآسي في جميع عصور التاريخ كانت معينًا لا ينضب استمد منه الشعراء والكتاب كثيرًا من المآسي والقصائد.

- ١٦ -

"لقد لبست المسوح ولكن انظر أي اضطرابٍ ألقيت بي فيه"

[من هلواز إلى أبلار]

هذا خطاب من هلواز خادمة أبلار وابنته وزوجته وأخته، إلى سيدها وأبيها وزوجها وأخيها، ينطوي على خضوعها وإجلالها وحبها.

لقد وقع في يدي صدفةً من بضعة أيامٍ خطاب تعزية إلى صديق. ورأيت خطك فعرفته، وحملني حبي لليد التي سطرته على أن أفضه، وبررت لنفسي هذا العمل الذي أقدمت عليه بأن زعمت لنفسي أن من حقي أن أتمتع قبل الناس جميعًا بكل ما يأتي منك. ولست أتردد مطلقًا في أن أخرق كل قاعدةٍ من قواعد الأدب وحسن التربية، إذا كان فيها ما يعينني على معرفة أخبار أبلار. على أنني قد لاقيت الأمرين من جراء تشوقي هذا. فما كان أشد عذابي ودهشتي حين وجدت أن ما يحويه الخطاب إن هو إلا قصة طويلة محزنة تصف عذابي وعذابك. وقرأت فيه اسمي مائة مرة، ولم أقرأه مرةً واحدة إلا تملكني الخوف والجزع، فقد كان لا يذكر إلا ومعه فاجعة مروعة. ولم يكن اسمك فيه ليقل شقاء عن اسمي.

وخفق قلبي لهذه الذكريات المحزنة العزيزة، فاستكثرت عليك أن تواسي صديقًا في متاعب قليلة ألمت به بهذه الطريقة الغريبة، فتصور له من تصاريف الأيام ما أمر عيشنا وقبض رجاءنا، وما أكثر الذكريات التي مرت بخاطري وقتئذ!

لقد عادت إلى ذاكرتي كل أيامنا الماضية، ورأيت نفسي من جديدٍ مثقلةً بأعباء الحزن التي غشيتني في أول عهدنا بالشقاء. ولقد كان طول الزمن خليقًا بأن يضمد

جراحي، ولكن ما كدت أرى وصفها الذي خططته بيمينك حتى نكأت الجروح وتفتحت وسالت منها الدماء.

ولقد أغرقت دموعي التي لم أستطع حبسها نصف رسالتك، وليتها محت الرسالة كلها، وليتني أعدتها إليك على هذه الصورة ولو فعلت لتمتعت بها طول الوقت الذي كنت أغرقها فيه بدمعي، ولكنهم سرعان ما انتزعوها مني.

ولست أخفي عنك أنني كنت قبل أن أقرأ رسالتك أنعم بالًا مني بعد قراءتها. وما من شكٍّ في أن العينين هما مصدر شقاء المحبين وعذابهم، إذ ما كدت أقرأ الرسالة حتى شعرت بأن كل شقائي قد تجدد، وأخذت ألوم نفسي على أني طويت آلامي في قلبي هذا الزمن الطويل، على حين أن نار الحقد لا تزال تضطرم في قلوب أعدائنا، كأن الزمان الذي يذهب بالأحقاد لا يزيد هذه النار إلا ضرامًا. وإذ كان لابد أن تظل فضائلك مثار الحقد والاضطهاد حتى تتوارى في قبرك، ولعلهم لن يرضيهم بعد ذلك أن يتركوا جسمك آمنًا مستريحًا من شرهم، فلتدعني أفكر على الدوام فيما حلَّ بك من بلاء، وأنشره في مشارق الأرض ومغاربها لأجلل بالعار زمانًا جهل قدرك، إذا كان هذا الزمان لم يجلل بعد بالعار.

فأرسل إليَّ وصفًا صادقًا لكل شئونك، فأنا أريد أن أعرف كل شيءٍ عنك مهما يكن فيه من شر، ولعلي إذا مزجت دمعي بدمعك ليقلل ذلك من آلامك، فقد قيل إن الآلام إذا تقاسمها الناس خفَّ وقعها وسهل حملها.

ولا تعتذر بقولك إنك تريد أن تجنبني الدمع أزرفه أسى عليك، فإن دموع النساء اللاتي كتب عليهن أن يقمن في مكانٍ موحشٍ محزنٍ لا عمل لهن فيه إلا التوبة من الذنوب دموع يجب ألا يضن بها. وإذا كنت تريد ألا تكتب حتى تتاح لك فرصة تكتب إليَّ فيها ما يسر، فستنتظر هذه الفرصة طويلًا. ذلك أن النعمى قلما تختار جانب الفضيلة؛ والحظ كما علمت أعمى، فإذا ما وُجِدَ رجل واحد عاقل وشجاع بين طائفةٍ كبيرةٍ من الخلق لا يتمتعون بهذه الصفات، فهل ينتظر أن يواتيه الحظ هو وحده من

دونهم جميعًا؟ اكتب إليَّ إذن من فورك ولا تنتظر حدوث المعجزات فهي جد نادرة، وإذا حدثت فقلَّ أن تكون من نصيبنا نحن لأننا تعودنا سوء المصير، وسأعتقد على الدوام –وأرجو أن تسمح لي بهذا الاعتقاد الذي يملأني غبطةً على الدوام– إني إذا ما تلقيت منك رسالةً عرفت أنك ما زلت تذكرني... إن صورتك معلقةً في حجرتي، وكلما مررت بها وقفت عندها أطيل النظر إليها. أما إذا كنت أنت معي، فإني قلما ألقي نظرة عليها. وإذا كان في مقدور الصورة، وهي ذلك الرمز الصامت، أن تبعث في النفس ما أشعر به من السرور، فماذا تستطيع الرسائل أن تبعثه فيها. إن للرسائل أرواحًا، وإنها تتكلم، وإن فيها من القوة ما يعبر عن نشوة القلب، وليس ينقصها شيء من حرارة العواطف، وإنها لتبعثها في القلب كما يبعثها الكاتب نفسه، وفيها كل ما للكلام من رقةٍ وحنو، وقد يكون فيها أحيانًا من الجرأة على التعبير ما لا يستطيعه الكلام.

ليس ثمة ما يمنعنا أن نتبادل الرسائل، لأن هذه المتعة البريئة لا يحرمها علينا الناس، فعلينا إذن ألا نضيع بأعمالنا تلك السعادة التي لم يبق لنا غيرها، ولعلها هي السعادة الوحيدة التي لا يستطيع حقد أعدائنا أن يغتصبها منا. وسأقرأ في رسائلك أنك زوجي، وسأوقعها بأني زوجتك، وستكون أنت في هذه الرسائل ما تحب أن تكون على الرغم مما حلَّ بنا من نوائب؛ ولعل الرسائل لم تخترع أول ما اخترعت إلا لتكون تعزية وسلوى للبائسين أمثالي. وما دمت قد فقدت تلك السعادة العظيمة سعادة النظر إليك والاستحواذ عليك، فلا أقل من أستعيض عن بعضها بما أجده من اللذة في رسائلك.

ولسوف أقرأ فيها أفكارك القدسية، وأحملها معي أينما ذهبت، وأقبلها في كل وقت. وإذا كانت الغيرة تجد سبيلًا إلى قلبك فلتكن غيرتك من هذا العطف الذي أمنحه رسائلك، ولتحسد فقط هذه السعادة التي يتمتع بها هؤلاء المنافسون. وأحب أن تكتب إليَّ في غير تكلفٍ أو استعداد، حتى لا تكون هذه الكتابة مصدر تعب لك. وخير لي أن أقرأ فيها ما يفيض به قلبك لا ما يمليه عليك عقلك. ذلك أني لا أستطيع العيش إذا لم تقل لي إنك ما زلت باقيًا على حبي، ولكن يجب أن تكون اللغة التي تعبر بها عن هذا الحب هي اللغة التي تجري على لسانك ولسان الناس، والتي أعتقد أنك لا

تستطيع أن تتحدث إليَّ بغيرها إلا إذا كان قلبك قلقًا مضطربًا. ولقد قصصت على صديقك في رسالتك قصةً محزنةً فأثرت بها كوامن أشجاني، ولهذا فإن من حقي عليك أن تخفف وقعها عليَّ بإشارةٍ منك إليَّ أنك لا زلت باقيًا على حبي.

وليس في مقدورك أن تنسى ، لأن المحبين لا ينسون أبدًا ما كنت أستمتع به من السعادة حين أقضى الأيام أصغي إلى محاضراتك، وكيف كنت وأنت غائب عني أعتزل الناس جميعًا لأكتب إليك، وكيف كنت أظل قلقةً حتى تصل رسالتي إلى يديك، وما أكثر ما كان يتطلبه وجود الرسول الذي يحملها إليك من تدبيرٍ واحتيال. وقد يكون في هذا القول ما يثير دهشتك، وقد تكون متلهفًا إلى معرفة ما أقوله بعده، وليس ثمة ما أخجل عنه حين أبلغك أني فعلت أكثر منه لأن حبي لك لا يقف عند حد. ولقد بلغ من أمري أن كرهت نفسي حبًّا فيك، فلقد جئت إلى هذا المكان لأحبس فيه على الدوام، حتى تستطيع أنت أن تحيا هادئًا مطمئنًا.

وتلك نتائج لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الفضيلة الممتزجة بالحب الخالص الذي لا صلة له بالحواس الجسمية. ذلك حب ليس في مقدور الرذيلة أن توحي به، لأن الرذيلة خاضعة لسلطان الجسم، والذي يحب اللذات إنما يحب الأحياء لا الأموات، ونار هذا الحب لا تضطرم في قلوب الأحياء إذا كانت قد خبت في قلوب الموتى. ذلك ما كان يفهمه علمي من الحب، فقد كان مقياس فضيلتي عنده ضعفي الجنسي، فظن أني أحببت فيك الرجل لا الإنسان، ولكنه ارتكب جرمًا ولم ينل غرضًا، فإني أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك في أي وقتٍ مضى، وأنا أثأر بهذا الحب لنفسي، وسأظل أحبك بكل ما في طاقتي إلى آخر لحظةٍ من حياتي. و إذا لم يكن حبي لك في الأيام الخالية نقيًّا طاهرًا بقدر ما هو في هذه الأيام، وإذا كان روحي وجسمي في ذلك الوقت قد أحباك، فإني طالما قلت لك حتى في ذلك الوقت إن سعادتي بامتلاك قلبك لا تعدلها قط سعادة أخرى، وإن الرجل الذي فيك لهو أقل ما فيك قيمةً في نظري. وما من شكٍّ في أنك قد اقتنعت بهذا القول كل الاقتناع، اقتنعت به لأني رفضت بشدة أن أكون لك زوجة، وإن كنت أعلم أن لفظ الزوجة لفظ مشرف في الدنيا ومقدس في

الدين، لكن لفظ "الحبيبة" كان أجمل وأكثر جاذبية، لأنه أوسع حرية. ذلك أن رابطة الزواج مهما يكن فيها من شرفٍ وكرامةٍ تنطوي مع ذلك على قيودٍ لابد منها، وإني لأكره أشد الكره أن أضطر إلى حب رجلٍ قد لا يدوم لي حبه مدى الحياة. لذلك احتقرت اسم الزوجة لكي أعيش سعيدةً ممتعةً باسم الحبيبة، ثم عرفت من خطابك لصديقك أنك لم تنس قط من كانت تحبك أشد الحب، والتي ترغب في أن تكون أقوى مما هي الآن حبًّا لك. ولقد صدقت إذ قلت في خطابك إني لا أكبر قط شأن تلك الروابط العامة التي لا تدوم إلا ما دامت الحياة، ثم تنحل بالموت، فتجعل بذلك الحياة والحب شقاءين لا بد منهما؛ ولكنك لم تذكر في هذا الخطاب كم مرة أعلنت لك أني أفضل ألف مرة أن أعيش مع أبلار وأن أكون حبيبته على أن أعيش مع إنسانٍ آخر وأن أكون ملكة الدنيا جميعها. وكنت أجد في طاعتك من السعادة ما لا أستطيع أن أجده لو أنني كنت زوجة ملك تخضع له الأرض وما عليها. ذلك أن الثراء والجاه ليسا منشأ ما في الحب من لذةٍ وسعادة، بل إن الحب الحقيقي ليحملنا على أن نفرق بين الحب وبين كل ما هو خارج عنه، فنطرح جاهه وراءه ومهنته ولا ننظر إلا لشخصه.

وليس الحب الخالص هو الذي يدفع المرأة إلى أن ترتمي في أحضان زوجٍ وضيع، بل الذي يدفعها إلى ذلك هو حب المال أو الجاه. فالطمع لا الحب هو واسطة عقد هذا الزواج، ولست أشك في أنه قد يعقبه شيء من الرفعة أو الفائدة، ولكني لا أعتقد أن هذه هي الوسيلة التي يستطيع بها الإنسان أن يتمتع بلذة الوفاق المحبوب، أو يشعر بتلك الغبطة السامية الفاتنة التي تكون حين ترتبط القلوب بعد أن طال افتراقها. إن ضحايا ذلك الزواج لا ينفكون يتطلعون إلى ثروةٍ أعظم، يخيل إليهم أنهم فقدوها، فالمرأة ترى رجالًا أكثر من زوجها مالًا، والرجل يرى نساءً أجمل من زوجته خلقًا، فلا تلبث أيمانهما المشتراة أن تبعث في نفسيهما الندم، والندم يورث الكره، وسرعان ما يفترقان — أو يرغبان في الفراق— ويكون جزاؤهما على أنهما أرادا بالحب شيئًا غير الحب نفسه هو ذلك الجشع والاستكلاب على المال الذي يعذبهم ويقض مضاجعهم.

وإذا كان في هذه الدنيا ما يصح أن يسمى سعادة بحق فلست أشك في أنه هو

اتحاد شخصين متحابين بكامل حريتهما جمعت بينهما ألفة خفية، واقتنع كلاهما بأن أليفه جدير بحبه. إن الحب يملأ قلبي هذين المحبين، فلا يكون فيهما مكان لغيره من العواطف، وهما يستمتعان بالراحة الدائمة لأنهما يستمتعان بالرضاء والقناعة...

وما أكثر النساء اللاتي كن ينافسنني في الحظوة بنيلك وشهامتك، ويعتقدن لجمالهن أنهن أجدر بك مني. وكم من فتاةٍ سمعتها تجهر في أسى وحسرة بحبها لك بعد أن جئت إليها في زيارةٍ عاديةٍ وهنأتها صاحباتها بأنها هي الموحية إليك بشعرك. وكم من فتاةٍ غيرهن قد امتلأ قلبها حسدًا ويأسًا فأخذت تبكتني بأني ليس لي من الجمال إلا ما تخلعه أنت عليَّ، أو من الفضل إلا حبك إياي. وهل تصدقني إذا قلت لك إنني بالرغم من أنوثتي كنت أظن نفسي جد سعيدة لأن لي حبيبًا أنا مدينة له بفتنتي وجمالي، وإنني كان يخالجني سرور كمين لأن رجلًا يعجب بي وهو قادر إذا شاء أن يرفع محبوبته إلى مصاف الملائكة. ولقد كنت وأنا نشوى بجلالك وحده أقرأ –في بهجة– ثناءك عليَّ، ولم أكن أفكر وقتها في أني لا أستحق هذا الثناء، بل كنت أعتقد أني كما وصفتني بحق، كي يزداد يقيني بأني أبعث السرور في نفسك.

ولكن وا أسفاه أين ولت هذه الأيام السعيدة؟ إني أندب الآن حبيبي، ولم يبق لي من مسراتي كلها إلا تلك الذكرى المؤلمة: وهي أن مسراتي كلها قد انقضت أيامها. ألا فلتعلمن يا من كنتن تنافسنني في حبي وتحسدنني على ما كنت أرفل فيه من حلل السعادة أن من كنتن تحسدنني عليه قد فارقني إلى غير عودة. فلقد أحببته وكان حبي إياه هو جريمته وسبب عقابه. لقد افتتن بجمالي، فأعجب بي وأعجبت به، وقضينا أيام بهجتنا هادئين، فإذا كانت هذه جريمة فما أحلاها من جريمةٍ ما زلت أحبها ولا أندم على شيءٍ إلا أني قد أرغمت على أن لا أرتكبها.

ولكن ماذا أقول؟ لقد ابتلاني الله بأهلٍ قساة قضوا بحقدهم على ما كنا نستمتع به من هدوء، ولو أنهم أوتوا شيئًا من العقل لكنت الآن سعيدة بجانب زوجي العزيز. ألا ما كان أشد قسوتهم حين اندفعوا في سورة الغضب فسلطوا عليك شريرًا فاجأك في نومك. ألا ليتني كنت معك. ألا ليتني استطعت أن أدفع الأذى عن حبيبي، ولو

استطعت لكان في ذلك مسرة لا تعادلها مسرة، ولو أني كنت إلى جانبك لدفعت الشر عنك ولو ضحيت في سبيل ذلك بحياتي. ويل لي! ترى إلى أي غايةٍ تدفعني عواطفي الجامحة. إن الحب لا يطيق هذا الفخر، ولذلك تراني عاجزةً عن مواصلة هذا الحديث.

ولكن هلا حدثتني عن سبب إغفالك أمري منذ ترهبنت؛ إنك لتعرف أني ما أقدمت على ذلك العمل إلا بسبب ما حلَّ بك، وإني لم أرضه لنفسي إلا لأنك ارتضيته لي. فقل لي ما سبب هذا الفتور، وإلا فاسمح لي أن أحدثك أنا بظني. ألم يكن تفكيرك في مسرتك هو الذي وثق الصلة بينك وبيني؟ ألم يكن عطفي عليك ذلك العطف الذي حدا بي ألا أمنع عنك شيئًا ترغب فيه هو الذي أطفأ جذوة حبك؟

ألا ما أشقاك يا هلواز! لقد كان في وسعك أن تمنحي السرور حين كنت ترغب في منعه، وكنت خليقة بالبخور يُحرق لك حينما كان في مقدورك أن تنحي عنك اليد التي تقدمه. فلما رق قلبك وخضعت وأخلصت وضحيت بنفسك، هجرك من أخلصت له ونسيك من ضحيت بنفسك من أجله.

ولقد أقنعتني التجارب القآسية أن من طبيعة الإنسان أن يتجنب لقاء من له عليه فضل عظيم، وأن الإسراف في الكرم يجزئ بالإهمال لا بالشكر. ولقد أسرعت بتسليم قلبي إليك فلم ينل ذلك القلب احترام من استلم إليه، ذلك أنه تملكه سهلًا فاطرحه سهلًا؛ ولكن مهما يكن من جحودك فلست أشاركك هذا الجحود، وسأظل أحتفظ في أعماق نفسى برغبتي في أن تحبني، وإن لم يكن من حقي أن أحتفظ لنفسي برغبةٍ تخصني.

وهل تعرف أني حين نذرت نفسي للدير وأقسمت قسمي الحزين، كانت إلى جانبي رسائلك التي تعلن فيها أنك كلك لي، وأنك لن تحيا إلا لتحبني، فوضعت من أجل ذلك نفسي بين يديك وملكتك قلبي وملكتني قلبك؟ ويقيني أن ليس من حقك أن تسترد ما وهبت، وأن عليك أن تصبر على عواطفي الجياشة، فإنك أنت باعثها وليس في مقدورك أن تتنصل منها بحال.

ويل لي ما أقل عقلي حين أنطق بهذه الألفاظ! إني لا أجد من حولي إلا آثار الله،

ومع ذلك تراني لا أتحدث إلا عن الإنسان! ألا ما أقساك؟ لقد كنت أنت السبب في هذا بسلوكك معي أيها الغادر، فهل يليق بك أن تتخلى عن حبي على هذا النحو الفجائي؟ ولِمَ لَمْ تخدعني بعض الوقت بدل أن تهجرني على الفور؟ فلو أني بدا لي من قبل أثر ضئيل من نقص حبك لما ساءني خداعك، ولكن عبثًا ما أمنِّي به نفسي من أن في مقدورك أن تثبت على حبي، لأنك لم تترك لى ما أعتذر عنك به. إني راغبة أشد الرغبة في رؤيتك، فإذا كان ذلك غير مستطاع قنعت بسطورٍ قليلةٍ من خط يدك.

إن من أصعب الأشياء على المحب أن يكتب، ولكني لا أريد رسالةً من رسائلك التي تفيض بالعلم والتي تكتبها لتنال بها الشهرة والمجد، بل أريدها رسالة يمليها القلب، ولا تستطيع اليد أن تلاحقه فيها.

ولطالما خادعت نفسي بالأمل بأنك ستكون كلك لي إذا ما لبست المسوح، وعاهدت نفسي بأن أعيش أبد الدهر خاضعةً لسلطانك. ذلك أني حين ترهبنت لم أقسم إلا أن أكون لك، وزججت بنفسي مختارةً في هذا السجن الذي رغبته أنت لي، ولن يخرجني من صومعتي التي وضعت فيها إلا الموت. فإذا جاء أجلي بقيت رفاتي حيث أنها تنتظر رفاتك، وتشهد أبد الدهر على طاعتي إياك وإخلاصي لك.

وأي شيءٍ يدعوني إلى أن أخفي عنك سر مقامي في الدير؟ إنك لتعرف أني ما جئت إليه لشدة تقواي وحماستي الدينية، وضميرك أطهر من أن يجيز لك أن تتنصل من أنك أنت السبب في مجيئي إليه، ولكن هأنذا مقيمة فيه، وسأظل أقيم فيه، أي في المكان الذي حكم على بالإقامة فيه يأسي وقريب لي غير رحيم؛ فإذا لم يدم لي اهتمامك بشأني، وإذا فقدت عطفك علي، فماذا عسى أن أكون قد أفدته من سجني؟ وأي جزاءٍ إذن أرتجيه؟ إن ما أعقب حبنا من شقاء، وما أصابك أنت من بلاء، قد أرغماني على أن أكون عفيفة طاهرة، ولكني غير نادمة على الماضي. وهكذا يضيع كدي في هذا الدير فأقيم بين من وهبن أنفسهن لله، وأنا التي وهبت نفسي للإنسان، فهن يعبدن الله وأنا أعبد شهوةً بشرية، أتزعم جماعةً دينيةً وأنا التي لا أخلص إلا لأبلار.

ألا ما أفظع هذا القول! اللهم أنر بصيرتي فلست أدري لعل قنوطي من رحمتك هو الذي أنطقني بما نطقت به. لست أنكر أنني قد عصيتك، ولكنني بدل أن أغسل خطيئتي بدمعي لا أبكى إلا حبيبي، وبدل أن أمقت جرائمي لا تتوق نفسي إلا إلى المزيد منها، ويتملكني ضعف لا يليق بالوضع الذي أنا فيه، ويطيب لي حين أذكر مسراتي الماضية أن أتمنى اليوم الذي أستطيع فيه العودة إليها.

رحماك اللهم! ما هذا كله؟ إني ألوم نفسي على ما ارتكبت من ذنوب، وأعنفك يا حبيبي على ذنوبك؛ ولكن ماذا يجدي هذا؟ لقد لبست ثياب الرهبنة ولكن انظر أي عذاب ألقيتني فيه! وما أشد ما أقاصي وأنا أكافح ميولي لأقوم بواجبى؛ وإني لأشعر بما تلقيه علي هذه الثياب من واجبات، ولكني أشعر أكثر من هذا بما لعاطفتي القديمة على قلبي من سلطان...

أستحلفك بالله أن تعين هذه البائسة على أن تبرأ من رغائبها –من نفسها– وأن تبرأ من حبك إذا كان لهذا البرء من سبيل. فإن كنت محبًّا أو أبًا فأعن حبيبةً أو أرح طفلًا.

إني لا يخالجني شك في أنك ستلبي طلبي، فإن هذين الاسمين سيثيران عواطفك، فألن قلبك رحمةً أو حبًّا، فإذا أجبت دعوتي فسأبقى راهبةً ولن أدنس بعد اليوم مهنتي.

إني لن أتوانى في أن أذل نفسي معك إلى رحمة الله الذي تتسع رحمته لكل شيء، والذي يطهرنا بفضله من جميع الذنوب والآثام، والذي يطهرنا برحمته الواسعة من رغائبنا، ويرسل نوره إلى قلوبنا، فتتفتح شيئًا فشيئًا لذلك الفيض الرباني الذي لم نكن ندركه من قبل...

إن القلوب التي أحبت مثل قلبي لا تستطيع السلوى إلا على مهل، فهي تتردد وقتًا طويلًا بين الحب والكره قبل أن يُتاح لها الاستقرار والهدوء، وهي تستمسك على الدوام بذلك الأمل الضائع فتظن أنها لن تنسى كل النسيان.

أجل يا أبلار، إني أستحلفك بهذه الأغلال التي ينوء بها كاهلي في هذا المكان أن تخفف عني باهظ عبئها فتكون بحيث أطيقها. هلا علمتني أصول الحب القدسي، فإني

بعد أن هجرتني لا يسعني إلا أن أباهي بأني حبيبة الله. إن قلبي يمجد لفظ الحبيبة ويحتقر كل ما عداه، فقل لي ما الذي يغذي هذا الحب القدسي وينميه، وكيف يعمل هذا الحب في النفوس وكيف يطهرها من الدنس؟

إني حين أخذت تتقاذفنا أمواج هذا العالم لم أكن أطيق سماع شيءٍ غير أشعارك التي كانت تنشر أفراحنا ومسراتنا في مشارق الأرض ومغاربها؛ والآن وقد ألقينا عصا التسيار في ملجأ من رحمة الله، أفلا يجدر بك أن تحدثني عن هذه السعادة الجديدة، وأن تعلمني كل ما يزيد من قدرها ويصلح من شأنها؟

هلا أظهرت إليّ في وضعي الحالي من الرقة والعطف ما كنت تظهره ونحن في دنيا الناس؟ دعنا نبدل أهداف عواطفنا دون أن نبدل من حرارتها؛ ولنغن وليكن غناؤنا ترنيمات دينية، ولنطو قلوبنا على حب الله ولا نطرب إلا لمجده.

إني أنتظر هذا منك، وليس في مقدورك أن تأباه عليَّ، فإن لله على قلوب العظماء من خلقه حقوقًا خاصة يتقاضاها منهم؛ فإذا ما تجلى لهم جذلوا واغتبطوا فلم يستطيعوا النطق إلا بمجده، والتنفس إلا تسبيحًا بحمده.

فإلى أن تحين هذه الساعة فكر فيَّ ولا تنسني، واذكر حبي وإخلاصي ووفائي، وأحبني أنا حبيتك، وأعزني أنا طفلتك وأختك وزوجتك. واذكر أني ما زلت أحبك وإن كنت أحاول أن أتجنب حبك. ألا يا له من قولٍ رهيبٍ يقشعر من هوله بدني ويثور عندما أنطق به قلبي! سأغسل هذه الأوراق بدمعي، وهأنذا أختم رسالتي الطويلة داعيةً لك بالخير، وأستودعك الله –إذا رغبت– وداعًا أبديًا، وليت الله يعينني عليه.

***

وقد رد أبلار على خطاب هلواز هذا برسالته الآتية:

أبلار في وحدته ومن كوخ الغاب الذي يعيش فيه يسلم أمره وأمر هلواز إلى ربه

"... **أريد الآن أن أجفف هذه العبرات**..."

[من أبلار إلى هلواز]

-١٧-

لو أني عرفت أن رسالةً لم تكتب لك سوف تقع في يديك لكنت أكثر مما أنا حرصًا على ألا أذكر فيها شيئًا يثير ذكرى شقائنا الماضي. لقد كنت جريئًا في وصف ما قاسيت إلى صديقٍ من أصدقائي لكي أخفف عنه وقع مصيبةٍ حلت به.

فإذا كانت هذه الوسيلة التي لم أقصد بها إلا الخير قد سببت لك بعض الألم، فإني أريد الآن أن أجفف هذه العبرات التي تحدرت من عينيك حين قرأت ما جاء في رسالتي من وصفٍ محزنٍ لحالي ولحالك، وسأمزج حزني بحزنك، وأسكب دم قلبي بين يديك، وأعرض أمام عينيك جميع ما لاقيت من شقاء، وما في نفسي من أحزانٍ أخفيتها حتى الآن عن أنظار العالم كله أنفةً مني وكبرياء، وسأضطر لأن أفصح لك عنها على الرغم مني.

لست أنكر حين أذكر ما جمعنا به الدهر من فجائع، وأرى ألا رجاء لنا في النجاة من صروف الزمان وقوارعه، أن أيام السعادة قد أدبرت ولم يبق إلا أن نمحو من عقولنا كل ما بقي فيها من ذكرياتٍ وآثارٍ مهما كلفنا ذلك من آلام. ولقد كنت أرجو أن يكون في الفلسفة والدين ما يخفف عني بعض ما أصابني، فبحثت عن ملجأ يعصمني من الحب، وبلغ من أمري أن لجأت إلى تلك الوسيلة المحزنة فترهبنت لكي يقسو قلبي بعض الشيء. فما الذي جنيته من هذا كله؟ إذا كانت عواطفي قد قيدت بعض الشيء، فإن أفكاري ما زالت حرة طليقة؛ وأنا أمنّي نفسي بأن أنساك، ولكنني لا أستطيع أن أفكر في نسيانك من غير أن يؤدي هذا التفكير إلى حبك. وليس شيء من

هذه الأفكار التي أريد أن أحرر بها نفسي بالذي ينقص من حبي، بل إن السكون الذي يحيط في نفسه يزيدني إحساسًا بهذا الحب. وإذا لم يكن لدي ما يشغلني كان حبك كل ما يشغل بالي، حتى أيقنت بعد أن بذلت من الجهد ما بذلت أن لا فائدة ترجى من العمل على التحرر من قيود الحب، وأن حسبي من العقل والحكمة أن أخفي عن الناس كلهم، إلا أنت وحدك، ما أنا فيه من اضطرابٍ وما أحس به من ضعف.

ولقد بعدت عن شخصك لكي أتجنب لقاءك كما أتجنب الأعداء، ولكنني لا أنفك أبحث عنك في أعماق نفسي، وأستثير خيالك في ذاكرتي، وأستعين بمختلف الوسائل المقلقة المزعجة لكي أناقض نفسي وأفضح سرى. فأنا أبغضك وأنا أحبك فيا للعار الذي يجللني من كل صوب.

ولقد يبدو لك في هذه الساعة أني قد سلوت أكثر منك، ولكن يسوءني أن أكشف لك عن آلامي. آلاما أضعف بني الإنسان إن لم يعتصموا بالصبر ويتخذوا من الأنبياء والقديسين أسوةً حسنة. فهل تخوننا شجاعتنا؟ وهل يصيب قلبي أيضًا ما أصاب قلبك من الضعف الذي يبعثه فيه خضوع الإنسان لسيدين؟ إنك لتحسين بما أنا فيه من اضطراب، وترين كيف ألوم نفسي وكيف أتعذب.

إن الدين يأمرني أن أستمسك بالفضيلة لأني لا رجاء لي في الحب، ولكن الحب لا يزال يسيطر على خيالي ويذكرني بسعادتي الماضية؛ وقد اتخذت من الذكرى بديلًا من الحبيبة، ذلك أن العزلة لا تثمر التقوى ولا يعقبها أداء الواجب في جميع الأحوال، فساكن الصحراء الذي لا يرى قطرةً من ندى الماء يحب ما لا يليق به أن يحبه.

إن العواطف التي تثيرها الوحدة لتملأ تلك الأصقاع التي يسكنها الموتى ويخيم عليها السكون، وقلما يحرص الناس في هذه الأماكن على أن يتبعوا حقًّا ما يجب عليهم أن يتبعوه لو أن الله وحده هو الذي يعبد ومحب في هذه الأماكن. ولو أني عرفت هذا من قبل لعلمتك خيرًا ما علمت. وأنت تسمينني معلمك، ولست أنكر أنهم عهدوا بك إلى عنايتي، وإني رأيتك وحرصت بحق على أن ألقنك العلوم التي لا جدوى منها،

وخسرت من جراء ذلك طهرك وخسرت أنا حريتي.

وكان عمك يحبك فعاداني وانتقم لنفسه مني، فإذا كنت الآن قد فقدت القدرة على حبك بعد أن فقدت القدرة على إشباع عاطفتي منك، فقد كان من حقي على نفسي أن أجد بعض ما يواسيني ويفرج كربي، وكان من حقي على أعدائي أن يتيحوا لي ذلك الهدوء الذي ابتاعه أُرجين(١) بجرمه. ألا ما أشقاني! إني لأجد نفسي أكثر جرمًا وأنا أبكيك وأفكر فيك ما كنت وأنا أملكك بكامل حريتي. إني أفكر فيك دائمًا ولا أنسى قط ما كنت تحيطينني به من عطفٍ وحنان.

فإذا كنت يا إلهي أسجد أمامك وأنا على هذه الحال لأسألك أن ترحمني، فلم لا تحرق نار الروح الطاهرة ذلك الحب الذي أريد أن أضحي به من أجلك وأقدمه قربانًا لك؟ لم لا ترحمني يا إلهي من أجل هذه الثياب التي أرتديها، ثياب التوبة من الذنوب والندم على ما فات؟ إن الله لا يزال غاضبًا عليَّ لأن عواطفي القديمة لا تزال تجيش في صدري، ولا تزال نيرانها متأججة لم تخمد لظاها، وإنما يغشاها الرماد الخداع، ولن يطفئها إلا رحمة من الله ورضوان لم يهبهما من قبل لإنسان. وماذا يفيدنا خداع الناس والله مطلع على السرائر لا تخفى عليه منها خافية؟

تقولين إنك من أجلي ترتدين ثياب الراهبات؛ بالله لا تدنسي مهنتك المقدسة بهذه الألفاظ، ولا تغضبي ربك بهذا الضلال! لقد كنت أرجو حين بعدت عنك أن تتبدل عواطفك، كما كنت أرجو أن ينجيني الله من اضطرابٍ نفسي. ذلك أن ما يشعر به الناس من وجدٍ وهيامٍ يضعف حين يفترقون؛ فالغياب مقبرة الحب، والقلب ينسى ما لا تراه العين. لكني وجدت أن غيابك عني يذكرني بحبك وهي ذكرى لا تنفك تقض مضجعي وتضرم النار في قلبي. وكنت أظن أني حين تراك عيني تستقرين في ذاكرتي دون أن تتوزعني الفكر وتتشعبني الهموم، وأن برتني(٢) والبحر سيوحيان إليَّ أفكارًا غير هذه

---

(1)Origen

(٢) Brittany شبه الجزيرة الشمالية القريبة من فرنسا حيث كان أبلار يقيم في ذلك الوقت.

الأفكار، وأن صيامي ودرسي سيفرغان قلبي منك على مر الأيام. ولكني رغم صومي الشديد، ودرسي الشاق الطويل، ورغم ما بيننا من بعدٍ شاسعٍ يبلغ ثلاثةً من الأميال، أرى صورتك في لباس الراهبات، كما تصفين نفسك في رسالتك، لا تنفك ماثلةً أمام عيني تفت في عضدى وتوهن عزيمتي.

وهل ثمة وسيلة لم أتوسل بها إلى غايتي؟ لقد تسلحت بأسلحةٍ قاتلت بها نفسى، وأضنيت قواي بالرياضة التي لا تنقطع أبدا، وكتبت الشروح الطويلة على أقوال القديس بولس، وعارضت أرسطوطاليس، وقصارى القول أني أفعل الآن ما كنت أفعله قبل أن أحبك، ولكن ذلك كله لم يفدني شيئًا، إذ لا شيء يفلح معي إذا كان يقصد به مقاومتك. بحقك لا تزيدي شقائي بثباتك على حبي... ولم تستعينين ببلاغتك على تأنيبي لفراري وسكوتي؟ أشفق عليَّ من ذكر ما ارتضيناه لأنفسنا من مقامٍ ومن حرصك على أداء واجباتك في الدير.

حسبي ما لدي من آلام ولا تذكريني بهذه الأفكار التي تُمر عيشى وتقبض رجائي؛ وأية ميزة كبرى تميزنا بها الفلسفة من الناس إذا كانت دراستها لا تعيننا على كبح جماح عواطفنا. آه لشد ما نقاسي مما نبذله من جهودٍ وما يصيبنا من انتكاسٍ واضطراب، وما أكثر ما نضل في هذا القلق وتطيش فيه أحلامنا، ونفقد السيطرة على نفوسنا، ونعجز عن كبح جماح عواطفنا!

كيف أستطيع أن أفصل عن شخص من أحبه تلك العاطفة التي يجب على أن أمقتها؟ وهل تكفي الدموع التي أزرفها لكي تبغضها لي؟ لعمري لست أدري كيف يجد الإنسان اللذة في البكاء على ما يحب؟ إن من العسير علينا في أحزاننا أن نفرق بين الندم والحب، ولعل السبب في هذا أن الصلة بين ذكرى الجرم وذكرى المحبوب أوثق من أن يستطاع فصم عراها على الفور؛ وليس حبنا للخالق في بادئ أمره بالذي يقضي القضاء كله على حبنا للمخلوق.

ولكن أي عذرٍ لا أستطيع أن أجده فيك إذا كانت جريمتي مما يعتذر عنه؟ ليس الذي

زللت من أجله هو المجد الذي لا نفع فيه، أو الثروة التي لا تجر وراءها إلا التعب والشقاء، بل الذي زللت من أجله هو سحرك وجمالك وبهاؤك الذي لا أزال أشاهده حتى هذه الساعة. لقد كانت طلعتك بداية جريمتي، ثم نفذ حديثك ونفذت لحاظك في قلبي، فسيطر الحب عليَّ بالرغم من ذاك الطموح والمجد اللذين حاولا عبثًا أن يتقيا تلك السهام النافذة.

وقد أراد الله أن يجزيني عما فعلت فوكلني إلى نفسي. لست الآن من بنات الدنيا لأنك خرجت منها، وأنا الآن من رجال الدين الذين نذروا الوحدة، فلم لا نفيد من هذه الحال التي نحن عليها؟ وهل تريدين أن تقضي على تقواي وهي لا تزال في مهدها؟ وهل ترغبين في أن أخرج من الدور الذي لم أدخله إلا منذ قليل؟ وهل أحنث في إيماني؟ لقد أقسمتها أمام الله فأين أفر من غضبه إذا نكثت عهدي؟ فهلا تركتني لأجد الراحة في قيامي بواجبي...

إني أتوسل إليك ألا تنظري إليَّ بعد الآن نظرتك إلى العظماء أو كبار المنشئين. إن ثناءك عليَّ لا يتفق مع ضعفي وأخطائي. فأنا مذنب بائس أرتجي عفو حاكمٍ عادل، أخر ساجدًا أمام ربي أبلل الثرى بدمعي، فإذا أبصرتني على هذه الحال فهل تطلبين إليَّ أن أحبك؟ تعالي إذا شئت في ثيابك الكهنوتية واحشرى نفسك بيني وبين ربي. تعالي واسلبي تلك النفثات والأفكار والنذور التي لا أدين بها إلا لله وحده، تعالي وكوني عونًا للشيطان وأداة لمكره وشره، وأي شيءٍ لا تستطيعين أن تغري بفعله قلبًا أنت أعلم الناس بضعفه؟

لا. لا تأتي إليَّ وكوني عونًا لي على النجاة. أستحلفك بحق حبنا القديم وشقائنا الحديث أن تجنبيني الهلاك، ولتكن أسمى درجات الحب لديك ألا تظهري شيئًا من الحب، وأنت في حلٍّ من جميع أيمانك وعهودك. كوني كلك لله الذي وهبت إليه نفسك، فلست أعارض قط في هذا العمل الصالح؛ وما أسعدني إذا فقدتك على هذا النحو! إذن لكنت تقيًّا حقًّا، وكنت أنت مثلًا أعلى للراهبات.

أصلحي من شأنك بهذا الاختيار الموفق، واجعلي فضيلتك مثالًا يحتذيه خلق

الأرض وملائكة السماء، والزمي التواضع أمام أبنائك، والجد في ترتيلك، واحرصي على نظم الدير، ولا تقصري في القراءة والدرس، وأفيدي حتى من رياضتك نفسها.

وهل من يشتري مهنته بهذا الثمن الغالي يقصِّر في الإفادة منها أكبر ما يستطيع من فائدة؟ وما دمت قد سمحت لنفسك بأن تضلك المبادئ الخاطئة والتعاليم الإجرامية، فلا تضيعي تلك النصائح الطيبة التي يوحي بها الدين واطلبي من الله المغفرة.

وسأقر أمامك بأني أظن نفسي حتى هذه الساعة أقدر على نشر الرذيلة مني على بث الفضيلة. إن بلاغتي الكاذبة لم تفد إلا في تزيين الضلال، وإن قلبي الذي أسكرته الشهوة ليعجز إلا عن أن يوحي بها ويمجدها. إن الكأس التي تمتد بها يد المذنبين لتفيض بالشراب العذب اللذيذ، وإننا لنميل بطبيعتنا إلى تذوقها، فليسوا هم إذن بحاجةٍ إلى أكثر من عرضها علينا.

أما أكواب القديسين فشرابها مرٌّ تعافه النفس، ومع ذلك ترميني بالجبن لأني قدمتها إليك أول الأمر. إني لأقبل هذه التهمة وأرتضيها لنفسي، وإني لمعجب أشد الإعجاب بإقبالك السريع على لبس ثياب الراهبات، فاحملي في شجاعة الصليب الذي تقبلته بثباتٍ وعزم، وتجرعي شراب القديسين الأبرار، واشربي كأسهم حتى الثمالة، ولا ترفعي عينيك وتلفتي نحوى تلفت المرتاب، ودعيني أبتعد عنك، وأعمل بما أشار به الرسول، فأهرب من الفساد الذي في العالم[١].

إنك تتوسلين إليَّ بأن أعود إليك مستترًا وراء ستار التقى والصلاح، وإن حرصك على هذا ليوجد في نفسي شيئًا من الريبة، ويحملني على أن أتردد في اختيار الطريقة التي أجيبك بها، لأني إذا أخطأت فيما أكتبه إليك استحت ألفاظي نفسها من الظهور أمامك -إذا جاز هذا التعبير- بعد ما حلَّ بنا من المصائب الكثيرة. إن الكنيسة الشديدة الغيرة على شرفها، وهي تتطلب إلى أبنائها أن يمارسوا الفضيلة بالوسائل الفاضلة. ذلك أننا إذا تقربنا إلى الله طاهري السريرة كان في وسعنا أن ندعو غيرنا إلى

---

(١) رسالة بطرس الثانية ١: ٤

التقرب إليه غير هيابين.

إن الذي يطلبه إله السموات إلى أبلار هو أن ينسى هلواز ولا يراها أبدًا بعد اليوم، والذي يأمر به هلواز هو ألا تنتظر شيئًا من أبلار، وأن تنساه وتنتزعه من ذاكرتها. ذلك أن نسيان الحب هو ألزم الأمور للتوبة وإن كان أشقها على النفس. إن من السهل علينا أن نعدد أخطاءنا، وما أكثر الذين يستمتعون بملذاتهم الماضية على هذا النحو وهم لا يعرفون ما يفعلون؟ وكان عليهم بدلًا من هذا أن يقروا بها في ذلةٍ وخشوع. وليس ثمة وسيلةٍ نرجع بها إلى الله إلا أن نبتعد عن المخلوق الذي كنا نعبده، وأن نعبد الله الذي أبعدنا عنه. قد يكون هذا صعبًا على النفس ولكنه أمر لا غنى عنه إذا أردنا لأنفسنا النجاة.

وقد يُيَسِّر هذا لك أن تفكري فيما دعاني إلى الإلحاح عليك في دخول الدير قبل أن أدخله أنا، وإذا لم أخف شيئًا عنك فأرجو أن يشفع لي لديك إخلاصي وحرصي على أن أكون خليقًا بإهمالك وكرهك. لقد كنت حين تقتسمني الهموم شديد الغيرة، أعد الناس كلهم منافسين لي وأعداء، ذلك أن في الحب من الريبة أكثر مما فيه من الثقة، وكنت أخشى كثيرًا من الأشياء لكثرة ما فيَّ من أسباب النقص، وكانت مخاوف تعذبني، وتقض مضجعي، فقد ظننت أن قلبك الذي أحبني تعود الحب حتى لا يطيق أن يصبر طويلًا دون أن يرتبط بحبٍّ جديد، وما أسهل ما يصدق الإنسان كل ما توحي به الغيرة إلى النفوس من الأفكار المروعة.

ولقد كنت شديد الرغبة في أن لا أجعل إلى نفسي سبيلًا إلى الشك فيك، حريصًا كل الحرص على إقناعك بأن الواجب يقضي عليك أن تبتعدي عن أعين الناس، وأن آدابك وصداقتنا يتطلبان ذلك منك، وأن سلامتك أنت تفرضه عليك، وأن ليس في وسعك بعد أن وقع عليَّ ما وقع من ضروب الانتقام الوحشي أن تطلبي الأمان في غير الدير. وقبلت أنت النصح بسهولة وهو ما أحمده لك، ولشد ما اغتبطت فيما بيني وبين نفسي لأنك أجبت رغبتي مدفوعة إلى ذلك ببراءتك وطيبة قلبك؛ لكنني وإن ظفرت بطلبتي قد أسلمتك إلى ربي وأنا غير مغتبطٍ بما فعلت، لاعتقادي بأني احتفظت

بهديتي أطول ما استطعت، ولم أفارقها إلا لأمنعها أن تقع في يد غيري من الناس. وأرجو أن تصدقيني إذا قلت لك إني لم أطلب إليك دخول الدير رغبةً مني في سعادتك؛ ذلك أني زججت بك فيه زج العدو الذي يتلف ما لا يستطيع أن يفر به؛ ومع هذا فقد كنت تسمعين حديثي بحنان، وتقاطعيني أحيانًا بالدمع تذرفينه من عينيك، وتطلبين إلي أن أدلك على أحسن الأديرة وأجلها قدرًا لدي. ولشد ما استراح قلبي حين رأيتك تعتزلين العالم، فقد اطمأنت بذلك نفسي، واغتبطت إذ أدركت أنك لم تظلي على ظهر الأرض بعد الكارثة التي نزلت بي، وأنك لن تعود إليها بعد ذلك اليوم.

غير أن رغم ذلك كله كانت تساورني الظنون، فقد كنت أتصور أن النساء لا يستطعن الثبات على ما اعتزمنه إلا إذا اضطررن إلى ذلك بما يقسمن من أيمان، ومن أجل هذا طلبت أن تقسمي هذه الأيمان، وطلبت أن تُشهدي الله عليها حتى لا أسيء بك الظن فيها بعد.

فيا أيتها الدور المقدسة والملاجئ الحرام! ما أكثر ما آمنت خيفتي وخفضت جأشي. إن الدين والتقوى يضربان الآن نطاقًا من حديدٍ حول أبوابك وجدرانك، وما أكثر ما يطمئن إلى ذلك القلب الغيور؛ وما كان أقل اصطباري وأنا أسعى إلى هذه الغاية.

لقد كنت أذهب في كل يومٍ وأنا خائف وجل لأحضك على أن تعجلي بهذه التضحية، ولقد أعجبت وقتئذ بسنا جمالك الذي لم أشاهده من قبل، والذي لم أجرؤ على ذكره في ذلك الوقت، وسواء كان هذا هو نضرة الفضيلة التي انبعثت وقتئذ في قلبك، أو الخسارة الفادحة التي كنت وقتئذ أتوقعها، فإني لم أشأ أن أبحث عن السبب بل تعجلت بداية رهبنتك، وأشركت رئيسة الدير في ذنبي برشوةٍ آثمةٍ قدمتها إليها، واشتريت بها حتى في أن أواريك التراب بعد موتك. ورشوت كذلك زميلاتك في الدير فأخفين عنك، إجابةً لطلبي، كل ما سرى في أنفسهن من وساوس وريب، ولم أترك شيئًا صغيرًا كان أو كبيرًا إلا فعلته. ولو أنك أفلت يومئذٍ من شراكي لما نكصت على عقبي، فقد اعتزمت في تلك الساعة أن أتبعك في كل مكانٍ تذهبين إليه، وأن أقتفي خطاك، وأن أبعث الاضطراب في نفسك والرعب في قلبك؛ وكان في ذلك ما يرضيني ويشبع رغبتي.

ولكني أحمد الله إذ اعتزمت أن تقسمي اليمين. ثم صحبتك إلى أسفل المذبح، فلما مددت يدك ولمست الستار المقدس سمعتك في وضوحٍ تنطقين بتلك الألفاظ الرهيبة التي فرقت بيني وبينك أبد الدهر. وكنت أظن حتى ذلك الوقت أن شبابك الغض وجمالك الرائع سيحبطان عملي ويعيدانك على الرغم منك إلى هذا العالم. ولم لا؟ أليس فيه من المغريات ما كان حريًّا أن يثبط من عزمك؟ وهل في طاقة الإنسان أن يخرج نفسه منه ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره؟ وهل في مقدورك أن تظني أن العالم غير جديرٍ بعنايتك وأنت في السن التي يطلب فيها الإنسان لنفسه أقصى ما يستطيع أن يناله من الحرية؟ ما أشد ما ظلمتك وما أكثر ما ظننته فيك من أسباب الضعف! لقد كنت أتصورك رعناء متقلبة، وهل لا تفكر المرأة في تلك الساعة الرهيبة في إنسانٍ ما؟ كنت ألاحظ عينيك، وأرقب حركاتك، وأتفرس في ملامحك؛ ولقد اقشعر بدني لكل شيء، ولست ألومك إن سميت هذا السلوك الأناني خيانةً وغدرًا وقتلًا. إن حبًّا كهذا، شديد الشبه بالكره، يجب أن يثير في النفس أقصى درجات الغضب والاحتقار.

وهل يصح أن تعرفي أني في اللحظة التي اقتنعت فيها بإخلاصك، ورأيت فيها أنك جديرة بكل حبي، تصورت أني لا أستطيع أن أحبك بعدها، وفكرت أنه قد حان الوقت الذي يجب أن أنقطع فيه عن إظهار دلائل حبي، واعتقدت أنك بعد أن لبست ثياب الراهبات أصبحت في رعاية الله، ولم تبقي زوجةً لي أشغل نفسي بأمرها، وبدا لي وقتئذ أن نيران الغيرة خمدت في قلبي؟ ذلك أنه إذا كان الله وحده هو الذي ينافس الإنسان في حبه، فإنه لا يوجس من هذه المنافسة خيفةً في نفسه. وحينئذ تمتعت من الهدوء بما لم أتمتع به من قبل، وبلغ من أمري أن جرؤت على أن أدعو الله أن يباعد بيني وبينك.

ولكن الوقت لم يكن وقت هذه الأدعية الطائشة، ولم يكن إيماني بحيث يطمئني بأن الله سوف يستجيب دعائي. ذلك أن الضرورة الماسة واليأس الشديد هما اللذان ألجآني إلى أن أفعل ما فعلت. فلم يكن ما قدمت قربانًا إلى الله بل اجتراء عليه جل شأنه، ومن أجل هذا لم يتقبل الله قرباني، وردَّ على دعائي، وظل يؤاخذني على ما جنيت بأن سمح لي أن ألج في غلواء حبي، فأنا بذلك أحمل وزر أيمانك ووزر عاطفتي التي سبقت

هذه الأيمان؛ ومن أجل هذا سوف يدوم عذابي ما دامت فيَّ الحياة.

وإذا كان الله قد تجلى إليك، فتحدث إلى قلبك كما يتحدث إلى القديسين الأبرار الذين يطلبون إليه الغفران، فإن ذلك يريح بالي ويسرى همي. أما أن نرى نفسينا ضحيتي حبٍّ آثم، وأن ننتهك بهذا الحب حرمة ثيابنا الدينية، ونفسد به إخلاصنا لله، فإن ذلك مما ترتعد فرائصى منه فرقًا، ويستطير له بي روعًا. فهل ترين أن هذا استهجان لحالنا، أو أنه عاقبة الإيغال الطويل في الحب الدنس؟

وليس في وسعنا أن نقول إن الحب سم قاتل وخمر مسكر إلا بعد أن تستنير بصائرنا بنور الله القدسي. فإلى أن يحين ذلك الوقت يكفينا أن نقر أن الشر كل الشر كامن في الاسترسال فيه. فإذا كنا لا نزال نلج في هذا الخطأ فإن أول خطوةٍ نصلح بها أحوالنا هي أن ندرك ما نحن فيه من بؤسٍ وشقاء. وهل منا من لا يعرف أن الله ﷻ إنما يرحم الإنسان لضعفه لا لأنه خليق بهذه الرحمة؟ فإذا ما كشف لنا عن هذا الضعف وتألمت منه نفوسنا، أمدنا بعدئذٍ بعونه، ونفخ فينا من روحه. وعلينا الآن أن نقول راحةً لضمائرنا إن ما نحن فيه من عذابٍ ليس إلا من تلك الشدائد التي يبتلي الله بها الصالحين من عباده.

والله يتجلى للناس متى شاء ليخفف من بلواهم، وقد أراد لك الخير فدخلت الدير ليقربك من رحمته. ولقد شاهدت عينيك وأنت تودعيني الوداع الأخير لا تتحولان عن الصليب، ومضى على ذلك أكثر من ستة شهور قبل أن تكتبي إليَّ خطابًا، ولم تصلني طوال هذه المدة كلها كلمةً منك؛ وأعجبني هذا الصمت الذي لم أجرؤ على لومك عليه، ولكني لم أستطع محاكاته، فكتبت إليك ولم ترد عليَّ. لأنك أقفلت قلبك دوني فلما تفتح قلبك لزوجك خرج منه نور الله وتركك بمفردك. وكان تركه إياك امتحانًا لك، فتوسلي إليه مرً أخرى أن يعمر قلبك، فإنا لا نستطيع أن نحطم الأغلال التي تقيدنا إلا إذا استعنا عليها بالله. إن حبنا القديم مسيطر علينا لا نستطيع الخلاص منه وحدنا.

لقد تسربت حماقتنا إلى الأماكن المقدسة، ودنس حبنا البلاد كلها من أقصاها إلى

أقصاها، وأخذ الناس كلهم يقرءون أخبارنا ويعجبون بها، وكان الحب الذي بعثها هو الذي جعل الناس يصفونها ويتحدثون بها، وأصبحت حالنا عزاء الشباب عما يرتكبونه من ذنوبٍ ويخفف بها من يخطئون من بعدنا أوزارهم. إننا آثمان أبطأنا في التوبة، فلتكن إذن توبتنا صادقة، ولنكفر بأكثر ما نستطيع عما جنيناه، ولنجعل فرنسا كلها التي شهدت جرائمنا تدهش لتوبتنا. ولنستنزل غضب الله على كل من يرتكب جريمتنا، ولنكن في جانب الله على أنفسنا فنتقي بذاك غضبه علينا.

وليس ثمة ما يكفِّر عن زلتنا الماضية إلا الدموع والخجل والحزن، فلنقدم هذه الضحايا من قلوبنا، ولنخجل، ولنبك، وإذا لم تكن قلوبنا كلها لك يا رب من تلك البداية الضئيلة فلنشعرها على الأقل بأنها يجب أن تكون لك.

ولتتطهرى يا هلواز من كل ما بقي فيك من العاطفة الآثمة التي تأصلت في قلبك، ولتذكرى أن أقل تفكيرٍ في غير الله فسق وضلال. ولو أنك رأيتني هنا، وأبصرت وجهي الشاحب ومنظري الحزين، ومن حولي الرهبان لا ينفكون عن اضطهادى، وقد روعهم ما اتصفت به من العلم، وأزعجهم جسمي النحيل، كأني قد جئت إليهم لأردهم عن دينهم، لو رأيتني على هذه الحال فماذا كنت تقولين عن أناني الحقيرة، وعن تلك الدموع التي لا طائل منها، والتي أخدع بها هؤلاء الرجال السذج؟ ويل لي إني لا أذل نفسي لله بل أذلها للحب، فارحميني ونجي نفسك، وإذا كانت رهبانيتك من عملي كما تقولين فلا تحرميني بقلقك الدائم مما لي من فضلٍ في هذا العمل.

وقولي إنك ستصونين كرامة هذا اللباس الذي يغطي جسمك بالتخلي عما يشغلك من شئون هذا العالم، وأشعرى قلبك خشية الله لكي تتغلب على ضعفك، وأحبيه لكي يرشدك إلى طريق الفضيلة، ولا تكوني في الدير قلقةً مضطربةً لأن الدير مأمن القديسين، وتقبلي قيودك هادئةً صابرةً فسوف يعينك الله عليها إذا رضيت بها في خشوعٍ وذلة.

ولا تسترسلي في عاطفتك التي لا تزال تملأ قلبك، بل اتخذي من بؤسك عونًا على إنقاذ الضعيفات من أخواتك، وأشفق عليهن حين تفكرين في خطاياك، وإذا ألحت

عليك أفكار هذه الدنيا ففري إلى المحراب، واستغفري الله، واطلبي إليه الرحمة، واعلمي أن جراحك لم تلتئم بعد فتضرعي إلى الله أن يداويها، ولا تكوني، وأنت على رأس جماعةٍ دينية، أمة إلا الله وحده، وابدئي بحكم نفسك وقد أصبحت حاكمة على من كنَّ صاحبات التيجان، واذكري أننا ونحن أمام المذبح قد نقدم القربان للأرواح الخبيثة، وأن لا شيء يسرُّ هذه الأرواح ويطربها أكثر من العاطفة الأرضية التي لا تزال نارها تتقد في قلوب راهبات الدير. وإذا كنت وأنت مقيمة في عالم الناس قد تعودت روحك الحب، فليكن حبها الآن خالصا لله وحده، واندمي على كل ما ضيعت من حياتك في هذا العالم وفي مسراته، وطالبيني أنا بهذه الأيام التي أضعتها في هذا العبث، فأنا الذي انتهبتها، منك، وليكن لك من الشجاعة ما تنحى عليَّ باللائمة من أجلها.

لست أنكر أنني كنت محطمك، ولكني لم أعلمك إلا الخطايا؛ وتقولين إني أبوك ولكني قبل أن أكون جديرًا بهذا اللقب قد قتلت ابنتي، وإني أخوك ولكن صلة الخطيئة هي التي تخلع على هذا الوصف؛ ويقولون إني زوجك، ولكني لم أكن زوجًا إلا بعد أن افتضح أمري أمام الناس.

وإذا كنت قد دنست كثيرًا من الألفاظ التي طويت عليها خطابك لكي ترفعي بها من شأني وتعظمي من عاطفتك فلا تُبقِي على شيءٍ منها، وضعي في مكانها ألفاظ القاتل والنذل والعدو الذي استمر على تلويث شرفك وإقلاق راحتك وتدنيس طهرك؛ ولولا رحمة لم تكن منتظرة أسقطتني في منتصف طريقي لكي تنجيك من البلاء المحقق لهلكتِ بسببي.

هذا ما يجب أن تذكريه عن ذلك الآبق الذي يريد أن يقضي على كل أملٍ لك في رؤيته. ولكن ليس أصعب على الإنسان من أن يعتزم الخلاص من الحب إذا كان صادقًا مخلصًا فيه. ذلك أن الخلاص من العالم أسهل ألف مرةٍ من الخلاص من الحب في مثل هذه الأحوال. إني أمقت هذا العالم الخادع الغادر ولا أفكر فيه الآن مطلقًا، ولكن قلبي المضطرب لا يزال يبحث عنك على الدوام، ولا يزال الألم يحز فيه لفقدك رغم ما لعقلي على هذا القلب من سلطان. ولتسمحي لي بألا أعرض نفسي عليك إلا في هذه الصورة

الأخيرة، وإن كنت أرى أن من الجبن حقًّا أن أرجع عما قرأته لي قبل ذلك في هذه الرسالة.

واذكري أن آخر ما بذلت من جهودٍ في شئون هذه الدنيا كان كله موجهًا إلى غوايتك، وأنك هلكت على يدي وهلكت أنا معك، وابتلعتنا الأمواج سويًّا، وترقبنا الموت بلا وجل؛ ولو متنا وقتئذ لكان جزاؤنا في الآخرة واحدًا، ولكن الله أنجانا من هذه العاقبة وألقت مصائبنا بكلٍّ منا في ملجأ أمين. إن من الناس من يكفر الله عنهم سيئاتهم بآلامهم، فلتكن نجاتي من ثمار صلواتك، ودينًا أدين به لعبراتك وقداستك. إن قلبي يا إلهي لا يزال يفيض بحب إنسانٍ من خلقك، ولكنك قادر إذا شئت أن تطهره من كل حبٍّ غير حبك.

ولن يكون حبي لهلواز حبًّا صادقًا إلا إذا تركتها في هذا الهدوء الشامل الذي لا تناله إلا عن طريق العزلة والفضيلة؛ لقد عقدت على ذلك عزمي وسيكون هذا الخطاب آخر ذنوبي. أستودعك الله.

وإذا مت في هذا المكان فسآمر أن تنقل رفاتي إلى بيت بركليت[(١)]، وستشاهدينني بعينك جثةً هامدة؛ ولست أقصد بذلك أن تبكي عليَّ فلن يفيدني البكاء وقتئذ، بل ابكي عليَّ الآن وأطفئي بدموعك النار المتأججة في قلبي.

سترينني ليهولك منظر رفاتي فيزيدك صلاحًا وتقى، وليكن موتي عظة بالغة لك تعرفين منه ما تلقينه إذا أحببت الرجال؛ وأرجو إذا جاء أجلك ألا تضني عليَّ بأن تدفني بقربي.

لا حاجة لك بأن تخشى وقتئذ شيئًا على رفاتك، أما قبري فسينال بذلك شرفًا وفضلًا.

***

وأخذ أبلار وهلواز فما تبادلا من الرسائل بعد هاتين الرسالتين يعنيان بالأمور

(1)Paraclete

الفلسفية والدينية. وكتب أبلار يعتذر عن تأخره في الرد على رسالة هلواز، ويقول إن تأخره "لم يكن ناشئًا من نقصٍ في العناية برسالتها، بل كان سببه ثقته بعظمتها وعلمها وتقواها وإخلاصها، ويقينه بأنها في غير حاجةٍ إلى من يرشدها أو يواسيها...". وحوت رسائله الأخيرة عباراتٍ وفقراتٍ طويلةٍ اقتبسها من رسائلها الأولى وأشاد فيها "بحكمة الله ورحمته" ودعا لها كثيرًا.

وأجابته هلواز بأن طلبت إليه أن "يضع بعض القواعد لهداية الراهبات وإرشاد الناس إلى أسلوبٍ في الحياة خاص بالنساء وحدهن... لأن الآباء الذين جاءوا من قبله لم يفعلوا هذا". ثم تلت هذه الرسالة رسائل أخرى احتوت كثيرًا من الأسئلة وكثيرًا من الأجوبة في تفاصيل العقائد الدينية. وقد عني أبلار بالفعل بأن يجعل آخر خطابٍ له رسالة في الرهبنة والعفة والزهد والسكون.

ومات أبلار في السادسة والستين من عمره مضطهدًا معذبًا محرومًا من الأصدقاء. وأُسلمت جثته إلى هلواز لتدفنها؛ وبعد اثنتين وعشرين سنة من موته دفنت هلواز إلى جانبه، ولا يزالان حتى الآن يرقدان جنبًا إلى جنبٍ في مقبرة بير– لاشيز[1] في باريس، وقد كتب على قبر هذين العاشقين اللذين سارت بذكرهما الركبان العبارة الخالدة الآتية:

"هنا تحت حجرٍ واحدٍ يرقد مؤسس هذا الدير الأب أبلار، ورئيسته الأولى هلواز، وهما اللذان جمع بينهما الدرس والعبقرية والحب والزواج المشئوم والتوبة وما نرجوه لهما الآن من سعادة. مات بيتر في ٢١ إبريل من عام ١١٤٢ وماتت هلواز في ٧ مايو من عام ١١٦٤".

---

(1)Pére-Lachaise

دانتي الجيري يرفض العودة إلى موطنه في فلورنس بعد أن ظل منفيًا خمسة عشر عامًا

[رسالة إلى صديق]

قضى دانتي الجيرى حامل لواء الشعراء في العصور الوسطى العشرين سنة الأخيرة من حياته منفيًّا عن موطنه في فلورنس.

وقد أخذ دانتي من عام ١٢٩٥، ولما يتجاوز السنة الثلاثين من عمره، يضطلع بدورٍ جدي في سياسة المدينة، وكان جل أمانيه ومرمى سياسته أن تنضم المدن الإيطاليا الصغرى المستقلة، والإمارات المتفرقة، لتكون من أشتاتها دولةً رومانيةً مقدسة. وكان يحلم بوجود دولةٍ عالميةٍ تقتسم السيادة على العالم مع كنيسةٍ عالمية، وكان هو وأنصاره يطلبون أن يكون السلطان الأعلى في هذه الدولة المرجوة للإمبراطور الحاكم الزمني، على حين أن أنصار البابا كانوا يطلبون أن يكون هذا السلطان للبابا الحاكم الديني.

وكان من سوء حظ دانتي أن كان هو وأنصاره أضعف الطائفتين وأقلهما عددًا، فتغلب عليهم أنصار البابا، ونُفيَ الزعماء ومن بينهم دانتي نفسه من فلورنس، فأخذ يجول في البلاد يكرمه بعض حكامها لعبقريته، ويتعرض للخطر كلما حلَّ ببلدٍ بينه و بين فلورنس صداقة أو حلف. وكان على الدوام يرجو أن يعود إلى بلده الجميل، معززًا مكرمًا، وأوشك هذا الرجاء أن يتحقق في مرةٍ أو مرتين. ذلك أنه لما مات هنري السابع، زعيم الدعاة إلى الإمبراطورية العالمية، في عام ١٣١٣، فقدت الدعوة بموته أكبر نصيرٍ لها، ولاح أن المبادئ التي كان دانتي وأتباعه ينادون بها أصبحت غير ذات خطرٍ كبير. ومن أجل ذلك صدر عفو عام عن المنفيين من أنصارها بعد ثلاث سنين من موت هنري، وأخذ أصدقاء دانتي يلحون عليه في أن يستفيد من هذا العفو الشامل.

لكنه لم يكن عفوًا بالمعنى الصحيح. ذلك أن الشروط التي تضمنها كانت شروطًا

مذلةً لمن كان مثل دانتي أبيًّا عزيز النفس. فقد اشترط لعودته أن يدفع مبلغًا كبيرًا من المال، وأن يضع على رأسه قلنسوة من الورق، وأن يسير بهذا الزي في موكبٍ يطوف بالمدينة ليعلن فيها توبته.

ولم يكن دانتي يطيق أن تُمَس كرامته على هذا النحو أو غيره، فبعث بالرسالة التالية إلى صديقٍ له غير معروفٍ كان هو الذي دعاه إلى قبول هذه الشروط.

-١٨-

"أليس في وسعي حيث حللت أن أنظر إلى وجه الشمس والنجوم؟"

[١٣١٦]

تلقيت رسالتك التي حلت مني مكان الحب والإجلال، ودرستها بعناية، فتبين لي أن عودتي إلى فلورنس كانت شغلك الشاغل وموضع تفكيرك. وأنا شاكر لك هذه العناية، ويزيد من شكري لك علي بأن من يُنفَى من بلده قلما يجد لنفسه صديقًا. وجوابي على رسالتك هو أن أرجو منك وألح في الرجاء أن تقرأ هذا الرد بروية وإمعانٍ قبل أن تصدر حكمك عليه، وإن لم تجد فيه ما يرغب فيه بعض الجبناء منخوبي القلوب.

لقد تبين لي من خطاب ابن أخي وأخيك، ومن رسائل بعض الأصدقاء الآخرين، أن المرسوم الذي أذيع أخيرًا في فلورنس خاصًّا بالعفو عن المنفيين يجيز العفو عني وعودتي في الحال إلى وطني على شريطة أن أؤدي مبلغًا من المال وأن أتقبل الإهانة المزرية بالشرف، وهما– يا أبي– شرطان فيهما من السخف بقدر ما فيهما من سوء النصيحة، أقصد سوء النصيحة من جانب من بعثوا إليَّ بهما لأن رسالتك أنت قد كُتِبَت بحذرٍ وحكمةٍ فلم ترد فيها إشارة إلى هذين الشرطين.

هذه إذن هي الدعوة الجميلة التي وجهت إلى دانتي ألجيري[1] ليرجع إلى بلده بعد

(1)Dante Aleghieri

أن ذاق الأمرين في المنفى قرابة خمسة عشر عامًا. وهذا هو جزاء الإخلاص الذي عرفه القاصي والداني، والكدح الدائم والدرس الطويل! حرام على دارس الفلسفة أن يفعل هذه الفعلة الذميمة التي تنكس الأبصار وتجلل صاحبها العار، فيرضى لنفسه أن يعرض في الطرقات كالجرم المقيد بالأغلال، كما ارتضى ذلك كيولو(١) وغيره من التعساء الأوغاد. حرام على الخطيب الذي يدعو إلى العدالة، بعد أن نزل به الظلم والعدوان، أن يدفع شيئًا من ماله إلى من اعتدوا عليه وظلموه، كأنهم قد أحسنوا إليه فيجزيهم إحسانًا بإحسان.

لا يا أبي! لن أعود إلى بلدي من هذا الطريق، فإذا كان ثمة طريقٍ آخر، وجدته أنت نفسك، ثم وجده بعد ذلك غيرك، لا يثلم شرف دانتي ولا يشين سمعته، فإني لا أتردد في أن أسلكه ثابت الخطا. أما إذا لم يكن لفلورنس مثل هذا الطريق، فإني لن أدخل فلورنس أبدًا. ويلكم! أليس في وسعي أينما حللت أن أنظر إلى وجه الشمس والنجوم؟ أليس في وسعي أن أفكر تحت أي سماءٍ في أعظم الحقائق وأجلها قدرةً دون أن أعود قبل ذلك التفكير إلى فلورنس ذليلًا مهينًا محقرًا في أعين مواطني؟ وهل أُعدم القوت في أي مكانٍ ما حييت؟

***

ولم يأت من فلورنس رد على العبارات البليغة التي احتوتها الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة. ولما كان دانتي قد رفض العودة بالشروط التي فُرضت عليه، فقد ظلَّ أمر النفي قائمًا حتى ألغاه لورنزو العظيم(٢) بعد موته بمائتي عام تقريبًا. ومن أجل هذا لم يتم دانتي قصيدته الخالدة "الملهاة الإلهية"(٣) في فلورنس بل أتمها في رافنا(٤)، فلقد بدأ هذه

(1)Ciolo

(2)Lorenzo the Magnificent

(3)The Divine Comedy

انظر وصف هذه الملهاة وما بينها وبين الفردوس المفقود لملتن من أوجه الشبه في مقال مكولي عن ملتن أو في ترجمتنا العربية له.

(4)Ravenna

القصيدة بعد أن مات هنري السابع، وبعد أن فقد هو آماله السياسية. ولعل جو فلورنس كان أجدر الأجواء بأن يوحي إلى دانتي ختام وصف الجنة في ملهاته. ولكن ذلك لم يكن.

ومات دانتي في السنة الخامسة والستين من عمره معذبًا في "جحيم" دنيوي لا يقل هولًا عن الجحيم الذي وصفه في الملهاة.

بترارك[1] يصعد إلى قمة جبل فنتو[2] ويفكر في عظمة الروح الإنسانية

[رسالة إلى دينيسو ربرئي[3]]

وصف بعضهم دانتي بأنه "كوكب صباح النهضة"، ولكن هذا الوصف أكثر انطباقًا على بترارك منه على دانتي. ذلك أن دانتي كان خير من عبَّر عن روح العصور الوسطى.

وكان بترارك وقت أن مات دانتي في رافنا طالبًا في منبلييه في السابعة عشرة من عمره، يعجب أشد الإعجاب بشيشرون وفرجل[4]، ويدرك أنه هو نفسه أداة انتقال في عصرٍ من عصور الانتقال. ويدل كل عملٍ من أعماله على ثنائية طبعه، ويظهر ذلك حتى في حياته الخاصة. فقد كان يتردد بين العزلة الطويلة والتجوال من غير قصد، يحب أن يستمتع بمزايا الوحدة ويولع بالمجتمعات الراقية في أفنيون[5] وروما وميلان. ويصف رينان بترارك بأنه "أول رجال العصر الحديث"، وليس الذي يميزه من غيره أنه كان مغرمًا بآداب روما القديمة إلى حد الجنون، فإن له في هذا الحب شركاء كثيرين، ولكن الذي يميزه أنه ينظر إلى هذه الآداب بعين الناقد الذي يحاول أن يدرك ما كان لها من أثرٍ في حياة رجال القرن الرابع عشر، فكان بذلك ممثلًا لروح عصر النهضة أصدق تمثيل. هذا إلى أن بترارك لم يقنع بدراسة اللغة والآداب اللاتينية، بل كان مغرمًا بالآداب اليونانية يدرسها عن طريق تراجمها اللاتينية. وقد اشترى مخطوطات هوميروس وأفلاطون، ولكنه لم يقرأها لأنه لم يجد من يعلمه قراءتها. وكان فوق هذا كله باحثًا منقبًا عن آثار

---

(1)Petrarch

(2)Mount Ventoux

(3)Dioniso Robeti

(4)Virgil

(5)Avignon

الأقدمين، معجبًا بها أشد الإعجاب.

وفي السادس والعشرين من شهر إبريل عام ١٣٣٦، صعد بترارك هو وأخوه جراردو[١] جبل فنتو وهو قمة بالقرب من أفنيون يبلغ ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم. ولم يكن قصده من تسلقها إلا المتعة والرغبة في المعرفة. وكان الناس في العصور الوسطى يتسلقون الجبال في انتقالهم من مكانٍ إلى مكان، ولكنها كانت تروق لهم "ما داموا ينظرون إليها من بعيد"، على حد قول رسكن[٢]. ومن أجل هذا نرى أن وصف بترارك لصعوده فوق الجبل يعد من بعض الوجوه انقلابًا في التفكير في ذلك العصر.

-١٩-

"... ورأيت السحب تحت قدمي"

[في ٢٦ أبريل سنة ١٣٣٦]

لقد صعدت اليوم أعلى جبلٍ في هذا الإقليم، وهم يسمونه بحق جبل فنتو (الريح) وكان يدفعني إلى تسلق هذا الطود الشامخ مجرد الرغبة في هذا الصعود. وكانت الرحلة تشغل بالي من عدة سنين؛ فقد كنت من عهد الطفولة أتردد على هذا المكان، تدفعني إلى ذلك الأقدار التي لها في شئون البشر نصيب كبير. هذا إلى أن منظر الجبل من المناظر التي لا تكاد تفارق العين في هذا المكان. وأخيرًا دفعني دافع قوي إلى القيام بالعمل الذي طالما فكرت فيه، وزادني شوقًا إليه أني وأنا أعيد قراءة كتاب ليفي[٣] في تاريخ الرومان وصلت بالأمس إلى الفقرة التي يصف فيها هذا المؤرخ صعود فليب ملك مقدونيا الذي حارب روما جبل هيمس[٤] في تساليا[٥]، وهو الجبل الذي يُرَى من قمته

(1)Gherardo
(2)Ruskin
(3)Livy
(4)Haernus
(5)Thessaly

البحران الأدرياوي والأسود –كما يقولون– ولست أعرف هل صحيح هذا أو غير صحيح، لأن هذا الجبل يبعد عن ديارنا، ولأن الكتّاب يختلفون فيما بينهم في هذه المسألة.

وحسبي أن أذكر أن المؤرخ يميونيس ميلا(١) لا يتردد قط في إثبات هذا القول، على حين أن ليفي يكذبه. وإذا استطعت أن أرتاد هذا الجبل القريب فلن تبقى هذه المسألة موضعًا للشك والجدل زمنًا طويلًا.

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى موضوعنا فنقول إني ظننت أن ما لا يلام ملك مسن على فعله لا يلام عليه أيضًا شاب يفعله في حياته الخاصة.

لكن من العجب أني حين فكرت في الرفيق لم أجد من بين أصدقائي من يصلح كل الصلاح لهذا الغرض. ذلك أن الإنسان قلما يجد حتى بين أحب الناس إليه من يتفقون معه كل الاتفاق في تفكيره وعاداته؛ فمنهم من رأيته متوجسًا قلقًا، ومنهم من كان خاملًا كسولًا، هذا مسرف في البطء وذاك مفرط في السرعة، وخامس شديد الاكتئاب وسادس كثير المرح – وقصارى القول– أن بعضهم كان أكثر حمقًا والبعض الآخر أشد حذرًا مما كنت أريد. وكان صمت هذا وقحة ذاك، ولحم هذا وشحمه وهزال ذاك وضعفه، ما عاقني عن المضي فيما اعتزمت. ورفضت بعض من تقدم إليَّ لنقصٍ في تشوفه، ورفضت البعض الآخر لاهتمامه فوق ما ينبغي بشئون نفسه، وتلك كلها عيوب قد يطيقها الإنسان في بلده مهما يكن لها من خطرٍ لأن المحب يتغاضى فيه عن عيوب حبيبه، ولأن الصديق يتحمل فيه جميع أعباء صديقه. أما في الرحلات فإنها تصبح جد خطيرة، ومن أجل هذا لم أر على نفسى حرجًا في أن أُرضي ما في طبعي من غريزة التريث والتشدد، فتلفت من حولي، ووزنت كل ما في أخلاق الناس من فضائل ومعايب، واستبعدت في غير جلبة، ومن غير أن أفقد صداقة أحد، كل ما ظننت أنه قد يسبب لي شيئًا من المتاعب في رحلتي المنتظرة، وأخيرًا –ولعلك حزرت ما سأقول–

---

(1)Pomponius Mela

وجهت وجهي نحو أسرتي أستعينها على مقصدى، وعرضت الأمر على أخي الذي لا أخ لي غيره، وهو أصغر منى سنًّا، وأنت تعرفه حق المعرفة. وسره كل السرور أن يجيبني إلى رغبتي، واغتبط إذ وقع اختياري عليه ليضطلع في هذا العمل بدور الصديق ودور الأخ معًا.

وخرجنا من منزلنا في اليوم المعين، ووصلنا في مطلع الفجر إلى ملوسين[1] عند سفح الجبل من الناحية الشمالية، وأقمنا هناك يومًا ثم اصطحب كلٌّ منا خادمًا وتسلقنا قمة الجبل في هذا اليوم الذي أكتب لك فيه، ولقينا في ذلك عناءً كبيرًا. والقمة كتلة ضخمة من الصخر الأصم، وعرة المنحدر صعبة المنال، ولكن الجد كفيل بالتغلب على الصعاب مهما استعصت. وكان النهار طويلًا والجو جميلًا؛ وكنا جميعا نمتاز بقوة العقل ونشاط الجسم، ولم يكن أمامنا من العوائق إلا صعوبة المرتقى وانعدام المسالك. والتقينا عند طيات الجبل السفلي براعٍ طاعنٍ في السن، استنفذ ما في وسعه لكي يثنينا عن عزمنا، وقال إنه من خمسين سنة دفعته حماسة الشباب كما دفعتنا نحن إلى تسلق الجبل حتى بلغ القمة، ولكنه لم يجن من وراء ذلك إلا التعب والندم، وإلا كدمات جسمه وتمزق ثيابه من كثرة ما اشتبكت بالصخور والأشواك. وقال إنه لم يسمع لا قبل ذلك الوقت ولا بعده أن إنسانا أقبل على ما نحن مقبلون عليه.

وبينما هو يضج ويصخب كانت رغبتنا تشتد كلما حاول أن يثنينا عن مقصدنا، ذلك أن من عادة الشبان ألا يستمعوا لمثل هذا التحذير. ولما رأى الشيخ أن جهوده كلها قد ذهبت أدراج الرياح، سار معنًا قليلًا، ثم أرشدنا إلى طريقٍ مُغورٍ بين الشعاب، وأسدى إلينا بعض النصح، ولم ينقطع عن نصحه وإرشاده حتى بعد أن افترقنا. وقبل أن نفترق تركنا معه ما كان يعوق حركتنا من الثياب والأدوات التي لم تكن لنا بها حاجة ماسة، وأخذنا نجاهد في تسنم الجبل في حماسةٍ شديدة، ولكن هذه الجهود الجبارة ما لبثت أن أعقبها تعب شديد كما هي العادة، فلنبدأ من الجلوس في مكانٍ قريب

---

(1)Malaucene

لنستريح ونجدد نشاطنا.

ثم واصلنا السير على مهل، فسرت أنا في الطريق الجبلي متباطئًا، أما أخي فاتخذ إلى القمة طريقًا أقصر من طريقي إذ تسلق منحدرات القلة نفسها، ولم يتخذ الطريق المائل الذي اتخذته أنا لما كنت أشعر به من الضعف. ولما ناداني وأشار إلى الطريق المستقيم، أجبته بأني أرجو أن أعثر على مسلكٍ خير منه في الناحية الأخرى، وإني لا أخشى السير في طريقٍ أطول إذا كان الصعود فيه أسهل. ولم يكن هذا في الحقيقة إلا حجة تذرعت بها للتباطؤ. واستبقني الصحاب إلى ذروة الجبل، وبقيت أنا أجول في أنحائه أبحث فيه عن طريقٍ سهلٍ فلا أجده. وطالت الشقة وزاد طولها تعبي الذي لم أجن من ورائه نفعًا.

ولما خارت قواي ومللت هذا التجوال الذي لا هدف له، شرعت أتسلق القلة التي أمامي مباشرةً؛ ولما التقيت بأخي وأنا مضطرب مكدود ألفيته ينتظرني، وقد عاد إليه نشاطه بعد راحةٍ طويلة، فسرنا بعض الوقت جنبًا إلى جنب. ولكنا بعد أن صعدنا هذه القلة، نسيت ما قاسيته من قبلٍ حين افترقنا، وانحدرت إلى أرضٍ منخفضةٍ وأخذت أجوس خلال الوديان متتبعًا طرقات الأودية السهلة حتى حاق بي الخطر مرةً أخرى. والحق أني كنت فيما أفعل إنما أحاول الفرار من الصعود في الجبل، ولكن الإنسان مهما أوتي من الذكاء لا يستطيع تغيير طبيعة الأشياء، وليس في مقدور الجسم المادي أن يتسنم المرتفعات بالانحدار إلى أسافلها.

ولكن هذا هو الذي حدث لي ثلاث مرات أو أربعة في بضع ساعات وسخر منه أخي وتألمت أنا منه.

وبعد أن خُدعت أو خدعت نفسي بهذه الطريقة أكثر من مرة جلست في مطمئن من الأرض. وهنا انتقلت أفكاري من الأمور المادية إلى الروحية فخاطبت نفسي قائلًا: "ثق أن ما قاسيته اليوم في تسنم القلل الشواهق تقاسيه أنت ويقاسيه كثيرون غيرك ممن يسعون وراء الحياة الصالحة. ولكن الناس لا يدركون هذا حق الإدراك لأن حركات

الجسم تحدث في خارجه، أما حركات الروح خافية عن الأعين. والحق أن الحياة الصالحة كما نسميها نحن تقوم على قلةٍ ساحقة، والطريق إليها ضيق تعترضه ربى كثيرة، ولابد للوصول إليها من أن يتنقل الإنسان من فضيلةٍ إلى فضيلةٍ كما يرقي الدرج العظيمة، حتى يبلغ القمة وهي غاية كل شيء والهدف الذي تحط عنده الرحال. والناس كلهم يرغبون في الوصول إلى هذه الغاية. ولكن الرغبة لا تكفى بل يجب أن يصحبها الاشتياق والحرص على بلوغ الغاية كما يقول أوقد[1]، وما من شكٍّ في أن لديك الاشتياق والحرص، إلا إذا كنت تخادع نفسك في هذا كما تخادعها في كثيرٍ من الأشياء. وما الذي يقف في سبيلك؟ لا شيء مطلقًا إلا الطريق السهل طريق الشهوات المنحطة الأرضية الذي يبدو لأول وهلةٍ أنه أسهل الطرق. على أنك بعد طول التجوال لا بد لك إما أن تتسنم الذروة مقتحمًا المتاعب بعد كثرة التسويف، فتصل إلى الحياة الصالحة، وإما أن تظل خاملًا مستلقيًا في وادي الخطايا والذنوب. وقد يدركك الموت وظلمات القبر، فتقضي ليلًا أبديًّا في عذابٍ مقيم".

ومن عجب أن هذا التفكير قد بعث القوة والنشاط في جسمي وعقلي، وأعانني على إنجاز ما كان باقيًا عليَّ، وأرجو أن يوفقني الله إلى إتمام ذلك العمل الروحي الذي تتلهف نفسي شوقًا إليه بالليل والنهار، كما أعانني على تذليل ما اعترض قدمي من العقبات في هذه الرحلة. ويخيل إليَّ أن العمل الذي تقوم به الروح الخالدة الرقيقة في لمح البصر، من غير أن تتحرك له حركة في الفضاء، أسهل بطبيعته من ذلك الذي يتحتم على الجسم الفاني الضعيف أن يقوم به على مهل، وهو يرزح تحت عبء أعضائه الثقال.

ولنعد بعد هذا إلى رحلتنا الجبلية فنقول إن أعلى قلل هذا الجبل هي القلة التي يطلق عليها الحطابون اسم "الابن الأصغر" ولست أدري لم يسمونها بهذا الاسم، ولعل ذلك من قبيل تسمية الأشياء بأضدادها، فهي في نظري أم القلل المجاورة لها كلها.

---

(1)Ovid

وتنتهي هذه القلة ببقعةٍ صغيرةٍ منبسطة، جلسنا عليها آخر الأمر لنستريح بعد ما لاقينا من عناء. وبعد أن استمعت يا أبي إلى ما يجيش في صدر المصعد في الجبال من متاعب، استمع أيضًا إلى ما سأحدثك عنه بعد، وأعني من وقتك ساعةً تقرأ فيها ما فعلته في يومٍ واحد من أيام حياتي. لقد أحسست بالنشاط يدب في جسمي بفعل الهواء النقي والمنظر الفسيح، فوقفت مشدوهًا ونظرت إلى الوراء، فرأيت السحب تحت قدمي. ويبدو لي الآن أن القصص التي تروى عن جبل آثوس وألمبيس[١] غير مبالغ فيها كثيرًا، لأني أشاهد من فوق هذا الجبل الذي لا يدانيهما في الشهرة كل ما قرأته وسمعته من قبل عن هذين الجبلين. ثم وليت وجهي شطر إيطاليا أحب البلاد إلى قلبي، فأبصرت بعيني جبال الألب يتوجها الثلج ويكتنفها الجليد، وهي الجبال التي اجتازها عدو الرومان المتوحش الممقوت[٢]، بعد أن شق له طريقًا في الثلوج بإذابتها بالخل (إذا صدقنا القصة المشهورة التي يرويها الناس عن هذه الحرب)، وبدت هذه الجبال قريبة مني وإن كانت في الواقع بعيدةً كل البعد عني. ولست أنكر أني حننت وقتئذ إلى إيطاليا وسمائها الصافية التي تصورتها وقتئذ في عقلي، وإن لم أرها بعيني. وتملكني شوق لم أقر على دفعه لرؤية بلدي وأصدقائي، ولكني لمت نفسي على هذا الضعف الذي لا يليق بالرجال وإن كنت أستطيع أن أجد هذا الشعور ما يبرره من أقوال كبار الكتَّاب. ثم لاحت لي فكرة جديدة نقلتني في التو من المناظر الحاضرة إلى الأزمان الغابرة، فقلت في نفسي: "إن هذا اليوم هو ختام السنة العاشرة التي مرت عليك مذ غادرت مدينة بولونيا[٣]، وتركت عهد الصبا والدرس، (رباه! أنت الحي القيوم السرمدى ما أجل حكمتك!) وما أعظم ما حدث في أخلاقك من تغييرٍ وتبديلٍ في هذه السنين العشر".

سأغفل في هذه الرسالة أشياءً لا حصر لها لأني لم أصل بعد إلى الميناء، حيث أستطيع أن أذكر وأنا هادئ آمن ما مر بي في رحلتي من أعاصير ولعل الأيام تتيح لي فرصةً

---

(1)Olympus, Athos

(٢) يريد هانيبال

(3)Balogna

أذكر فيها أحداث هذه الرحلة كلها مرتبةً حسب أزمانها، فأقول كما قال أوغسطين: "أحب أن أذكر أقداري الماضية وما اعترى روحى من فساد جثماني، وليس ذلك حبًّا في ذكرها بل طمعًا في أن أحبك يا إلهي!".

إن أمامي كفاحًا شاقًّا غير مأمون العواقب! ولست أحب الآن ما كنت أحبه من قبل– لا، إني لا أقول الحق– إني أحب ولكني أكثر مما كنت ندمًا على هذا الحب، وإن يكن أكثر من حب الماضي اعتدالًا واحتباسًا في النفس.

وهأنذا قد نطقت الآن بالحق. إني أحب ما لا أود أن أحبه، وما أشتاق إلى كرهه! إني أحب مكرهًا مرغمًا، وذلك الحب هو منبع أحزاني وآلامي، ويصدق على قول القائل "لو استطعت لأبغضت، أما وأنا لا أستطيع فإني أحب مكرهًا".

ولم تنقض بعد السنة الثالثة على ذلك الوقت الذي قام فيها عدو يناوئ تلك الشهوة الجامحة الخبيثة التي كانت تتملكني وقتئذ وتسيطر وحدها على قلبي، ولا يزال الكفاح الشديد قائمًا بين هذين العدوين في ميدان أفكاري، ولا تزال عاقبة الكفاح في ذمة المستقبل.

وهكذا استعدت في ذاكرتي أحداث تلك السنين العشر، ثم انتقلت إلى المستقبل وسألت نفسي: "إذا قدر لك أن تطول بك هذه الحياة الفانية عشر سنين أخرى يقربك الله فيها من الفضيلة بقدر ما أبعدك في السنتين الأخيرتين عن ضلالك القديم على أثر ما قام من النزاع بين إرادتك القديمة والحديثة، ألا يكون في وسعك أن تستقبل الموت في سن الأربعين، وأنت على ثقةٍ من نفسك أو على الأقل وأنت راج عفو ربك، وأن تنتظر في هدوء أيام الحياة المقبلة التي تدنيك من الشيخوخة؟".

كانت هذه الأفكار وأمثالها يا أبت تتعاقب عليَّ، ولقد ابتهجت لصلاح حالي، وحزنت لتقصيري، وأسفت على ما في أخلاق الناس من ضعف، وغرقت في بحار الفكر، نسيت أين أنا، وكيف يراني غيري، وما كنت أبغيه من مجيئي إلى ذلك المكان. ثم أخليت ذهني من متاعبي وكان أجدر بها ألا تشغلني في ذلك الوقت، ونظرت حولي

فأبصرت ما جئت لأبصره. وذكرت وقتئذ أن الوقت قد حان للعودة لأن الشمس أشرفت على المغيب واستطالت ظلال الجبل، فالتفت كمن استيقظ من النوم، ووليت وجهي نحو الغرب. ولم تكن جبال البرانس وهي الحد الفاصل بين فرنسا وأسبانيا تُرى من ذلك الموضع. وليس سبب ذلك –على ما أعلم– أن حاجزًا طبيعيًّا يمنع هذه الرؤية، بل سببه ضعف قدرة الإنسان على الإبصار. لكننا استطعنا أن نرى عن يميننا جبال ولاية ليون، وعن شمالنا خليج مرسيلية في جلاءٍ ووضوح، وإن كان بيننا وبينهما مسيرة عدة أيام. وبينما أنا معجب بهذا الشيء تارةً وذاك تارةً أخرى، فحينًا تقع عيني على شيءٍ من متاع الدنيا، وحينًا تسمو روحي إلى حيث كان جسمي من قبل، بدا لي أن أفتح كتاب "اعترافات أوغسطين[1]" وهو الذي أهديته أنت إليَّ تذكارًا لحبك، والذي لا أنساه مطلقًا، بل أحتفظ به أينما كنت اعترافا مني بفضل كاتبه ومهديه. وفتحت الكتاب الصغير الحجم الجليل القدر لأقرأ فيه أول ما تقع عيني عليه، لأن العين لا تقع فيه إلا على ما يوحي بالتقى والصلاح. فتحته مصادفةً عند الكتاب العاشر، وكان أخي واقفًا يترقب، وهو يظن أن سيستمع إلى أوغسطين يتحدث إليه بلساني. وأُشهد الله وأُشهد سامعي على أن هذه الألفاظ هي التي وقعت عيني عليها! "يخرج الناس من ديارهم ليمتعوا أبصارهم بمناظر الجبال الشامخة، والأمواج المتلاطمة ومجاري الأنهار الطويلة المتعرجة، مستعينين بوصلة البحر ومواقع النجوم، ويهملون أنفسهم".

وأقسم أن قد ذهلت، ورجوت أخي –وكان يتوق إلى أن أواصل القراءة– أن يكف عن مضايقتي؛ ثم طويت الكتاب وأنا ألوم نفسي أشد اللوم على أنني في هذه الساعة بعينها كنت أعجب بالأشياء الأرضية، وكان حقًّا عليَّ أن أعرف من زمنٍ طويل من كتب الكفار من الفلاسفة، إن لم أكن عرفت من غيرهم، أن لا شيء في العالم جدير بالإعجاب غير الروح، وهي في ذاتها عظيمة إلى حدٍّ لا يجعل لغيرها إلى العظمة سبيلًا. وقلت لنفسي حسبي ما رأيت من الجبل، وأخذت أنظر إلى خبيئة نفسي، وصمت فلم

(1) Augustine's Confessions

أنبس ببنت شفة حتى نزلت إلى الحضيض[١].

وقد حوت هذه الفقرة ما حملني على التفكير العميق، ولم أكن لأعتقد أني قد وقعت عليها مصادفةً، وذكرت أن شيئًا من هذا الاعتقاد قد خامر عقل أوغسطين نفسه إذ يحدثنا أنه كان يقرأ في سفر الرسل فوقعت عينه على العبارة الآتية: «"لا تحكموا شهوة الجسد... وأعمال الجسد الظاهرة... هى زنا، عهارة، نجاسة، دعارة... عداوة، خصام، غيرة، سخط، تخريب، شقاق... ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات". وحدث هذا بعينه من قبل ذلك لأنطونيوس (مار أنطونيوس المصري) حين سمع تلك الفترة من الإنجيل: "إن أردت أن تكون كاملًا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء". واعتقد أنطونيوس كما يقول أثناسيس[٢] كاتب سيرته أن هذا القول موجه إليه فصدع بالأمر لساعته.

وكما أن أنطونيوس لم يطلب شيئًا بعد ما سمع هذه العبارة، وكما أن أوغسطين لم يذهب بعد أن قرأ هذه الفقرة إلى أبعد مما ذهب إليه، كذلك حدث لي، فكانت تلك العبارة آخر ما قرأت. وأخذت أفكر في حقارة أغراض بني الإنسان الذين يتركون عمدًا نبل ما فيهم ويبحثون في خارجهم عما يستطيعون أن يجدوه في نفوسهم، ويصرفون وقتهم في أشياءٍ لا حصر لها، ويبددون جهودهم في المظاهر الفارغة. وأخذت أفكر وأنا مندهش ذاهل في عظمة الروح البشرية، وهي عظمة تلازمها إلا إذا خرجت عن طبيعتها الأولى واستبدلت بما وهبها الله من مجدٍ خزيًا وعارًا. وكثيرًا ما وقفت في ذلك اليوم وأنا عائد إلى بيتي ونظرت إلى قلة ذلك الجبل، فخلتها لا تزيد على قيراطٍ واحد إذا قيست إلى عظمة الأفكار البشرية، إلا إذا كانت هذه الأفكار قد انغمست في حمأة الأقذار الأرضية.

وقلت لنفسي أيضًا في كل خطوةٍ خطوتها: إذا كنا نكد ونكدح طائعين لنقرب

---

(١) الحضيض هو القرار من الأرض عند أصل الجبل.

(2)Athanasius

الجسم قليلًا من جنة الخلد فأي عذابٍ أو سجنٍ أو ألمٍ يحول بين الروح وبين التقرب إلى الله، والتسامي عن الكبرياء وعدم المبالاة بالموت؟ ولم أجد إلا القليل من الناس الذين لا يتنكبون عن هذا الطريق خوفًا من الصعاب أو التماسًا للراحة. وما أسعد من يسلكه إذا كان في الناس أحد يسلكه، أولئك هم الذين قيل فيهم بحق:

ما أسعد الرجل الذي   أخذ الدروس عن الطبيعة

لم يعن خوف الموت أو   قدر يهدد بالفـــــجيعة

كلا ولم يخش الجحيم

وما أحرانا بأن نجدَّ ونسعى، لا لنقف فوق الربى على ظهر الأرض، بل لنطأ بأقدامنا الشهوات التي تنبعث من الدوافع الأرضية!

وعدت إلى المنزل الصغير الذي بدأت منه رحلتي قبل مطلع الفجر، وأنا لا أحس وعورة الطريق، وكانت تجيش في نفسي هذه العواطف المنبعثة من العواصف الثائرة في قلبي، وكنا نهتدي في سيرنا بالبدر في كبد السماء، وبينما كان الخدم يعدون لنا العشاء انتحيت ناحيةً منعزلةً في الدار لأسجل فيها هذه الأفكار، فقد كنت أخشى إن أنا لم أسجلها في وقتها أن تفتر عزيمتي عن تسجيلها، بعد أن يتغير مزاجي بتغير مكاني... واعلم يا أبت العزيز أني لا أحب أن أخفي عنك شيئًا مما في نفسي، بل إني شديد الحرص على أن أكشف لك عن حياتي عامةً وعن أفكارى متفرقةً. وأرجو أن تتاح لهذه الأفكار التي ظلت أمدًا طويلًا حائرةً غير مستقرة، فرصة قريبة للاستقرار والثبات، وأن توجه كلها إلى طريق الخير الحق الخالد الذي لا يتزعزع، بعد أن وجهت زمنًا طويلًا وجهاتٍ متفرقة وإلى غير غايةٍ معروفة.

والسلام

***

ويأخذ بعضهم على بترارك أنه أفسد على نفسه جمال المنظر الذي رآه من قمة

جبل فنتو بتفكيره المقبض في الروح، ولكن أولئك النقاد ينسون أن يترارك من رجال العصور الوسطى، عصور التدين والتقشف، وأن تلمس مخايل الأمور من كتاب أوغسطين أقرب إلى طبيعته من تسنم الجبل طلبًا للمتعة واللذة؛ وهم ينسون أن كثيرًا من الشعراء في عصر الإحساس المرهف قد كانوا وهم فوق السحاب ينظرون إلى نفوسهم النظرة المكتئبة التي نظرها بترارك إلى نفسه؛ وهم ينسون أن بترارك كان وقتئذ غارقًا في حبٍّ آثمٍ سجله فيما بعد في كثيرٍ من الأغاني الجميلة؛ وهم ينسون أخيرًا أن بترارك كان يكتب إلى رجلٍ من رجال الدين هو الراهب ديونيسيو ربرتي، وأن ما ورد في هذه الرسالة من بحثٍ في الروح وطبيعتها هو النغمة التي تلائم رجال الدين، وخاصةً إذا كان الراهب نفسه هو الذي أوصى بترارك بقراءة اعترافات أوغسطين ليصلح بها من شأنه ويقوي بها روحه. وفضلًا عن هذا كله فإن كثيرين من القراء قد أثر في نفوسهم هذا التحول الفجائي، إذ يرون بترارك وقد ضاقت نفسه يلجأ إلى اعترافات أوغسطين فيفرج بها عن كربه. وما أجمل ما قاله في ذلك جون أدنجتن سيمندس:

"قلَّ أن تجد في تاريخ الأدب ما هو أعظم أثرًا في النفس من هذه الزمالة الروحية، حين يمسك بترارك بيد أوغسطين متخطيًّا بذلك تسعة قرونٍ كاملة، فترى آخر رجال العصر القديم وأول رجال العصر الحديث تمتزج نفساهما وتتلاقى عواطفهما".

جان دارك تأمر الإنجليز أن يستسلموا قبل موقعة أورليان

فتاة أمية في السابعة عشرة من عمرها تسير إلى شينون[1] في فرنسا وتغير بسيرها هذا مجرى تاريخ هذه البلاد. اشتهرت جان دارك في بلدتها دمريمي من أعمال اللورين ببراعتها في حلب البقر وحرث الأرض وخياطة الملابس، كما اشتهرت بالرؤى التي كانت تنظرها، و"الأصوات" التي كانت تسمعها من سنت كاترين وميكائيل ومرجرجت بل ومن جبريل نفسه. وجاءت جان إلى شارل ولي عهد فرنسا إطاعةً لهذه الأصوات تعرض عليه خطتها التي رسمتها لطرد الإنجليز من الأقاليم الواسعة التي كانوا يحتلونها وقتئذ في فرنسا، ولإخضاع البرغنديين أحلاف الإنجليز.

ترى أية فتاة كانت جان دارك؟ ذلك ما اختلف فيه الكتّاب. فأما فولتير فيراها بطلة وإن كانت لا تسلم من بعض العيوب الخلقية، وأما شلر فقد وصفها بأنها فتاة جميلة عنيفة ثائرة غريبة الأطوار، وأما أناتول فرانس فيصورها في صورة أداة طيعة في يد كنيسة العصور الوسطى وقواد جيش شارل. وتخيلها مارك توين عذراء طاهرة جميلة عفيفة شريفة. وجاء برنرد شو[2] بعد هؤلاء كلهم فجعلها أول امرأة عصرية. ولعل أقرب وصفٍ لأخلاقها أنها جمعت القليل من هذا كله، فكانت فتاة قوية الشكيمة، مجازفة واسعة الحيلة في القتال، مستمسكة بأهداب الدين. فأما أنها كانت جميلة غريبة الأطوار فذلك من نسج الخيال، وأما أنها طاهرة عفيفة فلم يشك في هذا أحد من معاصريها حتى قضاتها أنفسهم.

وإذا تصورنا ما كانت عليه فرنسا في أيام شارل السابع الخامل الضعيف الإرادة، لم نعجب من استجابة الفرنسيين لنداء هذه الفتاة الريفية القوية الشكيمة.. وسارت جان

---

(1)Chinon

(٢) انظر رواية شو "جان دارك" في سلسلة عيون الأدب الغربي للجنة التأليف.

يصحبها مشهورو الفرسان أمثال دونوا[1] وجيل ده ريه[2] لترفع الحصار عن أورليان، وكان رفعه عنها هدفها الأول. ولعلها لم تكن تعلم وقتئذ أنها بعملها هذا تبث في فرنسا روحًا قوميةً، ونزعةً وطنيةً لن تقف عند حد طرد الإنجليز من البلاد، بل ستدفع فرنسا إلى بسط سيادتها على أقاليم واسعة تمتد إلى جبال الألب.

واستفاضت الأخبار عن الجيش الصغير، تقوده فتاة غريبة، في ملابس بيضاء، تمتطي صهوة جواد أدهم، تمسك في يدها فأسًا، ولكنها تهزم الأبطال بدعائها وصلاتها. فاستسلمت لها القرى دون قتال، وقبل أن ترفع الحصار عن أورليان أملت الرسالة التالية، تطلب فيها إلى الإنجليز الذين كانوا يحاصرون المدينة أن يستسلموا لها. واتخذت هذه الرسالة فيما بعد دليلًا من الأدلة التي قدمت لقضاتها لإثبات زيغها وكفرها.

-٢٠-

"لقد بعث بي إلى هنا الله ملك السموات..."

المسيح ومريم

يا ملك الإنجليز! وأنت يا دوق بدفورد[3]، يا من تسمي نفسك نائب الملك في فرنسا، وأنت يا وليم ده لايول[4] ويا إرل سفلك[5] ويا جون تابلت[6] وأنت يا تومس[7] ويا لورد اسكيلز[8] يا من يسمون أنفسهم نوابًا عن بدفورد هذا.

---

(1)Dunois

(2)Gille de Rais

(3)Duke of Bedford

(4) William de la Pole

(5)Earl of Suffolk

(6)John Talbot

(7)Thomas

(8)Lord Scales

اخضعوا لملك السماء، وقدموا إلى الفتاة التي أرسلها الله مفاتيح المدن العامرة التي استوليتم عليها وانتهكتم حرمتها في بلاد فرنسا. لقد جاءت بأمر الله لتعيد الدم الملكي إلى البلاد، وهي على استعداد للصلحٍ إذا خضعتم واستسلمتم، على شريطة أن تغادروا فرنسا وتؤدوا ثمن ما اغتصبتم منها. وأنتم أيها الرماة والأسياد والجند على اختلاف درجاتكم، يا من تحاصرون أورليان، أستحلفكم بالله أن ترحلوا إلى بلادكم، فإذا أبيتم فعما قليل ترون الفتاة التي سيحل بكم على يديها الدمار.

أما أنت يا ملك إنجلترا فإذا لم تجب طلبي فاعلم أني زعيمة عسكرية، وأن رجالك أينما واجهتهم في أرض فرنسا سيفرون من أمامي أرادوا ذلك أو لم يريدوه، فإن عصوا أمري فسآمر بقتلهم. لقد أرسلني الله ملك السموات إلى هذا المكان لألقاهم وجهًا لوجه، وأخرجهم من أرض فرنسا، فإذا استسلموا فسأعفو عنهم، لا يخالجنك في هذا شك. ولن يهبك الله مَلِكُ السموات مُلْكَ فرنسا، بل سيكون هذا الملك لشارل وارثه الشرعي، لأن الله يريد هذا، وقد أوصى له به على لسان الفتاة، وسيدخل باريس في موكب عظيم.

فإذا لم تؤمن بهذه الأنباء التي أرسلها إليك الله والفتاة، فسنقضي عليكم أينما وجدناكم، وإذا لم تستسلموا فسنجعلكم عبرة لم تر فرنسا مثلها منذ ألف سنة. واعلم أن الله سيهب الفتاة قوةً تعجزون معها عن ملاقاتها هي وجنودها الأبطال.

وأما أنت يا دوق بدفورد فإن الفتاة ترجو منك وتطلب إليك ألا تسعى إلى حتفك بظلفك، فإذا لبيت نداءها استطعت أن تنضم إلى رجالها حيث ترى الفرنسيين يعملون للمسيحية أعمالًا لم تشهد مثلها من قبل. أجب من فورك هل تقبل الصلح في مدينة أورليان أو لا تقبله؟ فإن كانت الثانية فستذكر قولي هذا وأنت تعض بنان الندم.

***

وسخر الإنجليز من جان واتهموها بأنها ساحرة، ولكن سخريتهم لم تفدهم شيئًا، فقد هزمتهم بجيشها الصغير وبددت شملهم. وعلل دوق بدفورد هذه الهزيمة المنكرة

بقوله: "لقد كان سببها دون شكٍّ أن ولية الشيطان التي يسمونها الفتاة استعانت علينا بفنون السحر".

وبعد ثلاثة أشهر من ذلك الوقت أي في السابع عشر من شهر يوليو سنة **١٤٢٩** توجت جان شارل ولي العهد ملكًا على فرنسا في ريمز. ولكن حفلات التتويج أمكنت الإنجليز من أن يلموا شعثهم، ويحصنوا باريس، ويستقدموا المدد من بلادهم، ويعززوا مواقفهم. فلما سارت جان إليهم بعد ذلك كانت تسير إلى الهزيمة. وفي شهر مايو من عام **١٤٣٠** قبض عليها البرغنديون أحلاف الإنجليز في كمبني. وغدر بها شارل السابع بعد أن توجته ملكًا على فرنسا ولم يعد له حاجة بها، فلم يعمل شيئًا لخلاصها. وباعها البرغنديون للإنجليز بعشرة آلاف قطعة من الذهب. وأسلمها هؤلاء إلى أسقف بوفيه[١] واتهموها بأنها كافرة وساحرة.

وجيء بها أمام جماعةٍ من القضاة ورجال الدين يتراوح عددهم بين خمسين وستين، ووجهت إليها سبعون تهمة منها سماع الأصوات، ورؤية الأشباح، والتزين بزي الرجال، ووضع اسم المسيح ومريم على رسائلها، والطعن في دين الله. وحاكموها وثبتت عليها اثنتا عشرة تهمة أنكرتها جميعًا، غير أنها وجدت بعد بضعة أيام تلبس ملابس الرجال فيحكم عليها بالإعدام.

ووضع على رأسها صليب كبير من الورق كُتبت عليه هذه العبارة: "الكافرة التي عادت إلى المعصية، المرتدة، عابدة الأوثان"، وأحرقت حية في **٣٠** مايو سنة **١٤٣١**، وأخرجت جثتها المحترقة من اللهب بعد أن احترقت ملابسها، وعرضت على الناس ليتبينوا أنها امرأة حقًّا. ولما تم حرقها أُخذ رمادها وبُعثر في نهر السين حتى لا تعود روحها فتنفذ مرة أخرى إلى أرض فرنسا. ولكنهم قدروا فأخطأوا التقدير.

---

(1)Beauvais

صورة من أخلاق باباوات النهضة يصورها واحد منهم البابا بيس الثاني يقول لردريجوبرزجيا

إن الكردينال يجب أن يكون مبرأ من العيوب

كان بيس الثاني رجلًا عبقريًّا يجمع بين كثيرٍ من التناقضات، اشتهر قبل أن يرقى إلى منصب البابوية بعلمه وذكائه وفكاهته العذبة وبراعته السياسية. ألف رواية ومسرحية خالدتين، ولما انخرط في سلك رجال الدين في عام ١٤٤٦ فعل ذلك وهو يتطلع إلى ما يستطيع أن يرقَ إليه من مناصب في الكنيسة لا حبًّا في الحياة الدينية. ولم يبد منه في حياته الجديدة أي حرصٍ على إصلاح أمره والرجوع عن غوايته؛ وكان يميل تارةً إلى البابا وتارةً إلى الإمبراطور في النزاع القائم بينهما على سيادة العالم. وبهذه الوسيلة وأمثالها أصبح كردينالا أميرًا من أمراء الدولة الرومانية الشرقية ولا يمض عليه في مناصب الكنيسة الصغرى أكثر من عشر سنين.

وكان إينياس سلفيس[١] وردريجوبورجيا[٢] زميلين من عهد الصبا، وكان كلكستس الثالث عم ردريجو هو الذي رقى الاثنين إلى مرتبة الكردينالية. ولما مات كلكستس أخذ الرجلان يحيكان الدسائس ويأتمران حتى صار سلفيس بابا في الثانية والخمسين من عمره.

وكان إينياس سلفيس لا يعبأ كثيرًا بشئون الدين، ويتحلل من جميع أوامره ونواهيه. فلما جلس على كرسي البابوية تبدلت حاله فأصبح مسيحيًّا متزمتًا، لا يتسامح في صغيرةٍ ولا كبيرة. وقد كتب بعد سنتين من جلوسه على كرسي البابوية الرسالة التالية إلى صديقه وزميله في عبثه ردريجوبورجيا:

---

(١) Aeneas Sylvius اسم بيس الثاني قبل أن يرقى إلى كرسي البابوية.

(2)Rodrigo Borgia

-٢١-

"... إن الناس لا يتحدثون الآن... إلا عن غرورك...".

بتريولو[1] في ١١ يونيه سنة ١٤٦٠

ولدي العزيز

ترامى إلى أنك قد نسيت ما يفرضه عليك منصبك السامي، فبقيت من أربعة أيام في حدائق جون ده بيشي[2] من الساعة السابعة عشرة إلى الساعة الثانية والعشرين في صحبة عددٍ من نساء سينا[3]، وهن نساء بعن أنفسهن لآثام هذه الدنيا ومغرياتها. وكان رفيقك في هذا العبث زميلًا لك كان خليقًا بسنه، ناسيا كرامة منصبه، أن تذكره بواجباته. وقد سمعنا أنكما أوغلتما في الرقص فلم تتورعا فيه عن شيء، ولم ينقصكما في حفلكما شيء من مغريات الحب وغواياته، وأنكما سلكتما في ليلتكما مسلكًا دنيويًّا أبعد ما يكون عما يفرضه الدين. إن الحياء يمنعني أن أذكر ما حدث في تلك الليلة، فليس هو وحده ما لا يليق بكرامة منصبك، بل إن مجرد ذكر اسمه مما يزري بهذه الكرامة. ولقد أردت أن تطلق لفجورك وفسقك العنان، فلم تدع إلى الحفل أحدًا من أقارب النساء والفتيات اللاتي كن معك أو أزواجهن أو آبائهن أو إخوتهن. وكنت أنت وعدد قليل من الخدم زعماء هذه الفضائح والموحين بها.

وهم يقولون إن الناس لا يتحدثون في سينا إلا عنك وعن فسادك الذي أصبح موضع سخرية الناس كافة. والذي لا شك فيه أن اسمك تلوكه الألسنة كلها في هذه الحمامات حيث يكثر رجال الدين والدنيا.

وليس في مقدوري أن أعبر لك عن مبلغ غضبي من أفعالك، فإن سلوكك هذا قد

---

(1)Petriolo

(2)John de Bichis

(3)Siena

جلل بالعار منصبك وجلبب بالدنيئة دولتنا المقدسة. وسوف يقول الناس إنهم يعظموننا ويزيدون ثراءنا، ولكننا لا نستعين بهذا الثراء وهذه العظمة على أن نعيش عيشةً فاضلةً مبرأةً من العيوب، بل نتخذها وسيلةً لإشباع شهواتنا. ومن أجل هذا يزدرينا الأمراء وذوو السلطان، ويسخر منا رجال الدنيا. ومن أجله نرى الذين نلومهم على خطاياهم يجابهوننا بأساليب حياتنا. وإذا كان من يرتكب هذه الدنايا جديرًا بالاحتقار، فأجدر منه الرئيس الديني الذي يراها ويتغاضى عنها.

وأنت يا ولدي العزيز قد وكل إليك أمر أبرشية بلنسية أعظم أبرشيات أسبانيا، ثم إنك فوق هذا ذو منصبٍ سامٍ في الكنيسة، وإن وجودك بين الكرادلة مستشاري السدة الرسولية ليجعل سلوكك في أعين الناس أكثر إجرامًا وشناعةً. وفي وسعك أنت نفسك أن تحكم هل يليق بكرامتك أن تغازل الفتيات، وأن ترسل إلى من تحبهن الفاكهة والخمر، وأن تقضي اليوم كله لا تفكر إلا في شهواتك الجسمية؟ إن الناس يحقروننا بسببك، وقد سربلت بالعار تلك الذكري الطيبة ذكرى عمك كلكستس، وما أكثر من يقولون إنه أخطأ حين منحك ما منحك من ألقاب الشرف الكثيرة. وإذا حاولت أن تعتذر بشبابك عن سيء أعمالك فاعلم أنك لست من الصغر بحيث يخفى عنك ما يفرضه عليك منصبك.

إن الكردينال يجب أن يكون مبرأ من العيوب، ويجب أن يكون مثالًا يحتذى في الحياة الصالحة أمام أعين الناس جميعًا، فإذا فعلنا هذا كان لنا ما يبرر استياءنا حين يصفنا الأمراء الزمنيون بما لا يرضينا، وحين ينازعوننا أملاكنا، ويرغموننا على الخضوع لإرادتهم. والحق أننا بأفعالنا هذه نطوق أنفسنا العار، وأننا سبب ما نحن فيه من شقاء؛ فسلوكنا هو الذي ينقص كل يوم من سلطان الكنيسة، ويجر علينا التحقير والمهانة في هذه الدنيا والعذاب الذي نحن خليقون به في الآخرة.

فلعل حكمتك أن تردك عن طيشك، ولعلك لا تغفل قط عن كرامتك؛ فإذا فعلت فلن يلقبك أحد بالعابث المستهتر زير النساء. أما إذا لم تقلع عن غيك فستضطرنا بعملك إلى أن نعلن إلى الناس أنك تعصي أوامرنا وأنك تُمِر بفعالك عيشنا.

فإذا فعلنا ذلك فسيكون سبة باقية لك في الأعقاب.

لقد كنا على الدوام نحبك ونعتقد أنك أهل لحمايتنا، وأنك رجل جد وتواضع؛ فاسلك من الآن سبيلًا يحقق ظننا فيك، ويجعلك مثالًا للحياة الصالحة المتزنة. ولست أنت بالأصم الذي لا يستمع إلى داعي الإصلاح، ومن أجل هذا نحذرك تحذير الآباء.

***

ولم يفد هذا اللوم والتقريع الكردينال بورجيا في شيء، وظل سادرًا في غوايته، يحيا حياة شهوانية طليقة. وقد وصفه بعضهم في ذلك الوقت بأنه "وسيم الخلق، جميل الوجه، طلق المحيا، تخضع له النساء بنظرة واحدة، يجذبهن إليه جذب المغنطيس للحديد". ولما ارتقى عرش البابوية بعد ثلاثين سنة من ذلك باسم البابا إسكندر السادس لم يفقد وهو في سن الستين شيئًا من جمال منظره وفخامته، ولم يقلع عن عبثه وفجوره، بل لعل سلطانه الجديد قد هيأ له جميع أسباب الفسق والفجور حتى صار فيهما مضرب المثل فيهما.

أما بيس الثاني فلم يكن عجزه عن إصلاح الكنيسة ليقل عن عجزه عن إصلاح صديقه بورجيا؛ وتملكته في آخر أيامه فكرة الدعوة إلى حربٍ صليبية يشنها على الأتراك الذين استولوا على القسطنطينية في عام **١٤٥٣** ولكن أحدًا لم يستجب لندائه، مجمع شرذمةً قليلة العدد من الجنود المرتزقة، وهمَّ أن يسافر بهم لمحاربة الترك، ولكن المنية عاجلته فأنجته من الخيبة والمذلة.

كرستوف كولمب يصف شعوره حين وقعت عينه على أرض أمريكا

رسالته إلى جبريل سانشيه وزير مالية فردنند ملك أسبانيا

كتب كرستوف كولمب وصفًا مطولًا لرحلته العظيمة على رقٍّ متين، ولفها لفًّا محكمًا في قماش لا ينفذ فيه الماء، ثم وضعها في صندوق عليه إطار من حديد وألقى بها في أمواج المحيط الصاخبة.

وليس هذا الوصف بطبيعة الحال هو الذي تحتويه الرسالة التالية، بل إنها تحتوى وصفًا آخر لكشفه العظيم بعث به إلى جبريل سانشيه(١) وزير المالية في حكومة الملك فردنند. ويقول المسترلول(٢) مدير جامعة هارفرد بأمريكا: "لم يكن كولمب حين بدأ رحلته يعرف أين هو ذاهب، ولما وصل إلى نهايتها لم يكن يعرف أين وصل، ولما رجع لم يكن يعرف أين كان، ولكنه رغم هذا كله كشف أمريكا".

وتدل آخر الأبحاث عن شخصية كولمب أنه كان من يهود أسبانيا، وأن أسلافه لجأوا إلى جنوا فرارًا من محكمة التفتيش. وقد أرسلت جامعة هارفرد من وقتٍ قريب بعثة علمية سارت في الطريق الذي سار فيه كولمب، لتعرف هل كان كاشف أمريكا بحارًا بحق أو كان رجلًا من عامة الناس تملكته فكرة غريبة عن "وجود شيءٍ غير الحيوانات المهولة وراء أفق المحيط الأطلنطي".

وكانت البعثة مؤلفة من ثمانية من البحارة المدربين ورئيسهم في سفينتين، فسافرت من كادز(٣) في أسبانيا إلى جزائر مديرًا وكناري (الخالدات)، ثم إلى ترنداد(٤)، وسارت

---

(1)Gabril Sanchez

(2)Lowell

(3)Cadiz

(4)Trinidad

بعدئذ بإزاء أمريكا الوسطى. وقضت في ذلك أكثر من أربعة أشهر وهي توازن بين ما تشاهده، وبين ما كتبه كولمب في مذكراته اليومية وما كتبه ابنه. ولما أتمت عملها أعلن رئيسها الدكتور مرسن[١] أن كولمب "كان من كبار الملاحين، وأنه كان فضلًا عن ذلك رجلًا قوي الملاحظة ثاقب الرأي قوى الإحساس بالجمال".

ويرى بعض المؤرخين أن رجلًا من أهل جزيرة أيسلندا[٢] يدعى بجارني هرجلفسن[٣] كشف أمريكا في عام ٩٨٧م قبل أن يولد كولمب بأكثر من أربعمائة وخمسين عامًا. ولعل رجلًا آخر من أهل أيسلندا أيضًا قد وطئت قدماه أرض أمريكا في عام ١٠٠٠ ق.م. أما كولمب نفسه فلم ينزل بأرض أمريكا الشمالية أو الجنوبية، ومات ولم يعرف أنه كشف عالمًا جديدًا. وجدير بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن اسم كولمب الحقيقي لم يكن كولمب أو كولمبس بل كرستوبال كولون[٤].

ويصف كولمب في الرسالة التالية التي كتبها إلى الملك فردنند الجزائر التي كشفها "في البحر الهندي وراء الكنج" كما كان يعتقد هو. وفيها يجد القارئ وصفًا لأمريكا "كما خلقها الله"، بقلم شاهد عيان. وقد نشرت الرسالة باللغة الأسبانية في مدينة برشلونة في شهر إبريل من عام ١٤٩٣، وفيها أقدم المعلومات عن هذا الحادث الهام الذي افتتح عالمًا جديدًا.

وقد استغرقت رحلة كولمب نفسها مائتين وأربعة وعشرين يوما من ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ إلى ١٥ مارس سنة ١٤٩٣. في اليوم الأول أقلع من مدينة بالوس[٥] على شاطئ أسبانيا الجنوبي في السنة الواحدة والأربعين من عمره ومعه ثلاث سفن

---

(1)Dr Morison

(2)Iceland

(3)Bjarni Herjulfsson

(4)Christobal. Colon

(5)Paloo

صغيرة هي: سانتاماريا، وبنتا، ونينا[١]. وفي اليوم الأخير عاد إلى هذا الثغر نفسه بسفينةٍ واحدة. ولا يزال المؤرخون يقولون إن كولمب حين رسا على ساحل جزيرة وتلنج[٢] إحدى جزائر بهاما[٣] في اليوم الثاني عشر من أكتوبر عام **١٤٩٢** كان يعتقد أنه بالقرب من سينجو[٤] أي اليابان. ولكن سيرته التي كتبها سلفدور ده مدرياجو[٥] بعد درسٍ وتمحيصٍ دقيق، وهي آخر ما كتب عن سير هذا الرحالة، تدل على أنه حين غادر أسبانيا لم يكن يقصد إلا أن يقلع بسفنه ويسير غربًا حتى يعثر على شيء، سواء أكان هذا الشيء هو سينجو أم جزيرة من آلاف الجزائر التي كان يعتقد كما يعتقد غيره من معاصريه أن الغرب المجهول حافل بها". ومهما يكن من هذا الأمر فإن في الرسالة التالية وصفًا كتبه كولمب نفسه لما شاهده بعينيه بعد أن عاد إلى بلاده في اليوم الثاني عشر من أكتوبر عام **١٤٩٢**.

-٢٢-

"ذلك وصف موجز لما علمناه"

إني لأعلم بعد أن أفلحت فيها أردت القيام به أن عملي هذا سيسرك، ولذلك اعتزمت أن أقص قصته عليك حتى تكون على علمٍ بكل ما فعلنا وما كشفنا في رحلتنا.

في اليوم الثالث والثلاثين بعد سفرنا من قادز وصلت إلى بحر الهند فوجدت فيه جزائر كثيرة تسكنها خلائق لا يحصى عددها، فاستوليت عليها جميعًا لتكون ملكًا لملكنا السعيد، ورفعت عليها الأعلام، وأعلن ذلك المنادون، ولم يعترض أحد على هذا

(1)Nina, Pinta, Santa Maria

(2)Watling

(3)Bahamas

(4)Cipango

(5)Salvador de Madariago

العمل. وأطلقت على أولى هذه الجزائر اسم منقذنا الأمين[١] الذي أعانني على الوصول إليها وإلى غيرها من الجزائر، والهنود يسمونها جوانا هاني[٢]؛ وكذلك سميت كل جزيرةٍ أخرى باسمٍ جديد، فسميت واحدة سانتاماريا[٣] وسميت أخرى فرنندينا[٤] وأسميت ثالثة إزبلا[٥] ورابعة جوانا[٦]، وفعلت مثل هذا في سائر الجزائر.

ولم نكد نصل إلى تلك الجزيرة الأخيرة التي قلت توًّا أني أسميتها جوانا حتى سرت بجوار ساحلها نحو الغرب مسافةً ما فوجدتها كبيرة، ولم أر لها نهاية حتى ظننت أنها ليست جزيرة بل البلاد الواسعة المعروفة باسم كاثاي[٧]. على أني لم أر على سواحلها بلدانًا أو مدنًا كبيرة، بل شاهدت قرى ومزارع صغيرة لم أستطع التحدث مع أهلها لأنهم حين أبصروني ولوَّا الأدبار.

ثم واصلت السير لعلي أجد مدينةً أو دارًا كبيرة، ولما رأيت أنا قد سرنا طويلًا دون أن نظفر بشيءٍ منها، وأن طريقنا أخذ يتجه شمالًا، –وهو ما لم أكن أرغب فيه، لأننا في الشتاء ولأن وجهتي كانت نحو الجنوب– ولا وجدت فضلًا عن هذا أن الريح أخذت تعصف عصفًا شديدًا، أيقنت أن لا فائدة من مواصلة السير، فعدت إلى خليجٍ كنت شاهدته من قبل، وبعثت منه اثنين من رجالي إلى داخل الجزيرة ليعرفا هل فيها ملك أو مدن؟ وسار الرجلان ثلاثة أيام وشاهدا دورًا ومدنًا لا عديد لها، ولكنها كلها صغيرة وليست لها حكومة، فرجعا إليَّ....

---

(١) بالأسبانية San Salvador واختلف الناس في أمرها، ولكن الكثرة الغالبة من الجغرافيين تعتقد أنها جزيرة وتلتج.

(2)Guanahany

(3)Santa Maria

(4)Fernandina

(5)Isabella

وهذه الجزائر الخمس مختلف فيها.

(٦) أما جوانا Juana فهي جزيرة كوبا المعروفة.

(٧) الصين

وتحيط بالجزيرة كلها موان واسعة آمنة لا يفضلها قط ميناء من الموانئ التي شاهدتها طوال حياتي، وتجري فيها أنهار عظيمة طيبة المياه، وفيها كثير من الجبال الشاهقة، والجزائر كلها جميلة المنظر تمتاز بخصائص متباينة، فالوصول إليها يسير، وأشجارها كثيرة مختلفة الأنواع، عالية تناطح السحاب، ولا أظن أنها تتعرى من أوراقها في فصلٍ من فصول العام، لأني وجدتها خضراء مورقة كأشجار أسبانيا في شهر مايو، ورأيت معظمها مزهرًا، وبعضها مثمرًا، وكلها نامية حسب أجناسها الخاصة. ورأيت حين ذهبت لارتيادها البلابل وغيرها من الطيور المغردة التي لا حصر لها تغرد فوق الأشجار في شهر نوفمبر.

وفي جزيرة جوانا فضلًا عن هذا كله سبعة أنواع من النخيل أو ثمانية، تفوق نخيل بلادنا في ارتفاعها وجمالها، شأنها في ذلك شأن سائر أشجار الجزيرة وأعشابها وثمارها. وفيها أيضًا طائفة من أشجار الصنوبر الجميلة، وتخللها السهول والمراعي، وتكثر فيها الطيور المختلفة ونحل العسل والمعادن عدا الحديد؛ وفي الجزيرة المسماة هسيانا(١) جبال عالية جميلة المنظر، وحقول واسعة، وغياض وسهول خصبة تصلح للحرث والزرع وبناء المساكن.

وليس في وسع الإنسان أن يدرك سهولة الوصول إلى موانئ الجزيرة أو كثرة ما بها من الأنهار التي يطيب بها الهواء ويصح بها الجسم إلا إذا رأى ذلك كله بعينيه. وتختلف أشجارها ومراعيها وفاكهتها عن مثيلاتها في جوانا وهي إلى ذلك غنية بأنواع التوابل المختلفة وبالذهب وغيره من المعادن.

والناس في هذه الجزيرة وفي سائر الجزائر التي رأيتها أو عرفت أحوالها يسيرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم رجالًا كانوا أو نساءً، لا يستثنى منهم إلا بعض النساء اللاتي يسترن عوراتهن بورقة أو بعض أوراق من الشجر، أو بقطعةٍ من نسيج القطن ينسجنها لهذا الغرض.

---

(1)Hispana

وليس لدى هؤلاء الناس كلهم، كما قلت من قبل، شيء من الحديد على اختلاف أنواعه، وليست لديهم أسلحة، فهم لا يعرفونها ولا يستطيعون استعمالها. على أن هذا لا يرجع إلى نقصٍ في أجسامهم، فهم كلهم أقوياء أصحاء، بل يرجع إلى خوفهم وضعف قلوبهم. غير أنهم يتخذون لهم أسلحةً من الغاب المجفف في الشمس، يثبتون في أطرافها السفلى سهامًا من الخشب المجفف المدبب، ولكنهم لا يجرؤون على استخدام هذه الأسلحة على الدوام، فكثيرًا ما حدث حين أرسلت اثنين أو ثلاثة من رجالي إلى بعض قراهم ليتحدثوا إلى سكانها أن كانت تخرج طائفة كبيرة من الهنود في صفوفٍ متراصة، حتى إذا رأوا رجالنا مقبلين ولوا الأدبار، يدفع الآباء منهم أبناءهم والأبناء آباءهم. ولم يكن ذلك لأن واحدًا منهم قد أوذي أو أسيء إليه، لأني أعطيت كل من زرته وكل من استطعت أن أتحدث إليه منهم شيئًا مما لدي، قماشًا كان أو غيره من الأشياء الكثيرة التي كانت معي، ولم آخذ منهم في نظيرها شيئًا؛ بل كان سبب خوفهم أنهم بطبيعتهم وجلون هيابون. على أنهم إذا رأوه أنهم آمنون أطرحوا خوفهم، وتبين الإنسان أنهم طيبو القلب يركن إليهم، وكرماء لا يضنون على أحدٍ بما لديهم، بل إنهم هم أنفسهم كانوا يدعوننا إلى أن نطلب ما نريده منهم. وهم يظهرون من الحب لغيره أكثر مما يظهرون لأنفسهم، ويعطون ما لديهم من أشياء عظيمة القيمة نظير أشياءٍ تافهة، ويقنعون بالقليل الذي نقدمه لهم، بل كانوا أحيانًا يرضون بغير عوض. على أني قد أمرت ألا يعطى لهم من الأشياء ما كان صغيرًا تافهًا، كقطع الصحاف والأطباق والزجاج والمفاتيح وأربطة الأحذية، وإن خيل إليهم حين كانوا يعطون هذه الأشياء أنهم نالوا أجمل جواهر العالم...

وليس ثمة فرقٍ بين ملامح الناس في هذه الجزائر كلها ولا في لغاتهم، فكلهم يفهم بعضهم بعضًا، وهو أمر له خطره في الغرض الذي أرى أن مليكنا العظيم يحرص على تحقيقه، وهو نشر دين المسيح بينهم، ومبلغ علمي أنهم مستعدون إلى ذلك راغبون فيه...

ولقد عرفت أن الرجل في هذه الجزائر كلها يقنع بزوجةٍ واحدة، لا يستثنى من

ذلك إلا الأمراء والملوك، فهؤلاء يسمح للواحد منهم بعشرين زوجة؛ ويبدو أن النساء يعملن أكثر من الرجال. ولم أتبين على وجه التحقيق هل يسري نظام الملكية الفردية بينهم؟ فقد رأيت رجلًا واحدًا منهم يقوم بتوزيع الحاجيات على غيره، وبخاصةً المرطبات والطعام وما ماثلهما من الأشياء...

فما أعظم هذا وأعجبه! إنه لا يماثل تقاليدنا نحن بل ينطبق على تقاليد المسيحية المقدسة وعلى دين ملوكنا وتقواهم؛ ولا غرابة في هذا فإن ما لا تدركه العقول البشرية تهبه للخلق العناية الإلهية، لأن الله يستجيب إلى دعاء عبيده الذين يحبون شريعته ولو طلبوا المستحيل، كما حدث لنا نحن في حالتنا الراهنة إذ بلغنا ما لم يبلغه قبلنا أحد من بني الإنسان.

ذلك أنه إذا كان أحد قد كتب شيئًا عن هذه الجزائر أو تحدث بشيءٍ عنها، فإن ذلك كله كان حدسًا وكلامًا مبهمًا غامضًا، ولم يدع أحد أنه رآها؛ ولذلك كانت هذه الأقوال أشبه بالخرافات والأوهام. ومن أجل هذا يجدر بالملك والملكة، وبالأمراء وسكان ممالكهم السعيدة، وغيرهم من سكان الأقطار المسيحية جميعها، أن يحمدوا الله الذي خصنا بهذا النصر العظيم، فلنقم الاحتفالات الدينية والأعياد المقدسة، ولنصب التيجان على الكنائس، وليغتبط المسيح في الأرض كما يغتبط في السماء حين يرى تلك الآلاف المؤلفة من الأرواح البشرية قد نجت من الضلال، ولنبتهج نحن أيضًا بالنصر الذي ناله دينا، وبالخير الذي سيعود علينا في دنيانا، وهو الخير الذي لن تختص به أسبانيا بل سيشاركها فيه العالم المسيحي بأجمعه. وبعد فذلك وصف موجز لما عملناه والسلام.

لشبونة في اليوم السابق لمنتصف شهر مارس[1]

كرستفر كولمبس أمير أسطول المحيط

(١) من عام ١٤٩٣

وقام كولمب بعد هذه الرحلة بثلاث رحلاتٍ أخرى إلى أمريكا كان آخرها عام ١٥٠٣ وقد عين حاكمًا على بعض المستعمرات الأسبانية، ولكن أيامه الأخيرة كانت كلها بؤسًا وخيبة، فقد عاد من رحلته الثانية إلى أسبانيا ذليلًا وضيعًا، وعاد من رحلته الثالثة مكبلًا بالأغلال. ولما عين في آخر الأمر حاكمًا على إحدى المستعمرات الأسبانية عجز عن إدارتها عجزًا تامًّا وجوزي على ظفره وعجزه جزاء سنمار.

ليوناردو دافنشي يطلب إلى دوق ميلان أن يكل إليه عملًا

كان ليوناردو دافنشي من أشهر الشخصيات في عصر النهضة العظيم. وإن ما يذكره في رسالته التالية من قدرةٍ على كثيرٍ من الأعمال المختلفة لمما يثير الدهشة حقًّا، ولكنه كان في وسعه أن يضيف إلى سلسلة الكفايات المتنوعة التي ذكرها في هذه الرسالة طائفةً غيرها من الكفايات. كان في وسعه أن يضيف إليها أنه عالم في طبقات الأرض، وفي النبات والحيوان، وبارع في كثيرٍ من الفنون والعلوم.

وكان مولد ليوناردو دافنشي على بعد أميالٍ قليلةٍ من مدينة فلورنس في عام **١٤٥٢** ولسنا نريد أن نكتب سيرته في هذه العجالة، وحسبنا أن نقول عنه إنه كان يعتقد أن الطيران في مقدور الإنسان، وإنه وضع بالفعل نموذجًا لطيارة. واشتهر ليوناردو فوق هذا بصوره البديعة وهواياته المتعددة، وبكثرة ما كتب، كما يشتهر بعمق أفكاره واتزانها. وكان ليوناردو في السنة المتممة للثلاثين من عمره حين ضاق ذرعًا بحياته في فلورنس التي دب فيها الضعف في عهد آل مديشي، فغادرها إلى ميلان التي تألق نجمها في عهد لدفيكواسفورزا، وهو الذي كتب إليه الرسالة التالية يطلب إليه فيها أن يكل إليه عملًا:

- ٢٣ -

"... بعض أسراري"

لقد شهدت يا مولاي التجارب التي أجراها كل من يدعون أنهم برعوا في اختراع آلات القتال، وفكرت فيها فوجدت أنها جميعًا لا تختلف عما يستخدمه الناس جميعًا. ولذلك جرؤت دون أن أسيء بذلك إلى أحدٍ قط أن ألتمس من فخامتك موعدًا أحدثك فيه عن بعض أسراري.

١- في استطاعتي أن أصنع قناطر خفيفة قوية سهلة الحمل لا يصعب على

حاملها أن يطارد العدو ويهزمه؛ وفي وسعي أن أصنع قناطر غيرها أكثر منها صلابةً لا تؤثر فيها النيران ولا غارات الأعداء، ولكنها مع ذلك لا يصعب نقلها ووضعها في أماكنها؛ وفي مقدوري فضلًا عن ذلك أن أحرق جسور العدو وأدمرها.

٢– وأستطيع في الحصار أن أمنع الماء عن الخنادق، وأن أصنع جسورًا عوامة وسلالم لتسلق الجدران وما إلى هذه وتلك من المخترعات.

٣– وإذا استحال تدمير مكانٍ بالقنابل لارتفاعه أو منعته فإن في طاقتي أن أدمر كل حصنٍ إذا لم تكن قواعده مقامة على الحجر الصلد.

٤– وأستطيع أن أصنع مدفعًا خفيفًا سهل الحمل، يرمي بالحجارة كالبرد، ويرعب دخانه الأعداء، وينزل بهم الخراب والدمار، ويشيع في صفوفهم الذعر والاضطراب.

٥– وأستطيع أن أنشئ من غير ضوضاء ممرات تحت الأرض توصل إلى أي مكانٍ أريد، سواء كانت هذه الممرات مستقيمة أو ملتوية، وتمر إذا دعت الضرورة تحت الخنادق والأنهار.

٦– وأستطيع صنع عرباتٍ مسلحةٍ تحمل المدافع، وتخترق صفوف الأعداء المتراصة الكثيفة، وتشق طريقًا آمنًا إلى مشاته.

٧– وأستطيع إذا دعت الضرورة أن أصنع مدافع ضخمةً كبيرةً، وأخرى خفيفةً تمتاز بجمال الصنع وعظيم النفع، وتختلف عن المدافع المألوفة في هذه الأيام.

٨– وفي وسعى، حيث لا يستطاع استخدام المدافع، أن أستعيض عنها بمجانيق وقذافات وما إليها من الأدوات العجيبة الصنع العظيمة الأثر التي لا تستخدم في وقتنا الحاضر. وقصارى القول أني أستطيع إذا جد الجد أن أصنع ما لا يُحصى من أسلحة الهجوم والدفاع.

٩– وإذا دارت رحى الحرب فوق متن البحار أستطيع أن أصنع من الآلات الكثيرة ما يصلح للهجوم والدفاع، وأبني السفن التي تقاوم نيران أثقل المدافع والبارود

وسائر الأسلحة.

١٠ – ويقيني أني قادر في وقت السلم على أن أنال من رضاك ما يستطيع أي إنسانٍ آخر أن يناله، بما أشيده من المباني العامة والخاصة، و بإجراء الماء من مكانٍ إلى مكان.

وفي مقدورى بعد هذا كله أن أصنع التماثيل من الرخام والبرنز والصلصال، ولا تقل براعتي في النقش عن براعة أي إنسانٍ غيري لا أستثنى من ذلك أحدًا.

وفي استطاعتي أن أصنع الحصان البرنزي الذي سيخلد مجد أبيك وذكراه الطيبة، ومجد سفرزا[١]، العظيم أبد الدهر. و إذا بدا لإنسانٍ ما أن شيئًا مما قلته مستحيل أو عديم النفع فإني على استعدادٍ لأن أجرب ذلك بنفسي في بستانك أو في غيره من الأمكنة التي ترتضيها فخامتكم، وتروني الآن طوع أمركم ورهين إشارتكم.

***

وقد نال ليوناردو بغيته وعُيِّن في بلاط دوق ميلان، وظل في خدمته ستة عشر عامًا حتى غزا الفرنسيون المدينة، وقبضوا على الدوق.... ومات ليوناردو في فرنسا في عام ١٥١٩ في السابعة والستين من عمره، وهو يعد من العباقرة ذوي الكفايات المتنوعة، ولكنه هو نفسه كان يرى أن أعظم مشروعاته العلمية لم تحقق على يديه، وأنه لم ينجح في بلوغ ما كان يصبو إليه من براعةٍ في الفن.

(1)Sforza

ميكل أنجلو يفاوض قداسة البابا

رسالته إلى جليانو مهندس الفاتكان

ولد ميكل أنجلو بونارتي[١] في عام ١٤٧٥، ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى اشتهر بابتكاره الجريء وبراعته المنقطعة النظير في الرسم والنحت، ودعاه البابا يوليوس[٢] الثاني إلى روما، وكان البابا رجلًا عظيم المطامع، قاسي القلب، جاهلًا بأصول الفن، وكان يريد من الفنان العظيم أن ينشى له قبرًا يليق بمقامه السامي. وكان المشروع الذي عرضه ميكل على البابا مشروعًا ضخما يتطلب إقامة صرحٍ كبيرٍ من ثلاث طبقاتٍ يحتوى أربعين تمثالًا كبيرًا من البرنز والرخام.

ويقال إن البابا أمر بهدم جزءٍ كبيرٍ من كنيسة القديس بطرس ليفسح مكانًا لقبره الضخم. على أن المشروع لم يسر سيرًا هادئًا عاديًّا. ذلك أن برمنتي[٣] كبير مهندسي البابا أراد أن يستبدل بميكل أنجلو رفئيل الأربينوي[٤] ابن أخيه، فسمم عقل البابا بالمكائد التي أخذ ينصبها لميكل، حتى اضطر إلى الفرار غضبان إلى فلورنس، ومنها كتب الرسالة التالية إلى جليانو داسان جلوه[٥] أحد مهندسي البابا، ردًّا على دعوة البابا إياه بأن يعود إلى روما ليتم القبر.

---

(1)Michelangelo Buonarroti

(2)julius II

(3)Bramanti

(4) Raphael of Urbino

(5)Guiliano da San Gallo

-٢٤-

"..... سيكون عملاً لا مثيل له في العالم كله....."

فلورنس في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٥٠٦.

إلى الأستاذ جليانو مهندس البابا.

علمت يا جوليانو من خطابٍ أرسلته إليَّ أن البابا غاضب من سفري، وأنه يرغب في أن يضع المال رهن تصرفي، وأن ينفذ ما كنا قد اتفقنا عليه، وأن أعود ولا أخشى شيئًا.

فأما سفري فحقيقته أنني سمعت البابا يوم السبت المقدس يتحدث على مائدة الطعام مع أحد تجار الجواهر ومع رئيس التشريفات، ويقول إنه لا يريد أن ينفق شيئًا من المال في شراء الحجارة، صغيرة كانت أو كبيرة، فأدهشني هذا أعظم دهشة. على أني مع ذلك طلبت إليه قبل سفري بعض ما أحتاجه من المال لمواصلة عملي، فكان جواب قداسته أن طلب إليَّ أن أعود إليه في يوم الاثنين؛ وجئته يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس –بناءً على رغبته– وأخيرًا جئت إليه صباح يوم الجمعة فأُخرَجت من عنده، أي طردت، وقال لي الشخص الذي طردني إنه يعرف من أنا وإنه ينفذ ما لديه من أمر. وكنت قد سمعت هذه الألفاظ بعينها في يوم السبت، ورأيتها بعدئذ تخرج من حيز القول إلى حيز الفعل، فاستولى عليَّ اليأس. على أن هذا وحده لم يكن سبب سفري، بل هناك سبب آخر لا أريد أن أكتب عنه شيئًا، وحسبي أن أقول إنه جعلني أفكر في أني لو بقيت في روما لأعد لي قبري قبل أن يعد قبر البابا. ذلك هو سبب سفري المفاجئ.

والآن تكتب إليَّ على لسان البابا، وجوابي أن عليك أيضًا أن تنوب عنى في قراءة رسالتي هذه عليه. وأفهم قداسته..... أنه إذا كان جادًّا في أن يشيد له قبر فإنه يجدر به أن يترك لي وحدي أمر اختيار المكان الذي يؤدى فيه العمل، على شريطة أن يتم بناء

القبر في الخمس سنوات التي اتفقنا عليها، في كنيسة القديس بطرس، وفي الناحية التي يختارها منها، وأن يكون قبرًا جميل المنظر كما وعدته. ولست أشك في أنه إذا تم سيكون عملًا لا مثيل له في العالم كله.

فإذا أراد قداسته أن يسير العمل هذا النحو، فليودع المال المطلوب هنا في فلورنس عند شخصٍ سأبعث إليك باسمه....، وليأخذ على قداسته من المواثيق ما يراه، وسأقدم له في فلورنس من الضمانات ما يرى هو أنه في حاجةٍ إليه، وله أن يختار ما يشاء منها، وعلى أن أقدمها كلها له ولو طلب مدينة فلورنس بقضها وقضيضها. بقي أمر واحد لا بد لي أن أضيفه إلى ما قلت. ذلك أن العمل السالف الذكر لا يمكن أن يتم في روما بالنفقات التي قدرتها له، ولكنه يمكن إتمامه في هذه المدينة لما نجده فيها من الظروف المواتية التي لا نجد مثلها في روما..... ورجائي أن يصلني رد على رسالتي هذه، وأن يصلني سريعًا، وليس لديَّ ما أضيفه إلى ما قلت.

المخلص

ميكل أنجلو

المثال في فلورنس

وتطلبت عودة ميكل أنجلو إلى روما ثلاثة أوامر بابوية، وإنذارا بالحرب إلى جمهورية فلورنس. فلما جاءها لم يسمح له بمواصلة العمل في قبر البابا، بل كلف بدلًا من هذا بعدة أعمالٍ تافهة، ثم أمر أن ينقش سقف كنيسة سستيني[(١)] وظل أربعة أعوام لا فرق بينه وبين السجين، يكدح في هذا العمل كدحًا، وهو مستلقٍ على ظهره فوق محالة عالية، لينقش صورة خلق الإنسان وسقوطه.

ثم مات يوليوس الثاني بعد أن تم هذا العمل بسنة واحدة، واضطر ميكل أنجلو بعد موته أن يعدل مشروعه الأول مشروع بناء القبر خمس مرات. وكان تمثال موسى هو كل

(1)Sistine

ما أثمرته جهوده المضنية في أربعين عامًا كاملة. ثم ألغى البابا بولس الثالث ما كان بين المثال وبين يوليوس من تعاقد، وأمره أن يرسم صورة "يوم القيامة" على جدار كنيسة سستيني، وهي الصورة التي يصفها كثيرون من النقاد بأنها "خير ما أبدعته يد فنان في جميع العصور".

بابر أول الأباطرة "المغول" يصف محاولة قتله مسموماًونجاته من هذه المحاولة

[رسالة إلى صديق له]

كتب بابر هذه الرسالة إلى صديق له يصف بها محاولة قتله بالسم ونجاته من هذه المحاولة. وهي رسالة ليس لها ما يماثلها من الرسائل التاريخية إلا القليل. ذلك أن الشخص الذي يدس له السم يقضي نحبه في الغالب فلا يعيش ليحدثنا بنفسه عن نجاته. وكان بابر يعيش في أوائل القرن السادس عشر، وهو ينتسب إلى تيمورلنك من جهة أبيه، وإلى جنكيز خان من جهة أمه. وقبل أن يتم السنة التاسعة والثلاثين من عمره أخضع لسلطانه التركستان والأفغانستان. على أن النصر لم يكن دائمًا حليفه، فقد خسر عرشه أكثر من مرة، وكثيرًا ما عاش فتراتٍ من حياته طريدًا مهدر الدم. وفي عام **١٥٢٥** انقض على الهند بجيشٍ صغيرٍ لا يتناسب مطلقًا مع عظم هذه المغامرة، ولكنه استطاع في أقل من أربع سنين أن يشيد لنفسه ملكًا يمتد من نهر جيحون إلى حدود بنغال، ومن جبال هملايا إلى جنوب ولاية أجرا.

وأصبح هذا الإقليم فيما بعد نواة الدولة التي يطلق عليها خطأ اسم "الدولة المغولية" والتي يجب أن تسمى الدولة "التركية"، لأن بابر تركي لا مغولي.

وكان طبيعيًّا أن يصبح لرجلٍ هذا شأنه كثير من الأعداء، وقد حاول بعضهم أن يثأروا لأنفسهم منه بطرقٍ مختلفة، ومن هذه الطرق أن سيدةً من أقارب أحد الأقيال الذين قضى عليهم أفلحت في أن ترشو طاهيه، فدس له السم في الطعام.

-٢٥-

"وأهمل الذائقون فلم يقوموا بواجبهم..."

إليك تفاصيل هذا الحادث المشئوم الذي وقع في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول سنة **٩٣٣** (**٢١** ديسمبر سنة **١٥٢٦**):

سمعت عجوز الشؤم أم إبراهيم أني أتناول الطعام من أيدي الهنود. وحقيقة الأمر أني كنت قد قضيت زمنًا لا آكل الطعام الهندي، فأمرت قبل وقوع تلك الحادثة بثلاثة شهور أو أربعة أن يؤتى لي بطهاة إبراهيم، وكان عددهم يتراوح بين خمسين وستين، فاستبقيت منهم أربعة، وسمعت هي بذلك فطلبت إلى عطوة أن يرسل لها أحمد ذائق الطعام، فلما جاءها ناولت إحدى الجواري جرعة من السم ملفوفة في ورقةٍ لتعطيه إياها. وأعطى أحمد الطهاة الهنود الذين في مطبخي هذا السم وأغراهم بالمال على أن يدسوه لي في الطعام.

وأرسلت العجوز المشئومة جاريةً أخرى وراء الجارية الأولى لتعرف هل أوصلت السم الذي أعطتها إياه إلى يد أحمد. وكان من حسن الحظ أن أحمد لم يضع السم في إناء الطهي بل وضعه في صحفة من الصحاف، وذلك لأني كنت قد أصدرت أوامر مشددة لذائقي الطعام تقضي بأن يذوق كل هندي ما يقدمه لي منه إذا كان حاضرا طهيه. وأهمل الذائقون فلم يقوموا بواجبهم حين وضع الطعام في الصحاف، ووضعت قطع رقيقة من الخبز في صفحة من الخزف، ورش عليها نصف ما تحتويه ورقة السرم، ثم وضعت فوقها شطائر من العيش مغطاة بالزبد. ولو أن السم كله قد رش على هذه الشطائر، أو وضع في إناء الطهي، لكانت العاقبة وبالًا عليّ، ولكن الرجل اضطرب، فألقى الجزء الأكبر منه في النار.

ولما قضيت الصلاة من يوم الجمعة، جيء بالطعام، فأكلت قطعةً كبيرةً من أرنب، وقدرًا كبيرًا من الجزر المقلي، ثم تناولت لقمتين من الطعام الهندي المسموم دون أن أجد له طعمًا كريهًا. وأكلت أيضًا قطعةً أو قطعتين من اللحم المشوي، فشعرت لساعتي بالدوار، لكنني كنت قد تناولت في اليوم السابق بعض اللحم المشوي ولم أستسغ طعمه، فظننت أنه في هذه المرة أيضًا سبب هذا الدوار، وجشأت نفسي مرتين أو ثلاث مرات، وكدت أتقيأ على غطاء المائدة، فلم أجد بدًّا من النهوض. وحدث لي مثل هذا وأنا في طريقي إلى المرحاض، فلما وصلته تقيأت كثيرًا، ولم يحدث قبل هذه المرة أن تقيأت عقب الطعام، بل إني لم أتقيأ قط حتى بعد الشراب.

وكان لابد أن يداخلني الشك فأمرت أن تفرض الرقابة على الطهاة، وأن يعطى بعض القيء إلى أحد الكلاب، وأن يراقب هذا الكلب مراقبةً دقيقة. وفي اليوم التالي قبيل انتهاء نوبة الرقابة الأولى، لوحظ عليه شيء من الانحراف، ثم انتفخ بطنه ولم يتحرك من مكانه، رغم ما قذف به من الحجارة، وكثرة ما قلبه الناس بأيديهم. وبقي كذلك حتى منتصف النهار ثم قام ونجا من الموت. وحدث أن أميرًا أو أميرين من أمراء القبائل الهندية الذين أكلوا من الطعام معي تقيأ أيضًا عدة مرات في اليوم التالي، وساءت حال أحدهما كثيرًا غير أنهما شفيا جميعًا.

وكانت كارثة من أشد الكوارث التي حلت بنا، ولكننا نجونا منها ووهبنا الله حياةً جديدة، وكأنما جئت أنا من عالم الأموات، أو كأن أمي ولدتني في هذا اليوم. إنني مريض، ولكني حي أُرزق، وقد عرفت اليوم بفضل العناية الإلهية قيمة الحياة.

وأمرت محمدًا الصراف أن يراقب الطباخ، ولما سيق ليلقى جزاءه قصَّ عليَّ الحقائق السالفة الذكر واحدةً بعد أخرى.

وكان يوم الاثنين يوم الاستقبال الرسمي، فأمرت بدعوة عظماء الدولة وأعيانها وأمراءها ووزرائها، وجيء بالرجلين والمرأتين ليسألوا عما جنت أيديهم، قصوا القصة بأجمعها. فأما ذواق الطعام فقد قطعت أوصاله، وأما الطباخ فقد سلخ جلده حيًّا، وأما النساء فقد ألقيت إحداهن تحت أرجل فيلٍ من الفيلة، وأعدمت الثانية رميًا بالرصاص، ولا تزال المرأة العجوز تحت الحراسة، وستلقى جزاء من جنت يداها.

وفي يوم السبت شربت قدحين من اللبن، وشربت في يوم الأحد عرقا أذيب فيه بعض الصلصال، وفي يوم الاثنين شربت لبنًا مذابًا فيه صلصال وترياقًا من أحسن الأنواع، وهو مسهل قوي الأثر، وخرج مني في أول يومٍ وهو يوم السبت ما يشبه الصفراء الجافة.

ولم أصب بأذى والحمد لله. ولم أكن أعرف قبل الآن أن الحياة حلوة، وأدركت حينئذٍ معنى القول المأثور: "لا يعرف قدر الحياة إلا من كان على حافة القبر".

ولا أزال كما ذكرت هذه الحادثة المروعة أضطرب على الرغم مني. وما من شكٍّ في أن عناية الله هي التي وهبت لي الحياة من جديد، وإني لعاجز عن أن أجد من الألفاظ ما أشكر به الله جل شأنه.

هأنذا قد قصصت كل ما جرى، وإن كان هول الحادثة أعظم من أن تمثله الألفاظ. ولقد حرصت على أن أذكر تفاصيله وظروفه لأني قلت لنفسي: "يجب ألا تظل قلوبهم قلقةً!"، وإني لأحمد الله أن لا تزال أمامي من العمر أيام أشهد فيها هذا العالم. لقد مر الحادث كله بسلام فلا تخشوا شيئًا ولا تشغلوا بأمري.

***

والمأثور عن بابر أنه كان رجلًا مثقفًا رحيمًا على الرغم مما أظهره من القسوة في عقاب خدمه. وكان فوق ذلك ناقدًا وأديبًا؛ كتب بالفارسية، وهي اللغة الدولية في وسط آسيا في أيامه، مقطوعات غنائية جميلة، وكتب بالتركية لغته الأصلية كتاباتٍ نثريةٍ جزلة اللفظ واضحة المعنى. والرسالة التي أثبتناها هنا مأخوذة من مذكراته المعروفة باسم بابر نامه.

ويقال إن بابر كان يحب ولده همايون حبًّا جعله في اعتقاد بعضهم يضحي بحياته من أجله. ذلك أن ابنه مرض حتى أشرف على الموت، فدعا بابر الله أن يشفي ولده وأن تصيبه العلة بدله، واستجاب الله دعاءه، فأخذ ابنه يتماثل للشفاء، وأخذت صحة بابر تعتل حتى مات.

هنري الثامن وآن بولين يتبادلان الرسائل والتوسل

تزوج هنري الثامن ملك إنجلترا بكاترين أميرة أرجن[1]، وعاش معها ثماني سنين، ثم أحب آن بولين[2]، وكانت من أجمل وصيفات الملكة كاترين، وظل إحدى عشرة سنة يبذل من الجهود أقصاها ليطلق زوجته ويتزوج بها، حتى تم له في آخر الأمر ما أراد، وكان من نتائج عمله هذا أن خرجت إنجلترا نهائيًّا عن سلطان البابا في عام **١٥٣٣**، وبذلك حصلت آن على ما كانت تطمع فيه من الجلوس على عرش إنجلترا، ولكنها لم تنج بذلك من المقصلة، بل لعل هذا الزواج هو الذي قادها إليها.

وكانت آن بولين فتاة فاسدة.. وقعت في شرك رجلٍ ضعيفٍ عاجز، شأنها في ذلك شأن مارى آنتوانت. وقد حباها الملك في الست سنين التي أقامها معها ما كانت تصبو إليه من جواهر وألقاب، ومالٍ وتاج، ولم يكن ينقصها إلا مكانة الزوجة الحقة التي يخلص لها زوجها. وإلى القارئ رسالة من رسائل الحب التي كتبها الملك المزواج إلى آن بولين.

- ٢٦ -

"**.... نار الحب المضطرمة في قلبي....**"

حبيبتي:

أكتب هذا إليك لأشرح لك ما ألاقيه من الوحدة في هذا المكان بعد غيابك عني، ولأؤكد لك أن الوقت الذي انقضى بعد سفرك قد طال حتى كأنه أسبوعان. ويقيني أن السر في هذا هو عطفك عليَّ ونار الحب المضطرمة في قلبي، ولولا هذا لما بعثت هذه الفترة القصيرة ما بعثته فيّ من الحزن. غير أني أحس الآن وأنا قادم إليك أن آلامي قد

---

(1)Catherine of Aragon

(2)Anne Baleyn

زال نصفها، وأن ما شعرت به من الراحة قد أمكنني من أن أقطع مرحلةً كبيرةً في كتابي، فصرفت اليوم في كتابته أكثر من ثلاث ساعات. ومن أجل هذا كانت رسالتي لك قصيرة، فإني أحس الآن بآلامٍ في رأسي، لا يزيلها إلا وجودي بين ذراعيك وقبلاتي التي أرجو أن أطبعها قريبًا على ثدييك.

خطته يد الحب الذي كان وما زال وسيظل خاضعًا لك بإرادته.

هـ. ر.

***

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت مل هنري الثامن آن بولين، فرماها بتهمٍ شنيعة، وأمر باعتقالها في برج لندن. وقد كتبت إليه من سجنها الرسالة التالية تحاول بها أن "تمحو وصمةً عن زوجةٍ من أكثر الزوجات وفاءً...".

- ٢٧ -

"...... ما من أميرٍ كانت له زوجة أكثر وفاءً......"

مولاي:

إن غضب جلالتك عليَّ وسجني لمن أعجب الأشياء، ولهذا فإني لا أعرف ماذا أكتب أو عن أي شيءٍ أعتذر؟ لأني أجهل كل شيء. ولكنك تطلب إليَّ على لسان شخصٍ تعرف أنت أنه ألد أعدائي أن "أعترف بالحقيقة لأنال بذلك الاعتراف رضاك". وما كدت أتسلم الرسالة من يده حتى أدركت ما تقصد إليه، فإذا كان قول الحق ينقذني من الموت فإني سأطيع أمرك راضيةً.

ولكني أرجو ألا تتصور يا صاحب الجلالة أن زوجتك المسكينة ستقر بذنبٍ لم ترتكبه بل لم تفكر فيه قط. والحق يا مولاي أنه ما من أميرٍ كانت له زوجة أكثر وفاءً وإخلاصًا، وأصدق حبًّا، مما وجدته في "آن بولين". وكان يسرني أن أقنع بهذا الاسم

وحده لو شاء الله ورضيت أنت. وثق أني لم أنس قط نفسي حين رفعت من شأني وجعلتني ملكة، بل إني كنت أفكر على الدوام في هذا اليوم الذي تتبدل فيه حالي كما تبدلت الآن، وذلك لأن الأساس الذي يقوم عليه مجدي لم يكن إلا هوى جلالتك؛ وكنت أعرف أن أقل تبدلٍ فيه يكفي لأن يحول قلبك عني إلى غيري. لقد أخذتني من طبقةٍ وضيعةٍ وجعلتني ملكتك، ورفيقة حياتك، فرفعت منزلتي بغير رغبتي أكثر مما أستحق. فإذا كنت يا صاحب الجلالة قد وجدتني خليقةً بهذا الشرف، فلا تجعل لتقلب الأهواء أو لمشيري السوء من أعدائي أثرًا في تحويل رضاك الملكي عني. ولا تسمح لهذه الوصمة —وصمة عدم الوفاء لجلالتك— أن تدنس عرض أوفى الزوجات وعرض ابنتك الأميرة الصغيرة.

حاكمني أيها الملك الصالح، ولكن هب لي محاكمةً قانونية، ولا تجعل ألد أعدائي خصومي وقضاتي. لتكن محاكمتي علنية، فأنا لا أخشى أن يلحقني العار جهرةً. وستراني وقد ثبتت براءتي، وزال الشك من نفسك، وارتاح ضميرك، وقطعت ألسنة السوء عني، أو أعلنت جريمتي للملأ. ومهما يكن حكم الله أو حكمك عليَّ، فستنجو جلالتك من لوم الناس لك جهرة. وإذا أثبت القانون أني قد اقترفت ذنبًا كان من حقك أمام الله وأمام الناس أن تنفذ فيَّ ما أستحق من العقاب على خيانتي لزوجي، وأن تخص بحبك تلك التي أعاني من أجلها ما أعاني، والتي كان في وسعي من زمنٍ بعيدٍ أن أذكر اسمها، ولم تكن أنت يا مولاي جاهل ما كان يساورني من الظنون في هذه الناحية.

أما إذا كنت قد حكمت عليَّ، وكنت لا تنال ما تبقى من سعادةٍ إلا بموتي وتسوئ سمعتي، فإني أرجو الله أن يغفر لك هذا الذنب العظيم، وأن يغفر كذلك ذنوب أعدائي الذين كانوا سبب بلائي، وألا يحاسبك حسابًا عسيرًا على قسوتك التي لا تليق بأمثالك من الملوك، يوم ندعى أنا وأنت أمامه فتظهر براءتي مهما كان ظن العالم فيّ.

وآخر ما أرجوه منك ألا يصيب غضب جلالتك أحدًا من الناس غيري، وألا تمس بسوء تلك الأرواح البريئة التي قيل لي إنها ملقاة في السجن من أجلي، فإذا كانت عيناك قد سرها يومًا ما أن تراني، وإذا كانت أذناك قد طربتا يومًا ما لسماع اسم آن

بولين، فلتجب هذا الرجاء. وبهذا أختم رسالتي حتى لا أضايقك أكثر مما فعلت، وأدعو ربي أن يحفظ جلالتك من كل سوء، وأن يهديك في كل أعمالك سبيل الرشاد.

من سجني الموحش في البرج في اليوم السادس من مايو

زوجتك الوفية المخلصة

آن بولين

***

غير أن هذه الضراعة لم تجد آن بولين نفعًا، فبينما كان الملك يعد العدة لزواج جين سيمور[1]، أعدمت آن بولين. غير أن ابنتها إليزبث هي التي أصبحت فيما بعد ملكة إنجلترا. أما جين سيمور فقد ماتت بعد أن وضعت ولدًا هو الذي اعتلى العرش باسم إدورد السادس. ولكن زوجها لم يلبث أن هجرها وفرَّ من أحضانها إلى آن كليفز[2]، ثم إلى كترين هورد[3]، ثم إلى كترين بار[4]. وكانت هذه قد تزوجت قبله برجلين غير أنها بقيت زوجةً له حتى مات، ثم اتخذت لها زوجًا آخر من بعده.

(1)Jane Seymour

(2)Anne Cleves

(3)Catherine Howard

(4)Catherine Parr

الملكة إليزبث ترسل صورتها وتحياتها إلى ميري ملكة إسكتلندة ثم تأمر بقتلها بعد بضعة أشهر

كان بين إليزبث وميري قسط كبير من الغيرة والحسد، ولكن لعل المؤرخين قد بالغوا في هذا كثيرًا، ولعل حسد إليزبث كان منشؤه أن ميري تنال كثيرًا من الحظوة عند الرجال، فقد كانت إليزبث امرأة كسائر النساء. ولكن الذي كان يقلق إليزبث أشد القلق أنها لم يكن لها وارث من نسلها، وكان لا يزال في إنجلترا حزب قوي رغب في عودة الكنيسة الكاثوليكية، ويرى أن ميري الكاثوليكية هي الملكة التي تستطيع أن تحقق هذه الرغبة. ولكن إليزبث لم تختر ميري لتخلفها على عرش إنجلترا، ولو أنها فعلت هذا لقضت في الغالب على حياتها بنفسها.

غير أن الملكتين رغم هذا كله كثيرًا ما تبادلتا الهدايا دليلًا على "ما بينهما من حبٍّ متبادل". وقد حدث قبيل فرار ميري إلى إنجلترا أن كتبت إلى إليزبث تقول: "هأنذا أعيد إلى الملكة الجوهرة التي أهدتها لي ووعدتني معها بمعونتها وصداقتها".

وكانت هذه الجوهرة ماسة في صورة قلب أهدتها إليزبث "لأختها العزيزة".

وبينما كانت ميري أسيرة عند إليزبث لم تنقطع الملكتان عن تبادل رسائل "الود والصداقة", وقبل أن تأمر إليزبث بإعدام "أختها العزيزة" بسنةٍ تقريبًا أرسلت إليها صورتها ومعها الرسالة التالية:

-٢٨-

"قد يخجلني أن أعرض عليك وجهي"

[١٥٨٦]

كما أن الرجل الغني يضيف في كل يومٍ غنى إلى غناه، ويضع بدرةً جديدةً فوق بدرات ماله، ولا ينقطع عن ذلك أبدًا، فكذلك تفعلين أنت يا صاحبة الجلالة، فلا تقنعين بما كان لك عليَّ قبل الآن من أياد، وما أظهرته نحوي من دلائل اللطف والمودة، بل أردت أن

تتوجي هذا كله فطلبت —وكان من حقك أن تأمري— شيئًا غير جديرٍ في ذاته بأن تطلبيه وترغبي فيه، ولكنه علا شأنه إذ طلبته يا صاحبة الجلالة. أقصد بذلك صورتى. ولو كنت أستطيع أن أكشف عما يكنه القلب في داخله من خالص الحب لجلالتك كما تكشف عنه ملامح الوجه الخارجية، لما اكتفيت بالمبادرة إلى تلبية أمرك، بل لعجلت بإرسال صورتي إليك قبل أن تطلبيها، ولما كنت آخر من يحقق رغبتك، بل لكنت أول من يعرض هذه الرغبة عليك. ولست أنكر أني قد يخجلني أن أعرض عليك وجهي، أما قلبي فلست أستنكف أن أهديه إليك. ذلك أن ألوان الصورة قد تزول بفعل الزمن، وقد تنصل بفعل الجو، وقد تلوث عرضًا ومصادفةً، أما القلب فلا يحول على مر الزمن السريع، ولا يفسده سحاب أو ضباب، ولا تؤثر فيه صروف الدهر ولا نوب الزمان.

ولست الآن في حالٍ تمكنني من أن أثبت هذا بالدليل القاطع، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها، وقد يحين الوقت الذي أستطيع أن أثبت فيه بالعمل ما أعلنه إليك الآن بالقول. وفوق هذا فإني أتقدم إلى جلالتك في خضوعٍ متوسلةً إليك، حين تنظرين إلى صورتي، أن توقني بأني كنت أتمنى من صميم قلبي أن أكون بنفسي أكثر مثولًا في حضرتك، لا أن يكون خيال جسمي هو القريب منك. ولما كان وجود خيالي أو جسمي إلى جانبك لا يتيح لك من السعادة بقدر ما يتيحه لي من النعمى، ولما كان الوقت لم يحن بعد لأن أمتع أنا بهذا القرب، فإني سأتمثل بقول هوراس: إن الوحوش لا تلام إن كانت عاجزة.

والآن أختم رسالتى (وأخشى أن أكون قد أطلت على جلالتك فأتعبتك) بتقديم أعظم فروض الشكر والخضوع، وأدعو الله أن يطيل في حياتك لتشرف بك الحياة، ولتهنئ، ولتنال الدولة الخير على يديك، ولأسعد أنا بك.

من هاتفيلد[1] في أول يومٍ من شهر مايو

أختك الخاضعة وخادمتك المطيعة

إليزبث

---

(1)Hatfield

الملكة إليزبث تقول لجيمس السادس ملك إسكتلندة إنها لم تكن لها يد في "الحادث المشئوم" الذي وقع لأمه

لم تقض ميرى حياتها في السجن ساكنةً هادئةً تتجرع الغصة وتطرف على المضض، بل كانت تتلظى غيظًا وتقسم أنها ستنتقم أشد انتقامٍ من كل من كانت له يد في إيذائها، وإن كان أقرب الناس إليها. ويقال إنها هي التي حرضت على قتل أخيها، وإنها رتبت معاشًا لقاتله. وكم من مرةٍ دبرت الوسائل لفرارها من سجنها، ولكن عيون إليزبث كانوا لها بالمرصاد، يحبطون تدبيرها. وكثيرًا ما أرسلت الرسائل إلى خارج البلاد تدعو الأسبانيين إلى غزو إنجلترا، وكثيرًا ما عملت على إثارة الفتنة في البلاد لإعادة المذهب الكاثوليكي إليها، ثم دبرت بعد هذا كله المؤامرة التي انتهت بإعدامها. ذلك أنها اتفقت مع صديقٍ لها يُدعى أنتني بابنجتن[١] على قتل إليزبث وعلى الفرار من السجن، غير أن المؤامرة كُشفت في الوقت المناسب، وحوكمت ميري في فذنجاي[٢]، ودافعت عن نفسها دفاعًا قويًّا، وادعت أن رسائل بابنجتن مزورة. ولكن هذا الدفاع لم يجدها نفعًا، فاتهمت بالخيانة العظمى، وحُكم عليها بالإعدام. وكانت إليزبث نفسها ترتاب في عدالة محاكمة ملكة وإدانتها، ولكن الخطر الذي كان يتهدد حياتها قضى على ما كان لديها من ريب فأقرت الحكم.

وتلقت ميري نبأ الحكم عليها برباطة جأش، وتهيأت للخاتمة المحتومة بأن كتبت وصيتها إلى المخلصين من أصدقائها، لم تنس منهم أحدًا، فنال كل منهم نصيبه من هباتها مهما قل. وبينما كان القس يتلو عليها الصلاة بالإنجليزية قبل تنفيذ الحكم فيها، إذ رفعت ميري صوتها وأخذت تتلو الصلاة باللاتينية، حتى إذا فرغت منها ركعت وأحنت رأسها وتلقت الضربة القاضية.

---

(1)Antony Babington

(2)Fotheringay

وكانت إليزبث –وهي المرائية على الدوام– قد وقعت قبل تنفيذ الحكم أمرًا بالعفو عنها، ولكن الأمر وصل متأخرًا –ولعل ذلك كان عن قصدٍ وتدبير، كما كان يحدث كثيرًا في ذلك الوقت.

وبعد بضعة أيامٍ من تنفيذه أرسلت إليزبث إلى جيمس السادس ملك اسكتلندة وابن ميري الرسالة التالية تقص عليه قصة مقتل والدته وتتنصل من تبعة قتلها.

-٢٩-

"والله يشهد.... أني بريئة مما حدث....."

في ١٤ فبراير سنة ١٥٨٧

أخي العزيز

ليتك تعرف (ولا تؤلم قلبك) ذلك الحزن التي أضرم قلبي وأقضَّ مضجعي بسبب الحادث المشئوم الذي حدث (على الرغم مني) ولقد أرسلت إليك الآن رسولًا من أقاربي، تفضلت قبل الآن فشملته بعطفك، ليحدثك حديث الصدق عن تلك الفاجعة التي يشق عليَّ أن أصفها لك بقلمي. والله يشهد وكثير من الناس يعلمون أني بريئة مما حدث؛ وثق أني لو كنت أمرت بشيءٍ لما تنصلت منه. ذلك أني لست من الانحطاط حيث يمنعني الخوف من مخلوقٍ أو أميرٍ أن أفعل ما أراه عدلًا أو أعترف به إن فعلته.

كلا.. إني لم أصل إلى هذه الدرجة من ضعة الأصل أو لوم الطبع. ولما كان الرياء لا يليق بالملوك فإني لا أرائي في أعمالي، بل أعلنها على حقيقتها وكما أردته منها. ولهذا فإني أؤكد لك أني وإن كنت أعلم أن هذا الجزاء كان من جنس العمل، لم تكن نفسي لترضى أن أحمل أحدًا تبعته لو أنني فعلته. ولست أحب أن أظلم نفسي بقولي إنه قد جال بخاطري. فأرجو أن تتفضل بالاستفسار عن ظروف الحادث من حامل هذه الرسالة. أما من حيث شخصك فاعلم أنك ليس لك في هذا العالم من بين أقاربك من هو أكثر حبًّا لك مني، ومن هو أكثر مني عنايةً بأمرك وحرصًا على سلامتك. وإذا كان

في الناس من يقول لك غير هذا فاعلم أنه أكثر حبًّا لغيرك منه إليك. ولست أريد أن أطيل عليك، ولهذا أختم رسالتي على عجل، وأنا أدعو الله أن يطيل عهدك.

أختك وقريبتك التي تحبك أعظم حب

إليزبث

***

لقد جمعت إليزبث في أخلاقها بين المتناقضات التي لا يكاد يصدقها عقل. جمعت بين البطولة والأثرة، وبين النذالة والعظمة؛ ولكن الشيء الوحيد الذي يغطي على ما في أخلاقها من رذائل أن حبها إنجلترا كان أعظم من حبها نفسها مهما يكن هذا الحب عظيمًا.

واستشاط أهل اسكتلندة غضبًا حين علموا بمقتل ميري، بل إن أعداء ميري أنفسهم قد غضبوا من جرأة الملكة الإنجليزية على قتل الملكة الاسكتلندية، ولكن جيمس السادس، وكان وقتئذ في الحادية والعشرين من عمره، تلقى النبأ الذي أرسلته إليه إليزبث بهدوء، ولعله قد تلقاه بشيءٍ من الرضا. ذلك أن موت أمه قد جعله الوارث الشرعي لعرش إنجلترا، ولهذا غفر لإليزبث فعلتها.

-٣٠-

"... وما كان ينطوي عليه قلبك من زمنٍ طويلٍ من إخلاصٍ لوالدتي المتوفاة"

سيدتي وأختي العزيزة

بما أنك تبرئين نفسك من هذا الحادث المشئوم برسالتك وبلسان حاملها ربرت كاري[1] خادمك وسفيرك، وبما أني لا أجرؤ على أن أظلمك فأتهمك بأنك قد لوثت يدك الشريفة بهذا العمل الذي تأباه عليك أنوثتك وجلال قدرك، كما يأباه ما بينك وبين المتوفاة من وشائج القربى، وما كان ينطوي عليه قلبك من زمنٍ طويلٍ من إخلاصٍ لوالدتي المتوفاة، وما هنالك من أدلةٍ تشهد من زمنٍ طويلٍ بطهرك وبراءتك، هذا كله أرجو أن يكون في مسلكك الشريف في المستقبل ما لا يترك للعالم سبيلًا إلى الشك في هذا الطهر وتلك البراءة.

أما الذي أنتظره أنا منك فهو أن تقدمي إليَّ في هذا الوقت من الأدلة القوية الشاملة ما أستطيع أن أجمع به شتات هذه الجزيرة، وأزيد به قوتها، وأحفظ به الدين

(1)Robert Carey

الحق، وأثبت به دعائمه؛ وما يوجب عليَّ أن أكون كما كنت من قبل أكثر الناس حبًّا لك.

[من غير توقيع]

سيقول لك حامل هذه الرسالة شيئًا بالنيابة عني، ولست في حاجةٍ إلى أن أرجو منك أن تصدق ما سيقوله لك، فأنت تعلمين أني أحبه.

***

وحكمت إليزبث إنجلترا حتى عام ١٦٠٣، ولما توفيت خلفها على العرش جيمس السادس ملك اسكتلندة، فأصبح جيمس الأول ملك إنجلترا. ولكن تاج المملكتين لم يوحد رسميًّا إلا بعد مائة عامٍ من ذلك الوقت.

الملكة إليزبث تنذر أسقفًا متغطرسًا

رسالة إلى الدكتور رتشردفكس[1]

اتهم هنري الثامن زوجته الثانية آن بولين بالخيانة الزوجية، وكان لهذه التهمة أثرها في مركز ابنتهما إليزبث. فهل كانت ابنة له شرعية أو غير شرعية؟ وظلت هذه حالها حتى اعترف آخر الأمر بأنها ابنته حقًّا، وكان هذا بعد أن أعدمت آن بولين بزمنٍ طويل.

وكان أكثر ما حذت فيه إليزبث حذو أبيها هو معاملتها لرجال الدين الذي أقامه في إنجلترا، فاستباحت أملاك الكنيسة كما استباح هنري أملاك الأديرة، فكانت تعد أموال كنيسة إنجلترا كأنها أموالها الخاصة، ولم يتردد معظم الأساقفة في الخضوع لها وإطاعة أوامرها. وكانت تهب القصور والدور التي تمتلكها الكنيسة في المدن والريف، والأملاك الزراعية التابعة للأبرشيات، لمن تشاء من أنصارها والمقربين إليها في أي وقتٍ تشاء.

وحدث في عام ١٥٧٥ أن طلب سير كرستفرهتن[2] إلى رتشردفكس أسقف إيلي[3] أن ينزل له عن بيته في لندن نظير أجرٍ أسمى. وكان سير كرستنفر رجلًا وسيمًا، وكان من عشاق الملكة إليزبث إذا صدقنا ما قالته عنه ميري ملكة اسكتلندة. وكان للقصر حدائق اشتهرت بما فيها من الورد والزعفران والفاكهة، وكان سير كرستفر يحبها ويعجب بها. ورفض الأسقف أن يخلي القصر لأن الملكة قد وهبت الكثير من أملاكه قبل ذلك الوقت لأنصارها والمقربين إليها، فلجأ هتن إلى الملكة فبعثت إلى الأسقف بالرسالة الآتية:

---

(1)Dr. Richard Fox

(2)Sir christopher Hatton

(3)Ely

-٣١-

"... أقسم بالله.. لأجردنك"

[١٥٧٣]

أيها الأسقف المتغطرس

إنك لتعرف ماذا كنت، قبل أن أجعلك كما أنت، وأقسم بالله إن لم تذعن لطلبي لأجردنك.

***

وأذعن أسقف إيلي لساعته، وكان في إنجلترا كثيرون ممن لا تعجبهم نزعته الدينية، وحرصه على المال الذي لا يقل عن حرص أحدٍ من المقربين إلى الملكة. ولما رأى أنه لا يستطيع مقاومة أتباعها استقال من منصبه الديني ومات بعد استقالته بزمنٍ قليل.

السير ولتر رالي يودع زوجته عشية اليوم الذي كان محدداً لإعدامه

ولد السير ولتر رالي[1] في عام **١٥٢٢**، وصار في سنٍ مبكرةٍ من أخصاء الملكة إليزبث ملكة إنجلترا الشهيرة، وكان نموذجًا لرجل البلاط، وللمؤرخ والمستكشف والمغامر الجريء. وهو معروف في عالمي القصص والتاريخ بالشهامة وبأعماله الكثيرة في ميدان الكشف والاستعمار، وهو الذي أدخل عادة التدخين إلى العالم المتمدين. ولكن الملكة غضبت عليه في آخر الأمر وأحلت مكانه إيرل إسكس[2]، فغادر إنجلترا إلى أيرلندة، ثم رضيت عنه فأرجعته إلى بلاطها، ولكنها غضبت عليه مرةً أخرى فأبعدته عنها. وانتهز أعداؤه بعد غضبها عليه فشله في إحدى رحلاته الاستعمارية إلى أمريكا الجنوبية، فأخذوا يكيدون له ويتهمونه بالتآمر على التاج حتى قُدِّم للمحاكمة وحُكِمَ عليه بالسجن في قلعة لندن عام **١٦٠٣** في عهد جيمس الأول. وكتب وهو في السجن كتابه المشهور في "تاريخ العالم" وهو الذي يحتوي على خطابه المأثور الذي يخاطب به الموت، ونحن نورد فقراتٍ منه هنا لأنه يمس موضوع رسالته. قال:

"وإذن فالموت وحده هو الذي يعرِّف الإنسان فجأة بقدر نفسه، فهو يحدث المتكبر المتغطرس بمهانته، ويذله لساعته، ويرغمه على البكاء والشكوى والندم، بل إنه ليرغمه على أن يكره ما مر به من سعادة".

"وهو يثبت للثرى أنه متسول مسكين لا يهمه شيء إلا الثرى الذي يملأ به فاه. وهو يمسك بمرآة أمام أجمل الغانيات فترى فيها قبحها وفسادها، ولا تستطيع أن تنكر منهما شيئًا".

"ألا ما أفصحك أيها الموت وما أقواك وأعدلك! لقد أقنعت من لا يقبل النصح،

---

(1)Sir Walter Raleigh

(2)Earl Essex

وفعلت ما لا يجرؤ على فعله إنسان، وأخرجت وحدك من هذه الدنيا من كان العالم كله يتملقه، وجمعت ما للإنسان من مجدٍ وكبرياءٍ وقسوةٍ ومطامع، وبسطت عليها كلها هذين اللفظين: هنا قبر...".

-٣٢-

".. لست إلا ترابًا"

[١٦٠٣]

زوجتي العزيزة

ستكون هذه السطور آخر ما أكتبه إليك. أرسل إليك حبي لتحتفظي به بعد موتي، ونصحي لتذكريه حين لا تجدينني. ولست أريد يا عزيزتي أن أحمِّلك أحزاني بإرادتي، فلتذهب هذه الأحزان معي إلى قبري، ولتدفن في الثرى معي. وإذا كانت إرادة الله قد اقتضت ألا أراك في حياتي بعد الآن، فاصبري على هذه البلوى وكوني كما عهدتك قوية القلب ثابتة الجنان.

أرسل إليك أولًا ما يفيض به قلبي، وما تستطيع أن تحمله ألفاظي، من شكرٍ لما بذلت في سبيل من جهد، وما أحطتني به من عناية. إن لك في عنقي دينًا لا أستطيع أن أوفيه في هذا العالم، ولا ينتقص منه أن ما بذلت من جهدٍ لأجلي لم يثمر الثمرة التي كنت تشتهينها.

وأرجو منك بحق حبي الذي كان يملأ قلبك وأنا بين الأحياء ألا يطول اعتكافك، بل حاولي ما استطعت أن تتحملي آلامك القاسية، وأن تعني بشئون طفلك المسكين؛ ذلك أن أحزانك لن تفيدني شيئًا إذ لست إلا ترابا. وعليك بعد ذلك أن تعلمي أني نزلت إلى طفلي عن كل ما أملك من عقار، وقد كتبت بذلك عقدًا في أواسط الصيف

منذ اثني عشر شهرًا، كما يستطيع صديقى برت[1] أن يشهد بذلك، وكما يذكره أيضا دلبري[2]. ولعل دمي المراق سيطفئ غل من قسوا عليَّ وأهدروا دمي، ولعل هؤلاء لا يعملون على قتلك أنت وطفلك بإلقائك بين مخالب الفاقة. ولست أدري أي صديقٍ أوجه إليك بعد موتي، لأن من كان لي من الأصدقاء قد تخلوا عني في محنتي؛ ويقيني أن موتي كان مقررًا من أول يوم. ويعلم الله أني شديد الألم لأني فوجئت بهذا الموت مفاجأة، فلم أستطع أن أتركك في حالٍ خيرٍ من الحال التي تركتك عليها. ويشهد الله أني كنت أحب أن أترك لك كل ما لدي من النبيذ، أو كل ما كنت أستطيع أن أشتريه بثمنه، لو أنني استطعت بيعه، ونصف ما لدي من المال وكل ما لدي من الجواهر إلا بعضها كنت أحب أن أوصي به لولدي؛ ولكن الله لم يعني على تنفيذ ما اعتزمته، فهو يدبر الأمر وحده؛ وما دمت غنية عن الناس فلا تحزني، لأن ما عدا ذلك لا يفيد إلا الغرور والكبرياء. أحبي الله وخذي من هذه الساعة في الاعتماد عليه، وستجدين لديه عز وجل الغني الدائم والراحة التي لا تنقطع أسبابها. فلا تجهدى جسمك وعقلك فلن يصيبك من هذا كله إلا الحزن الشديد. وعلى ابنك من صغره أن يحب الله ويخافه حتى تتمكن خشيته من قلبه في كبره، وحتى يصبح الله لك زوجًا، ولابنك أبًا، وسيكون زوجًا وأبًا لا يستطيع أحد أن يحرمكما منه.

بيلي[3] مدين لي بمائتي جنيهًا وأدريان جلبرت[4] بستمائة، وفي جرسي[5] كثيرون غيرهما لي عليهما ديون. أما ما عليَّ من ديونٍ فيمكن أداؤه من متأخر ثمن النبيذ، وإذا أردت أن تتصدقي بشيءٍ على روحي فتصدقي به على الفقراء.

وسيسعى إليك كثيرون من الناس بعد موتي لأن العالم يظن أني كنت واسع الثراء؛

---

(1)Brett

(2)Dolberry

(3)Baily

(4)Adrian Gilbert

(5) Jersey

ولكن إياك أن يخدعك ما يدعيه الرجال، وما يتظاهرون به من الحب، لأن الحب لا يدوم إلا في قلوب الأشراف الأوفياء، واعلمي أن أكبر ما يمكن أن يصيبك من الشقاء في هذه الحياة أن يغرر بك ثم تصبحي بعد ذلك محتقرة مهينة.

وأشهد أني لا أقول هذا لأمنعك من الزواج، فإني أعلم أن الزواج خير لك دنيا وأخرى. أما أنا فلست لك بعد الآن ولست لي، فقد فرَّق الموت بيني وبينك، وأبعدني الله عن هذه الدنيا وأبعدك عني.

واذكري طفلك المسكين إكرامًا لوالده الذي اختارك وأحبك في أسعد أيامه. واحصلي إن استطعت على الرسائل التي كتبتها للنبلاء أطلب إليهم فيها إنقاذ حياتي. والله يعلم أني ما رغبت في الحياة إلا من أجلك ومن أجل طفلك، ولكني أصدقك أني قد احتقرت نفسي إذ حرصت على الحياة. واعلمي أيتها الزوجة العزيزة أن ابنك ابن رجل حق، رجل عزيز النفس يحتقر الموت في أبشع صوره وأرذلها.

ليس في مقدوري أن أطيل الرسالة، فإني –علم الله– أسترق هذه اللحظات وغيري نائم، وقد آن الوقت الذي يجب عليَّ فيه أن أنتزع أفكاري من هذا العالم .. اسأليهم بعد موتي أن يعطوك جثتي التي منعوها عنك في حياتي، وادفنيها في شربورن[1] إذا بقيت الأرض لنا، أو في كنيسة إكستر[2] بجانب أبي وأمي. هذا كل ما أستطيع أن أكتبه إليك فالوقت والموت ينادياني.

وإني لأدعو الله الباقي القوي الذي لا تحيط به العقول، القادر المقتدر، العلي الأعلى، الرحمن الرحيم، واهب الحياة والنور، أن يحفظك ويحفظ ولدك.

رب هب لي منك رحمةً، وعلمني أن أعفو عمن أساءوا إليَّ واتهمونى بالباطل، واجمعني اللهم بهم في جنتك.

أستودعك الله يا زوجتي العزيزة، وبارك اللهم في ولدي المسكين. ادعي الله لي،

(1)Sherburne

(2)Exter church

وتضرعي إليه أن يشملكما بعنايته.

كتبه بيده قبل الموت من كان في وقتٍ من الأوقات زوجك ثم فرَّق الدهر بينه وبينك.

من كان لك ثم أصبح لا يملك من أمره شيئًا.

ولتر رالي

***

ولم ينفذ حكم الإعدام في السير ولتر رالي صباح اليوم التالي، بل بقي سجينًا في قلعة لندن، وسجنت معه زوجته حتى عام ١٦١٦ وفي تلك السنة سمح له أن يقوم برحلةٍ إلى نهر أرنوكو[١] للبحث عن الذهب. ولكن هذه لم تكن إلا مهلة، ثم أعدم أخيرًا في عام ١٦١٨ في بهو القلعة الذي شهد فيه يومًا من الأيام مقتل عدوه الألد إيرل إسكس.

(١) نهر **Orinoco** في أمريكا الجنوبية

كلب فرنسس بيكن من برج قلعة لندن يستعطف الملك جيمس الأول

وصف بعضهم بارون فريلم وفيكونت سنت أولبنز الشهير باسم فرنسس بيكن(١) بأنه صاحب أقوى عقلٍ في جميع العصور. ولقد أوشك بيكن أن يحقق المثل الأفلاطوني الأعلى للحاكم الصالح وهو "الملك– الفيلسوف"، فقد كان المرشد والناصح لاثنين من الملوك الذين تعاقبوا على عرش إنجلترا:

وكان بيكن نفسه من نسل أسرةٍ عريقةٍ في المجد، وكان عالمًا طبيعيًّا ومشرعًا وفيلسوفًا وسياسيًّا. وأصبح بفضل هذه الكفايات النادرة مستشار الملكة إليزبث، كما كان في عهد خلفها جيمس الأول مدعيًّا عموميًّا وحامل أختام الملك ووزيرًا للمالية.

ولد بيكن في عام ١٥٦١ ومات عام ١٦٢٦، واتهم أمام مجلس الأعيان الإنجليزي بالرشوة حين كان يحكم في بعض القضايا الهامة، واعترف أمام المجلس بالارتشاء والإهمال، ولكنه أنكر أنه حاد عن طريق العدالة. ويشتهر بيكن بمقالاته التي تحتوي على طائفةٍ كبيرةٍ من الحكم والأمثال والمعاني العميقة، التي لا يزال لها من الأثر في عقول الناس ما كان لها في أيامه؛ ولكن كاتبها نفسه كان رجلًا متلافًا قُبِضَ عليه مرتين لعجزه عن أداء ديونه، كما كان سياسيًّا دساسًا كثير المطامع، غدر مرتين بصديقه الذي أحسن إليه وهو إيرل إسكس، وكان سببًا في إعدامه، ونال على هذه الخيانة المنقطعة النظير ألفًا ومائتي جنيهًا من الملكة إليزبث، فنجا بذلك من أزماته المالية الناشئة من بذخه، وبدأ يرقى مدارج النعمة والصولة. ويصفه الشاعر الإنجليزي بوب(٢) بأنه "أعقل

(1)Baron Verulam, Viscount st. Albans. Francis Bacon

(2)Pope

بني الإنسان وأذكاهم وأحقرهم(١)".

وكان بيكن متعطشًا إلى تقدم العلوم ولكنه لم يهمل قط العمل لتقدمه هو.

وبلغ ذروة مجده في سن الخمسين من عمره، ثم أفل نجمه حين اتهم بالرشوة، وحكم عليه بغرامةٍ قدرها أربعون ألف جنيهًا، ثم عُزِلَ من منصبه وسُجِنَ في قلعة لندن لا يبرحها إلا إذا شاء الملك، وفيها كتب الرسالة التالية إلى الملك يستعطفه.

-٣٣-

"..... هنا الشقاء الذي أعانيه....".

سيدى صاحب الجلالة

إن هذا الشقاء الذي أعانيه لا يخففه أمل أرتجيه، وإنما تخففه ذكرى السعادة التي كنت أنعم بها؛ فأكبر سلوتي فيه أن أذكر... أن الحظ قد أسعدني يومًا ما بأن خدماتى الحقيرة نالت رضاء جلالتك، وأنها كانت موضع عطفك... ذلك أني كنت على الدوام أستمد من فضلك وأغترف من معينك الفياض الذي لا ينضب. وقد أعقب تلك النعمة التي ظللت أتمتع بها في الرخاء تسعة عشر عامًا نعمة أخرى من نوعها تمتعت بها حتى في أشد أوقات محنتي، وتلك هي أن التهم التي وجهت إليَّ لم تكن من بينها تهمة واحدة ذات صلةٍ خاصة بجلالتك...، وإني لأعلم علم اليقين أن أفكار جلالة الملك خالصةً نقيةً نحو خادمه الخاضع الذليل.

والحق يا صاحب الجلالة أن العناء الذي أقاسيه عناء مضن لا يحتاج إلى ما يزيده. لقد رفعت قدري يا صاحب الجلالة بما خصصتني به من فضلٍ عظيمٍ لست جديرًا به، إذ جعلتني أكبر عاملٍ في مملكتك. لقد كنت تضع ذراعك فوق ذراعي في المجلس حين كنت ترأس جلساته، إذ كان مجلسي فيه إلى جوار مجلسك. ولقد حملت صورة جلالتك

(١) انظر هذا الوصف في مقال بوب عن الإنسان Essay on Man، وانظر حياة بيكن في مقال مكولي عنه، واقرأ بعض مقالاته في كتابنا "مقالات مختارة من الأدب الإنجليزي".

المعدنية، ولكني حملت صورةً أخرى لك في قلبي. ولم يحدث في التسعة عشر عامًا التي قمت فيها بخدمة جلالتك أن سمعت منك كلمةً واحدةً جافة... ولكن أي فائدةٍ تُرجى من هذه الأشياء التي انقضى عهدها؟ إن كل ما يفيده هذا هو توكيد سقوطي من عليائي.

ذلك ما وصل إليه أمري. لقد مضى عليَّ في بؤسي هذا عام ونصف عام وإن كنت أقر أني لا أزال أتمتع بفضلك ورحمتك، لأني لا أستطيع أن أصدق أن من كنت تحبه يومًا ما يمكن أن يكون شقيًّا بائسًا.

أما ثروتي فقد أصبحت بفضل تبذيري ضئيلة لا تزيد على ما خلفه لي والدي.

... وإني لواثق يا مولاي من أن معجزةً سوف تحدث، وأنا أكثر من هذا ثقةً بإحسانك وبأن جلالتك لن تسمح بأن يشوه اسم خادمك المسكين ذلك التشويه كله، وأن يمحى إلى الأبد من سجلاتك، وقد كنت من قبل تغدق عليه كل يومٍ دلائل جديدة من الإكرام والتبجيل.

وإني العظيم الرجاء في أن الله جل وعلا سيبعث الرحمة بي في قلبك، وهو أكثر القلوب استعدادًا لها. وقد حباني الله في شدتي ورخائي بكثيرٍ من دلائل هذه الرحمة، وإن كان كفري بنعمته قد حال بيني وبين التمتع بها... وأرجو أن يأذن مولاي لخادمه الخاضع أن يختم هذه الرسالة بتلك الكلمات التي تمليها عليَّ الضرورة القصوى: أعنِّي يا مولاي وسيدي وارحمني حتى لا أضطر بعد أن حملت أختامك أن أحمل الأثقال في هذه السن، أو أن أُرغم على العمل لكسب عيشي وأنا الذي كنت أعيش للدرس والعمل... وقاك الله السوء يا صاحب الجلالة، وبارك فيك، وأفاض عليك من نعمته.

خادمك وناصحك القديم المسكين

فرنسس سنت أولبنز

***

ويشك بعضهم في أن الرسالة وصلت إلى يد الملك فعلًا، ولكن كاتبها نفسه كان يرجو أن تصل إلى يديه هي وغيرها من الرسائل التي بعث بها إليه. وسواء وصلته أو لم تصله فإن الملك قد أشفق على "خادمه وناصحه القديم المسكين" وأمر بإطلاق سراحه بعد أن قضى في السجن أربعة أيام لا أكثر.

ثم خفض جيمس الغرامة التي فُرضت عليه. وكتب بيكن بعد محنته واعتزاله الحياة العامة أهم كتاباته الفلسفية، فأخرج عدة رسائل قيمة في العلوم وفيما وراء الطبيعة وفي الأدب. على أن أهم ما يشتهر به بيكن مقالاته القصيرة القوية اللفظ والمعنى التي نشرها في السنة السادسة والثلاثين من عمره، ثم كتابه العظيم "الأداة الجديدة" Novum Organum وهو من أهم ما كُتِبَ في تاريخ الفلسفة إلى هذا اليوم.

جلليو يبصر أشياءً عجيبةً في السماء

[رسالته إلى بلساريو فنتا][1]

ولد جلليو أكبر علماء عصره في الخامس عشر من شهر فبراير سنة **١٥٦٤** قبل موت ميكل أنجلو أعظم فنانٍ في عصره بثلاثة أيام. واضطره أبوه فنسنزو[٢] أن يدرس الطب ولكنه عدل عنه إلى الرياضة والطبيعة، وأظهر فيهما من النبوغ ما أمكنه أن يدرِّسهما ويحاضر فيهما في جامعة بيزا. وفي هذه الجامعة أجرى التجربة التي أثارت عليه غضب ولاة الأمور في الجامعة والكنيسة، إذ أسقط من برج بيزا المائل ثلاثة أثقال، وأثبت أنها وإن اختلفت كتلتها تصل إلى الأرض في وقتٍ واحد، على عكس ما كان يعتقده أرسطوطاليس.

واصطدم مع ولاة الأمور مرةً أخرى بعد أن صنع لنفسه مرقبًا (ويحسن أن نشير هنا إلى أنه هو نفسه لم يخترع المرقب اختراعًا)، ونظر في السماء، ثم كتب إلى زميله الفلكي كيلر[٣] يقول: "عزيزى كيلر، لو أنك سمعت الاعتراضات التي يوجهها إليَّ أكبر فيلسوفٍ في الجامعة لأغرقت في الضحك. لقد أخذ هذا الفيلسوف الكبير يدلي في حضرة الدوق في بيزا بمحاكاته المنطقية كأنها رقى سحرية بريد بها أن يطرد الكواكب الجديدة من السماء".

وكانت الكواكب الجديدة التي يشير إليها جلليو في هذه الرسالة هي أقمار المشتري. وقد كتب جلليو من مدينة البندقية الرسالة التالية إلى كوزيمو الثاني[٤] دوق تسكانيا –وهو الذي أضحى بعد شهرين من ذلك الوقت نصيرًا له– يصف ما شاهده بمرقبه:

---

(1)Belisario Vinta

(2)Vincenzo

(3)Kepter

(4) Cosimo

-٣٤-

"... أربعة كواكب جديدة"

[في ٣٠ يناير سنة ١٦١٠]

إني الآن مقيم في البندقية أعد العدة لنشر بعض نتائج أرصاد لي أجريتها بمرقبٍ لدي على الأجرام السماوية. وكانت أرصاد عجيبة إلى أقصى حد، ولذلك فإني أحمد الله جل شأنه إذ من عليَّ بأن جعلني أول من شاهد هذه الأشياء العجيبة التي ظلت خافيةً على الناس طوال العصور الماضية، وكنت قد أثبت من قبل أن القمر جرم شديد الشبه بالأرض، وأخبرت بذلك أميرنا العظيم، ولكني لم أوضحه له كل الوضوح، لأني لم يكن لي هذا المرقب العظيم الذي أمتلكه اليوم. وقد رأيت بهذا المرقب القمر وطائفةً لا حصر لها من النجوم الثوابت لم يرها أحد من قبل، ويبلغ عددها عشرة أمثال ما يستطيع الإنسان أن يبصره بالعين العارية. وحققت فضلًا عن هذا ما كان من قبل مثارًا للجدل بين الفلاسفة وهو حقيقة المجرة.

ولكن أعجب ما كشفته كله أربعة كواكب جديدة رصدت حركاتها فرادى ومنسوبة بعضها إلى بعض، وما بينها وبين حركات الكواكب الأخرى من اختلاف. وهذه الكواكب الجديدة تدور حول نجمٍ آخر عظيم الحجم جدًّا، كما تدور الزهرة وعطارد – وسائر الكواكب المعروفة في أغلب الظن– حول الشمس. وفي عزمي حين أنتهي من طبع رسالتي أن أرسلها على سبيل الإعلان إلى جميع الفلاسفة والرياضيين، وسأبعث بنسخةٍ منها إلى الدوق الأكبر ومعها مرقب جيد حتى يتحقق بنفسه من صدق هذه الأرصاد الجديدة.

***

وكتب جلليو إلى صديقٍ له يُدعى كستلي[١]، وهو راهب من الرهبان البندكتيين[٢]، رسالةً يؤكد فيها نظرية كبرنيق التي تقول إن الكواكب تدور حول الشمس، ويعارض نظرية بطليموس والكنيسة القائلة بأن الأرض مركز الكون كله.

فاستدعي أمام محكمة التفتيش، وأمره الكردينال بلرمين[٣] كبير رجال الدين وقتئذ أن يعدل هذه النظرية، وألا يكتب أو يقول شيئًا عن نظرياته الجديدة التي يدعي فيها أن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور حولها، وهي نظريات "سخيفة باطلة يكذبها الدين وتؤدي إلى الكفر، لأنها تناقض ما ورد في الكتاب المقدس". ووعده جلليو بذلك، ولكنه أخلف هذا الوعد في عام ١٦٣٢ حين ثار الجدل مرةً أخرى حول هذا الموضوع، فاستدعته محكمة التفتيش إلى روما مرةً ثانية، وحاول صديقه كتلي أن يفهمهم أنهم لا يستطيعون "بعد الآن أن يفعلوا شيئًا يمنع الأرض أن تدور"، ولكن أحدًا لم يستمع إليه، وكان جلليو وقتئذٍ شيخًا عليلًا طاعنًا في السن، بلغ الخمسين من عمره، فخشي التعذيب الذي كان لا بد أن يلقاه إذا أصر على قوله، فركع أمام القضاة وأنكر نظريته.

ويُروى أنه بعد أن أجابهم إلى طلبهم قال بصوتٍ خافت: "ولكنها تدور ما في ذلك شك!".

وعاش جلليو طوال حياته تقريبًا بعيدًا عن أهله وأصدقائه، وفُرضت عليه رقابة شديدة وظل مهددًا بالسجن والعذاب إذا حاول نشر آرائه. وزاره في إيطاليا الشاعر الكبير مِلتن في عام ١٦٣٨، وكان قد فقد بصره ونشر منذ قليلٍ كتابه المسمى: "أحاديث في عالمين جديدين". وقال عنه ملتن في كتابه أريويجيتا[٤]، وهو دفاع مجيد عن

(1)Castelli

(٢) أتباع سانت بندكت

(3)Cardinal Bellarmine

(4)Areopageta

حرية الصحافة[1]: "زرت جلليو الشهير فوجدته شيخًا كبيرًا سجينًا بأمر محكمة التفتيش، لأنه يرى في علم الفلك ما لا يراه الموظفون من الفرنسيسكان والدمنيكان".

ومات جلليو في عام ١٦٤٢ في السنة التي ولد فيها عالم آخر كبير واصل أبحاثه وهو سير إسحق نيوتن.

بليز بسكال[2]يطلب إلى زميلٍ له أن يجري تجربةً لإثبات نظريةٍ علمية

ربما بدا للقارئ أن هذه الرسالة القصيرة غير جديرة بأن تثبت في كتابٍ أدبي قبل كل شيء، ولكننا أثبتناها لأن فيها دليلًا على روح البحث العلمي الحق. ذلك أن كاتبها العالم والفيلسوف والرياضي الكبير يأبى إلا أن يخضع أفكاره للتمحيص العلمي الدقيق، ويحرص على التعاون مع زملائه العلماء وإن كانوا أقل منه درجةً.

وقد ولد بسكال في شهر يونيه من عام ١٦٢٣؛ وأعظم ما يُشتهَر به "تأملاته[3]" التي ترجمت إلى الإنجليزية في عام ١٨٥٠، ولكن شهرته العلمية ليست أقل من شهرته الفلسفية، فهو صاحب نظرية الاحتمالات الشهيرة، وممن لهم فضل كبير في قياس الضغط الجوي. وقد زادت تجاربه من معلوماتنا عن هذا الضغط وعن توازن السوائل.

وبعد أن تنبأ بسكال بالحقيقة العامة البسيطة، وهي أن ضغط الهواء على قمة الجبل يجب أن يكون أقل منه في باطن الوادي، رأى أن تنبؤه هذا لا يمكن إثباته أو نقضه إلا بالتجارب العلمية، ولهذا بعث بالرسالة التالية إلى صهره فلورن يرييه[4].

---

(١) انظر وصف هذا اللقاء في كتابنا عن ملتن.

(2)Blaise Pascal

(3)Pensees

(4)Florin Perier

"... وأن أضايقك بأسئلةٍ في الطبيعة..."

١٥ نوفمبر سنة ١٦٤٧

لقد سمحت لنفسي بأن أقطع عليك أعمالك الرسمية اليومية، وأن أضايقك بأسئلةٍ في الطبيعة، لأني أعلم أنها تسليك وترفه عنك في أوقات فراغك... أريد أن أسألك عن شيءٍ يتعلق بالتجربة المعروفة التي تجرى بأنبوبةٍ تحتوي زئبقًا في أسفل الجبل مرةً وعلى قمته مرةً أخرى، والتي تتكرر أكثر من مرةٍ في اليوم الواحد، ليعرف بها هل يظل ارتفاع أنبوبة الزئبق واحدًا في الحالتين، أو يختلف في إحداهما عنه في الأخرى...، وإن كنت لا أشك في أن الهواء في أسفل الجبل أقل كثيرًا منه في أعلاه.

***

وبعد سنةٍ من هذا التاريخ، أي في ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٤٨، تلقى بسكال الرد التالي من يربيه:

"وأخيرا أجريت التجربة التي طالما رغبت فيها... في أعلى باي ده دوم[١]...، فوجدت ارتفاع أنبوبة الزئبق ٢٣.٢ بوصة، على حين أن ارتفاعها في الحديقة قد وصل إلى ٢٦.٣٥ بوصة، أي أن الفرق بين ارتفاع الزئبق في الأنبوبة في الحالتين بلغ ٣.١٥ بوصة، وقد أثارت هذه النتيجة دهشتنا وإعجابنا".

ومات بسكال في شهر أغسطس من عام ١٦٦٢.

---

(1)**Puy de Dome**

كرستيانيا ملكة السويد ترتد عن الدين البروتستنتي قبل نزولها عن الملك

[رسالتها إلى يير شانوت][1]

لم تكن كرستيانيا ملكة السويد وابنة جستاف أدلف[٢] تشبه أباها إلا في أنفه الأقنى، وشعره الأشقر، وجبهته العالية، وعينيه الزرقاوين. أما من حيث هي ملكة، فقد بذلت جهدها في دفع السويد إلى هوة الإفلاس، ولكن الأقدار أسعفت البلاد بنزولها عن عرشها، فنجت بذلك من التردي في هذه الهوة.

جلست كرستيانيا على العرش في الثامنة عشرة من عمرها، بعد أن بلغت سن الرشد وتسلمت مقاليد الحكم من مجلس الوصاية، أخذت من ذلك الحين تنفق المال جزافًا، وتمنح ألقاب الشرف بلا حساب، وتتطفل على الفنون والعلوم، وتستقدم إلى بلاطها الفنانين والعلماء.

واستدعت إلى بلاطها جروتيس[٣] وديكارت[٤]، ووظفت لكليهما معاشًا حسنًا. وكان ديكارت وكرستيانيا يتبادلان الرسائل على يد ييرشاتوت سفير فرنسا في السويد، وأحد المقربين إلى الملكة؛ وقد بلغ من أمر صداقتها هي وديكارت أن كان هذا الفيلسوف الكبير يتحدث إليها في رسائله عن أسباب الحب وأغراضه، وهي أمور لم يكن من عادته أن يبحث فيها..... على أن مقامه في جو الشمال القاسي لم يدم طويلًا، فمات بعد قدومه إلى السويد بزمنٍ قليل.

ولما طلب مجلس الدولة إلى الملكة أن تتزوج، رفضت رفضًا باتًّا، لأنها لم تكن تفكر

---

(1)Pierre Shanut

(2)Gustavus Adolphus

(3)Grotius

(4)Descartes

مطلقًا في أن تخضع إلى رجلٍ واحد. وكان ردها على هذا الطلب أن أعلنت اسم من يخلفها على العرش، واستمرت في لهوها وفجورها.

وكانت كرستيانيا تتلقى خفيةً تعاليم المذهب الكاثوليكي، كما كانت تسخر جهرةً من مذهب لوثر الذي يدين به شعبها. وتأزمت الأمور بينها وبين الشعب إلى أقصى حد، ولكن كرستيانيا حلت الأزمة على أهون سبيل، بنزولها عن العرش في السابعة والعشرين من عمرها. ذلك أنها وقد اعتزمت أن تعتنق المذهب الكاثوليكي لم تكن تتوقع أن يرضى شعبها البروتستنتي بأن تكون ملكة عليه. ويقول بعض المؤرخين (ولعل حياتها في روما بعد نزولها عن عرشها مما يؤيد قولهم) إنها ملّت البقاء على عرش بلادها الجرداء، وإنها كانت تتوق إلى أن تضرب للعالم مثلًا رائعًا في نزول ملكةٍ عن عرشها في عنفوان مجدها وقوتها. وقد كتبت الرسالة التالية إلى صديقها القديم شانوت تقول إنها تريد أن تهب حياتها للدرس.

-٣٦-

"لقد ملكت في غير زهو، ولست أجد صعوبةً في النزول عن الملك"

وستراس[1] في الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٦٥٤

لقد حدثتك من قبل عن الأسباب التي تضطرني إلى الإصرار على عزمي في النزول عن العرش؛ وأنت تعلم أن هذه الفكرة قد تملكتني زمنًا طويلًا، وإني لم أقرر تنفيذها إلا بعد أن ظللت أفكر فيها ثماني سنين، وقد أخبرتك برغبتي هذه من خمس سنين على الأقل، إذ تبين لي في ذلك الوقت أن لا شيء يحملك على مقاومة رغبتي هذه إلا عنايتك بأمري واهتمامك بمصلحتي وإن لم تستطع دحض الحجج التي أدليت بها مهما بذلت من الجهد لتثنيني عن عزمي. ولقد سرني أنك لم تر في هذه الفكرة شيئًا يحط من قدري، وإنك لتعرف ما قلته لك في هذا الأمر حين حظيت بالتحدث إليك عنه. ولم

(1)Westeras

يحدث خلال هذا الوقت الطويل ما يثنيني عن عزمي.

ولقد وجهت أعمالي كلها هذه الوجهة، وأردت بها هذه الغاية، ولست أتردد الآن في أن أبلغ هذا الهدف وأختفي وراء الستار. ولست أبالي أيحمد على الناس هذا العمل أم يلومويي عليه، وأنا أعلم أن المناظر التي مثلت فيها دوري لم يكن من المستطاع أن تهيأ حسب القواعد المألوفة، ولم يكن من السهل أن أدخل عليها من عنصر الرجولة والقوة ما يجعلها محببة سارة: فليحكم عليها كل إنسانٍ حسبما يراه فيها من خيرٍ أو شر، فلست أستطيع أن أضيق على أحد، ولست راغبةً في هذا التضييق لو أنني استطعته. وإني لأعلم أني لن أجد في الناس إلا نفرًا قليلًا يرضى عن تصرفي هذا، وما من شكٍّ لدي في أنك أنت من هذا النفر القليل. أما سائر الناس فإنهم يجهلون مزاجي والأسباب التي اضطرتني إلى أن أسلك هذا المسلك، وذلك لأني لم أجهر بآرائي إلا لك ولصديقٍ آخر له نفس عظيمة سامية يستطيع أن يحكم بها على تصرفي كما تحكم عليه أنت، غير أن "من لم يُرْضِ إلا واحدًا لم يُرْضِ في واقع الأمر أحدًا".

أما غيركما من الناس فليس لهم عندي إلا الاحتقار، وأعظمهم منزلةً عندي من أجد فيه من السخف ما يسليني ويضحكني.

وما من شكٍّ في أن الذين يحكمون على هذا العمل حسب القواعد المرعية والحِكم المأثورة العادية سيذمونه وينكرونه عليّ، ولكني لن أكلف نفسي عناء الرد عليهم أو الاعتذار لهم، ولن يبلغ بي الحمق الحد الذي يجيز لي أن أضيع شيئًا من الفراغ الذي أعد نفسي للتمتع به في التفكير في أمرهم، بل سأصرف هذا الوقت في التفكير في حياتي الماضية وإصلاح ما ارتكبته من أخطاء، من غير أن أدهش منها أو أندم عليها. وما أعظم ما أجده من السرور حين أذكر أني كنت أجد اللذة في عمل الخير إلى بني الإنسان، وفي إنزال العقاب بمن يستحقون العقاب. وسأجد راحةً واطمئنانًا في أني لم آخذ أحدًا بذنبٍ إلا إذا كان قد ارتكبه حقًّا، وفي أني كنت أعفو حتى عن المذنبين.

وكان لمصالح الدولة عندي المقام الأول، فضحيت في سبيلها بكل شيء، وضحيت

به وأنا مغتبطة أعظم الاغتباط، ولا أعتقد أني ارتكبت في تصريف شئونها ما ألوم نفسي عليه.

لقد ملكت في غير زهو، ولست أعتقد صعوبةً في النزول عن الملك، فلا تخش عليَّ من شيءٍ بعد هذا كله، وأنا مطمئنة آمنة من تصاريف الأقدار، وأنا سعيدة مهما يكن من أمري:

"أيها الآلهة إني جد سعيدة، وإن كان لا حول لي ولا قوة، وهذا قربان مني إلى الله".

نعم إني أسعد الناس جميعًا وسأظل كذلك على الدوام. ولست أخشى تلك الأقدار التي تحدثني عنها، فكل شيءٍ يبشر بالخير، ولكن مصيري كما تريده إلى العناية الإلهية، فأنا راضيةً بما قسم لي، خاضعةً لأحكام القدر. أما خطتي في المستقبل فليترك أمرها لي وحدي، وسأوجه ما وهبني الله من فطنةٍ إلى إسعاد نفسي، وسأظل سعيدةً ما دمت واثقةً من أنني لم أفعل شيئًا أخشى بسببه الله والناس، وسيظل ذلك نصب عيني ما دمت على قيد الحياة، وسأقضي بقية عمري أقوِّي به عزيمتي، وأرقب من هذا المرفأ الأمين متاعب أولئك الناس الذين تقذف بهم عواصف الحياة في لججها المضطربة، لأن عقولهم عجزت عن التفكير فما فكرت فيه.

ألست الآن في حالةٍ خليقةٍ بأن يحسدني الناس عليها؟ إني لا أشك مطلقًا في أن الناس لو عرفوا حقيقة أمري لحسدني الكثيرون منهم عليها. أما أنت فإنك تحبني حبًّا يسمو بك عن هذا الحسد، وأعتقد أني جديرة بهذا الحب لما في قلبي من عواطف أنت باعثها فيه. لقد بعثها في قلبي بحديثك وأرجو أن أزيدها يومًا ما بحديثي إليك في أوقات فراغي، وما من شكٍّ لدي في أنك لن تنقض عهدك، وأنك ستظل صديقًا لي مهما تبدلت الأحوال، لأني سأظل مستمسكةً بكل ما هو جدير بإعجابك وتقدرك، وسأحتفظ بصداقتي لك مهما يكن من شأني ومقامي في الحياة، وستعلم أن تبدل الأحوال لن يغير قط من تلك الأفكار التي هي عنوان مجدي وفخري.

أنت تعرف هذا كله، وتعرف من غير شكٍّ أن أعظم ما أستطيع أن أعاهدك عليه هو أن أقول لك إني سأظل ما حييت.

كرستيانيا

***

ويقول الإيطاليون إن كرستيانيا خلعت عن رأسها تاج السويد لتعنى بشئون العالم كله. وبعد أن نزلت عن الملك غادرت استوكهلم في زي الرجال، وتسمت باسم الكونت دهنا(١) ومرت في سفرها بمدينة أنزبروك(٢)، حيث قبلت رسميًا في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، وقضت بعد ذلك بضعة أشهر تجول في أوروبا. وكانت أينما وجدت تثير حولها ضجةً عنيفة. ذلك أن اعتناق ملكة بروتستنتية المذهب الكاثوليكي لم يكن شيئًا مألوفًا. ولما دخلت أرض فرنسا نفر الرجال من ملابسها وصوتها الأجش، وتشبهها بالذكور في حركاتها وأخلاقها. أما النساء فقد مررن برؤيتها، حتى قالت فيها إحدى نساء البلاط إنها أجدر النساء بأن يعرفها الناس في فرنسا بأجمعها.

ثم وصلت روما آخر الأمر في موكبٍ رسمي. ولما انفضت الحفلات التي أقيمت تكريمًا لها كتبت إلى صديقٍ لها تقول: "إياك أن تظن أن البلاد التي أقيم فيها هي موطن الحكماء والأبطال، وملجأ الكفايات والفضائل، وإن كانت فيما مضى قد أخرجت للعالم أعظم الرجال. إن فيها تماثيل ومسلات وقصورًا فخمة، ولكنها خالية من الرجال". وأقامت كرستيانيا في إيطاليا تفعل فيها ما تشاء، وكانت منذ نشأتها شديدة الإعجاب بالآداب والفنون، ولهذا أضحت في إيطاليا من أسخى الناس يدًا على الشعراء والموسيقيين والفنانين.

وكانت حاضرة البديهة شديدة الذكاء، تضرب بفكاهاتها الأمثال، وكانت تطوف ومن حولها حرسها في شوارع روما تحبو بعطفها من تشاء. أما المشاكل التي تثيرها مع

---

(1)Count Dohna

(2)Innsbruck

ولاة الأمور الدينيين والمدنيين فكانت مثارًا لاستهزاء الشعب ومصدرًا لمتاعب البابا ورجال الدين وأعيان البلاد. وكانت مولعةً بالتمثيل، أعدت له في قصرها مسرحًا تمثل فيه أقذر أنواع المسرحيات. وكانت إذا وصلت أحد المسارح العامة متأخرةً، وضج الشعب لأنها كانت سببًا في تأخر التمثيل، وقابلها بالاستهزاء والصفير، شاركته من فورها في صفيره واستهزائه.

وماتت كرستيانيا في الثانية والستين من عمرها، ولم تفقد قط شيئًا من صلفها وقوة جسمها، ودفنت في كنيسة القديس بطرس، وتليت عشرون ألف صلاة على "روح هذه السيدة العظيمة الشأن التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي"، وما من شكٍّ في أن روحها كانت أشد ما تكون حاجةً إلى هذه الصلوات.

أورنكزيب عاهل الهند يؤنب أحد مدرسيه السابقين على ما كان يفرضه عليه من "أشياء.... صعبة الفهم سهلة النسيان"

[رسالته إلى معلمه]

توج اورنكزيب ملكًا على الهند في عام ١٦٥٨ بعد نزاعٍ طويلٍ على وراثة العرش بينه وبين أبيه وإخوته. ولما تولى أمرها حكمها حكمًا صالحًا كريمًا، ظفر فيه بمجدٍ حربي عظيم. ولم يكن أورنكزيب يعتقد أن نجاحه في حكمه يعود إلى ما تلقاه من علمٍ في صباه، كما تدل على ذلك الرسالة التالية، وهي رسالة شخصية في التعليم، ولكنها عظيمة القيمة. وقد كتبها إلى معلمٍ له في صباه، جاءه يطلب إليه أن يوليه منصبًا ويهبه جائزةً. وتعد هذه الرسالة من أحسن ما كتب في التربية في الزمن القديم.

– ٣٧ -

".... طائفة كبيرة من الألفاظ الهمجية الغامضة..."

ماذا تريد مني يا أستاذ؟ هل يُعقل أن أهبك أنت منصبًا من المناصب الرئيسية في بلاطي؟ لو أنك علمتني ما كان يجب أن أتعلمه لما كان شيء في نظري أعدل من هذا، وذلك لأني أعتقد أن الطفل الذي يُربى التربية الصالحة، ويُعلَّم التعليم الصحيح، يدين لمعلمه بقدر ما يدين لوالده على أقل تقدير.

ولكن أين ذلك التعليم الذي علمتني؟ لقد علمتني أن بلاد الإفرنج كلها (وأظن أن هذا الاسم هو الذي تسمون به بلاد أوروبا) بلاد حقيرة الشأن لا تعدو أن تكون جزيرة صغيرة، أعظم ملوكها ملك البرتغال، ويليه في المنزلة ملك هولندة ثم ملك إنجلترا. أما غير هؤلاء من الملوك أمثال ملك فرنسا وملك الأندلس، فقد صورتهم لي في صورة صغار الأمراء عندنا، وقلت إن ملوك الهند أعظم من هؤلاء جميعا، لأنهم (ملوك الهند) هم العظماء الفاتحون ملوك العالم بأجمعه. وكان مما حدثتني به أن ملوك الفرس والأزبك

والقشغر والتتار واليابان والصين والمنشو، كل هؤلاء ترتعد فرائصهم فرقًا إذا ذكر اسم ملك الهند أمامهم...

ألا ما أعظم هذا العلم وأعجبه! لقد كان أجدر بك أن تعلمني كيف أميز هذه الدول بعضها من بعض، وأن أعرف مقدار قوتها وأساليب القتال لديها، وعادات أهلها وديانتهم، ونوع حكوماتها وما يعنيها من الأمور، وأن أقرأ تاريخها الصحيح فأعرف منه كيف نشأت وارتفعت، ثم اضمحلت وسقطت، وأن أعرف أيضًا أين قامت الانقلابات والثورات العظيمة التي حدثت في الدول والممالك، وكيف حدثت، وما هي الظروف التي حدثت فيها، وما هي الأخطاء التي كانت سبب حدوثها.

إني لم أكد أعرف منك أسماء آبائي الأولين، أولئك العظماء الذين أسسوا هذه الدولة، ولم أتلق عنك شيئًا من سيرتهم، وكيف شادوا هذا الملك الواسع العظيم.

لقد أردت أن تعلمني اللسان العربي والقراءة والكتابة. ألا ما أعظم فضلك عليَّ إذ أضعت وقتي في تعلم لغةٍ لا يستطيع أحد أن يتقنها إلا بعد عشر سنين أو اثنتي عشرة سنة، كأن من واجب أبناء الملوك أن يكونوا علماء مبرزين في النحو، أو جهابذة في القانون، وأن يدرسوا اللغات، غير لغات جيرانهم إذ كانوا في غنى عنها، وأن ينفقوا فيها من وقتهم الثمين ما هم في حاجةٍ إليه ليتعلموا فيه أشياءً قيمةً يجب عليهم أن يتعلموها قبل فوات الأوان، أو كان النفوس لا تشمئز أو قل يصغر شأنها إذا طلب إليها أن تصرف جهودها في هذا العمل الجاف المحزن الطويل الممل، ألا وهو حفظ الألفاظ.

ألا تعلم أن الطفولة إذا أحكم قيادها تستطيع بما يصحبها في العادة من ذاكرةٍ قويةٍ سعيدةٍ أن تستوعب آلافًا من الحكم والتعاليم النافعة التي لا تمحى آثارها طول الحياة، والتي تسمو بالعقل وتهيئه لجلائل الأعمال على الدوام؟ أليس في وسعنا أن ندرس القانون والأدعية والصلوات والعلوم على اختلاف أنواعها بلغتنا كما ندرسها باللغة العربية؟ لقد قلت لأبي شاه جهان إنك ستعلمني الفلسفة. والحق أني لأذكر جيدًا أنك ظللت سنين كثيرة تسليني بأسئلةٍ خياليةٍ عن أشياء لا يقنع بها العقل ولا تنفع المجتمع

البشري بشيء، لأنها أفكار جوفاء وأوهام كل ما تستطيع أن تقوله عنها أنها صعبة الفهم سهلة النسيان...."

ولا أزال أذكر أنك ظللت تسليني بفلسفتك الجميلة زمنًا لا أعرف طوله، ثم لم يبق منها في ذاكرتي إلا طائفةً كبيرة من الألفاظ الهمجية الغامضة، خليقة بأن تحير أذكى العقول وتشتتها وتوهنها، ولم يبتدعها أصحابها إلا ليستروا بها جهل أمثالك من الناس وغرورهم، أولئك الذين يريدون أن نعتقد أنهم يعرفون كل شيء، وأن من وراء ألفاظهم المهمة الغامضة أسرارًا عظيمة لا يستطيع غيرهم أن يدركها. ولو أنك أنرت بصيرتي بنور الفلسفة الحقة التي تثبت العقل وتعوده من حيث لا يشعر ألا يقتنع إلا بالحقائق، ولو أنك لقنتني المبادئ والعقائد التي تسمو بالنفس البشرية فوق تصاريف الأقدار وتجعلها ثابتةً لا تتزعزع، فلا تبطرها النعمة ولا تذلها الشدة، ولو أنك عنيت بأن تعلمني ما الخلق وما أصول الأشياء، وأعنتني على أن أكوّن لنفسي صورةً لعظمة الكون ونظامه العجيب، وحركة أجزائه، لو أنك علمتني هذا النوع من الفلسفة لاعتقدت أني أدين لك بأكثر مما يدين به الإسكندر لأرسطوطاليس، ولرأيت أن من واجبي أن أجزيك بغير ما جازى به الإسكندر معلمه.

ألم يكن واجبا عليك بدل أن تتملقني أن تعلمني بعض ذلك العلم الذي لا غنى للملوك عنه، أعني به ماذا يجب عليهم لشعوبهم، وماذا يجب على الشعوب لهم؟ ألم يكن واجبًا عليك أن تعرف أني سأضطر يومًا ما إلى امتشاق الحسام لأستخلص به من إخوتي حياتي وتاجي؟

أم هل عنيت بأن تعلمني كيف نحاصر المدن أو نعبئ الجيوش؟ إني مدين لغيرك بعلم هذه الأشياء، ولست مدينًا بها لك. فعُد إذن إلى القرية التي جئت منها ولا تدع أحدًا يعرف من أنت وماذا أصابك.

***

وليس لدينا ما نستطيع أن نعرف منه هل أطاع معلم الملك في صباه أمر تلميذه

القديم الذي تتضمنه العبارة الأخيرة من هذه الرسالة. وكل الذي نعرفه أنه أفلح في الاختفاء عن أعين الناس بحيث لا يعرف أحد عنه أكثر من أنه الرجل الذي تلقى هذه الرسالة.

مدام ده سفنييه[١] تصف عشاء في قصر الملك

في رسالةٍ كتبتها لابنتها مدام ده أورنيان

في أواخر القرن السابع عشر كانت سيدة ثرية من بيت مجد قديم تسكن باريس، وكانت من أذكى النساء وأقواهن بديهةً، ومن المقربات لملك فرنسا، ومن صديقات الأدباء الفرنسيين كورني[٢] وبسكال[٣] وديكارت[٤] ولاروشفوكولد[٥]، ومن أقرب المقربات إلى مدام لافايت[٦]. وكانت تترك باريس مرتين في كل عام وتهجر بلاط لويس الرابع عشر تنشد الراحة والهدوء في مسكنها الريفي، تقضي فيه وقتها، تتمتع بجمال الطبيعة، أو تكتب لابنتها المحبوبة رسائل خلدت اسمها في صفحات التاريخ. ويصف بعض النقاد هذه السيدة بأنها أقدر الكاتبات في جميع العصور، وهم مجمعون على أن ما تمتاز به من مرحٍ وفكاهةٍ قويةٍ لاذعةٍ، ومن قدرةٍ عجيبةٍ على ملاحظة الأمور التافهة المضحكة، ومن التعبير عما تشاهده في قوةٍ ووضوح، مجمعون على أن هذا كله كان من أكبر أسباب عظمة الأدب الفرنسي.

ولدت هذه السيدة –واسمها الكامل ماري ده رابوتن– شنتال مركيزة سفنييه في باريس عام ١٦٢٦، وكانت من أسرةٍ برجندية نبيلة، وكانت حسناء مثقفة، ورثت عن أبويها ثروةً طائلةً أضاعها زوجها كما أضاع ثروته الخاصة. وقد مات هذا الزوج من جرحٍ مميتٍ أصيب به في مبارزةٍ غرامية فترملت زوجته ولم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، ولم تتزوج بعده

---

(1)Marie de Rabutin-Chantal Marquise de Sévigne

(2)Corneille

(3)Pascale

(4)Descarte

(5)La Rochefoucauld

(6)Lafayette

قط، وصرفت معظم وقتها في الكتابة. وطبقت الآفاق شهرتها الأدبية، ولكن أعظم ما تشتهر به رسائلها، ومن هذه الرسائل رسالتها التي كتبتها في اليوم الخامس عشر من ديسمبر عام ١٦٧٠ إلى مسيو ده كولنج(١)، والتي بدأتها بهذه الفقرة.

"سأحدثك عن أمرٍ هو أعجب الأمور وأغربها وأكثرها إثارةً للدهشة(٢)، وأجلها شأنًا وأكثرها بلبلةً للعقل، أمر لم يُسمَع به من قبل، أمر فذ لا نظير له، شاذ لا يصدقه عقل ولا يتصوره خيال ولا يتنبأ به متنبئ، أمر هو أعظم الأمور وأصغرها، وأندرها وأكثرها ذيوعًا وانتشارًا، وأخصها إلى يومنا هذا، شيء لا نصدقه نحن في باريس فكيف يصدقه من يقيم في ليون، شيء ينادي الناس من أجله "رحماك اللهم رحماك!"، شيء يبعث أعظم السرور في قلب مدام روهان ومدام هوتريف(٣)، وملاك القول أنه شيء سيحدث في يوم الأحد المقبل حين لا يصدق من يرونه ما تشهده حواسهم، شيء يحدث يوم الأحد، ولكنه لا يتم في يوم الاثنين. لن أخبرك ما هو هذا الشيء فاحزر ما هو، وسأعطيك لذلك ثلاث فرص. ويحك! ألست تجد كلمةً تقذف بها كلبًا؟ إذن لا بد لي أن أخبرك به".

وبعد أن تثير مدام سفنييه في نفس من تكتب إليه أعظم الشوق لمعرفة ما تريد أن تخبره به، تقص عليه آخر ما حدث من الفضائح في بلاط الملك على النحو الآتي:

-٣٨-

"..... كان كل ما هنالك سحراً......"

باريس في يوم الأحد ٢٦ من إبريل سنة ١٦٧١

هذا يوم الأحد وهو اليوم السادس والعشرون من شهر إبريل، ولن تخرج هذه

---

(1)M. de Coulange

(٢) هذا التكرار مقصود وهو أيضًا في الأصل الإنجليزي.

(3)Mme de Hauterive, Mme de Rohan

الرسالة قبل يوم الأربعاء، ولكنها أقرب إلى القصة منها إلى الرسالة، قصة عرفتها توًّا من موريل(١) وهي تنبئ بما حدث في شانتلي(٢) لفاتل(٣) المسكين. لقد كتبت إليك في يوم الجمعة الماضي أنه انتحر. وإليك الآن تفاصيل ما حدث:

جاء الملك في مساء الخميس، واختير للوليمة مكانا نسق أجمل تنسيق، وأعدت الطريق الموصلة إليه أحسن إعداد، ومدت موائد العشاء، ولكن مائدة أو مائدتين كان ينقصهما اللحم المحمر، لأن ففاتل اضطر أن يعد الطعام لأكثر ممن كان يتوقع قدومهم، وكان لذلك في نفسه أسوأ الأثر، حتى لقد سمع مرارًا وهو يقول: "لقد ضاع شرفي ولست أطيق هذا العار" ويقول لجورفي(٤): "لقد ذهب عقلي، لقد ذهب عقلي"، ولم تغمض عيني لحظة واحدة طول الاثنتي عشرة ليلة الماضية، فليتك تساعدني على إصدار ما أحتاجه من الأوامر". ولم يدخر جورفي جهدًا في سبيل راحته ومساعدته، ولكن نقص اللحم المحمر (ولم يكن هذا النقص على مائدة الملك، بل كان على بعض الموائد الخمس والعشرين الأخرى) كان على الدوام يقلق باله أشد القلق. وذكر جورفي ذلك إلى الأمير، فذهب من فوره إلى مكان فاتل وقال له: "إن كل شيءٍ على ما يرام يا فاتل، ولا يمكن أن يكون شيء أحسن من عشاء الملك". فأجابه: "هذا فضل منك يا سمو الأمير، ولكني أحس بأن هناك نقصًا في اللحم المحمر على بعض الموائد". فرد عليه الأمير بقوله: "لا! لا تشغل نفسك بهذا، وسيسير كل شيءٍ على ما يرام". وانتصف الليل ولم تفلح الألعاب النارية لأن سحابةً كثيفةً غشيتها، وكانت نفقاتها قد بلغت ستة عشر ألف فرنك. وطاف فاتل بالمكان في الساعة الرابعة صباحًا، فوجد من فيه كلهم نائمين، إلا واحدًا من صغار المتعهدين، جاء وليس معه أكثر من حملين من السمك، فقال له: "أهذا كل ما جئت به؟" فأجابه الرجل وهو لا يعلم أن فاتل أرسل الرسل إلى جميع المواني التي حولهم ليأتوه بسمكها: "نعم يا سيدي".

---

(1)Moreuil

(2)Chantilly

(3)Vatel

(4)Gourville

وانتظر فاتل بعض الوقت، ولكن الموردين الآخرين لم يحضروا، فارتبك وذهب عقله، وظن أنه لن يجد من السمك غير ما عنده، فأسرع إلى جورفي وقال له: "سيدى لن أستطيع الحياة بعد هذا العار". فسخر جورفي منه، ولكن فاتل ذهب إلى غرفته، وثبت مقبض سيفه في بابها، غير أنه عجز مرتين عن أن ينتحر بهذه الطريقة، أما في الثالثة قد أنفذ السيف في قلبه.

وأقبل الحمالون في تلك اللحظة يحملون السمك، وبحثوا عن فاتل ليوزعه، وأسرعوا إلى حجرته، ودقوا الباب فلم يجبهم أحد، ففتحوه عنوة، وألفوه مطروحًا على الأرض غارقًا في بحرٍ من الدماء.

وأُرسَل رسول على الفور ليبلغ الأمير ما حدث، فحزن وبلغ منه اليأس غايته، وبكى الدوق لأن رحلته إلى برجنديا(١) لم تكن مستطاعة بغير فاتل، وقصَّ الأمير على جلالة الملك القصة كلها وهو حزين مضطرب. وعدها الكل أثر من آثار الشعور القوي بالشرف، وأخذ بعضهم يلومه وبعضهم يمتدح شجاعته.

وقال الملك إنه ظل يؤجل رحلته أكثر من خمس سنين، لأنه كان يدرك أن متاعب جمة ستحيط بها، وأخبر الأمير أنه كان واجبًا عليه أن يكتفي بمائدتين، وألا يكلف نفسه نفقة هذه الموائد كلها، وأعلن أنه لن يسمح له بعدئذ بأن يفعل ما فعل في هذه المرة. على أن هذا كله لم يجد فاتل نفعًا. وحاول جورفي أن يسد النقص الذي خلفه فاتل، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا، وكان العشاء شهيًّا أنيقًا، وكذلك كان النظام، فتعشوا وتنزهوا وصادوا، وكان المكان معطرًا بأريج القنسرين، وكان كل ما هنالك سحرًا...

***

وتلقت ابنة مدام ده سفنييه طائفةً كبيرةً من أمثال هذه الرسالة، ظلت تتوالى عليها عامًا بعد عام، إلى أن توفيت والدتها في سنة ١٦٩٦ وتركت لها ثروةً طائلة، ولكنها لم ترع لأمها عهدًا، وبلغ من جحودها أن رفضت المجيء إليها في مرضها الأخير. ولم

(1)Burgundy

تنقض على وفاة الأم بضع سنين حتى ماتت هي كما ماتت أمها بمرض الجدري.

وكل ما يعرفه العالم الآن من هذه الابنة العاقة أن لها أمًّا تركت وراءها طائفةً كبيرةً من الرسائل البديعة.

مارلبره[١] يرسل أخبار النصر إلى زوجته بعد موقعة بلنهيم[٢]

إن قصة غرام جون تشرشل وسارة جننجز[٣] من أروع القصص في التاريخ الإنجليزي كله، ولا تقل في روعتها عن الانتصارات الحربية التي جاءته بلقب دوق مارلبره، وبأملاكه الواسعة، وخلدت اسمه في تاريخ إنجلترا.

وجاء لورد مكولي في تاريخه الشهير فلم يترك منقصةً إلا وصمه بها، وحاول في هذه الأيام حفيد من أحفاده، وهو ونستن تشرشل أن يطهر اسم جده الكبير من مثالب مكولي، وأفلح في هذا إلى حدٍّ كبير. غير أن هذا المؤرخ السياسي نفسه لم يكن في مقدوره أن يخفي عن القراء أن جون تشرشل تسنم ذروة المجد عن طريق سيدة شاركه في حبها شارل الثاني، تلك هي بربارة بالمر دوقة كليفلند[٤]. ولم يكن هذا من غير المألوف في عهد آل ستيوارت.

وظل جون تشرشل وفيًّا لدوقة كليفلند حتى ظهرت في البلاط سارة جننجز ترعاها فيه أخت لها أجمل منها. فأخذ قلب جون يتحول عن الدوقة، وشُغف حبًّا بسارة، ودامت خطبته لها زمنًا طويلًا لأن أباه كان يريد له زوجةً أكثر منها ثروةً وأعظم شأنًا. غير أن الخطبة انتهت بالزواج في عام ١٦٧٨.

وارتقى جون شيئًا فشيئًا في المناصب الحربية مستندًا إلى معونة سارة في بلاط وليم الثالث ملك إنجلترا، حتى أصبح القائد الأعلى للجيش البريطاني الذي كان هو وحلفاء

---

(1)Marlborough

(2)Blenheim

(3)Sarah Jennings

(4)Barbara Palmer Duchess of Cleveland

إنجلترا يحارب جيوش لويس الرابع عشر في القارة الأوربية. وبذلت سارة جهدها لدى الملكة آن بعد أن خلفت وليم الثالث على العرش لكي ينال زوجها قائد الجيش في أوربا ما يحتاجه من تأييدٍ من الملكة والحكومة. ولما هزم الجيش الإنجليزي جيوش فرنسا وبفاريا عند قرية بلنهيم البفارية أرسل جون الرسالة التالية إلى زوجته، وكان قد مضى على زواجهما ست وعشرون سنة.

- ٣٩ -

"........ نصراً مجيداً"

في ١٣ أغسطس سنة ١٧٠٤

إن الوقت لا يسمح لي بأكثر من أن أرجو منك أن تبلغي احترامي إلى الملكة وأن تنبئيها أن جيشها قد نال نصرًا مجيدًا. وها هو ذا تالار[١] وقائدان آخران أسرى في مركبتي، وهأنذا أطارد غيرهم من القواد، وسيصف لها تفصيل ما حدث ياوري الكولونل بارك[٢] حامل هذه الرسالة إليك. وسأصفه أنا لها في رسالةٍ أخرى وصفًا أوفى من هذا بعد يومٍ أو يومين.

مارلبره

***

وكان جون تشرشل قد منح لقب دوق مارلبره قبل واقعة بلنهيم بنحو عامين. وعاد الدوق بعد هذا النصر إلى إنجلترا ليتلقى شكر البرلمان، ويتقبل ما أقطع من الأراضي الواسعة في وود استك[٣] وما جاورها.

وظل مارلبره بعدئذ في أوربا يتنقل من نصر إلى نصر، فهزم جيوش فرنسا في

---

(1)Tallard

(2)Parke

(3)Woodstock

رمليز[١] وأودنارد[٢] وميلاكيه[٣]، ولكن حزب الأحرار أخذ وقتئذ يفقد سلطانه ليحل محله حزب المحافظين الذي كان يبغض الدوق أشد البغض، وشر من هذا أن النزاع شجر بين سارة وبين الملكة، فأخذ مركز الدوق يضعف شيئًا فشيئًا حتى إذا عاد إلى إنجلترا في عام ١٧١١، وجد السلطة قد انتقلت إلى يد المحافظين، ولم يلق من الملكة إلا العداء، وانتهى الأمر بأن وقِّعت في ٣١ ديسمبر من ذلك العام أمرًا بتجريد صديقها القديم من مناصبه.

وكان ذلك الجحود شديد الموقع على قلب مارلبره، وقضى الثماني سنين الباقية من حياته في متاعب جمة، وإن يكن شرفه قد رد إليه في عام ١٧١٤ على يد جورج الأول، حين جلس آل هانوفر على عرش إنجلترا، فأنفق بقية حياته في العناية بمزارعه الواسعة، واشتهر في إدارته إياها بالتقتير الشديد. ومات في عام ١٧٢٢، ودُفن في مقابر العظماء بدير وستمنستر.

وأصبحت سارة بعد موت زوجها من أغنى نساء إنجلترا، وظلت بعد موته وفية لذكراه. وتقدم إليها وهي في الثانية والستين من عمرها عدد من الناس يطلبون يدها. وكان أعظم هؤلاء شأنًا هو تشارلس سيمور دوق سمرست[٤]. فلما تقدم إليها يخطبها لنفسه ردت عليه ذلك الرد التاريخي الشهير.

"لو أنني كنت شابة جميلة، ولم أكن كما أنا عجوزًا ذاويةً واهنة، ولو أنك استطعت أن تضع العالم كله تحت قدمي، لما وجدت لك مكانًا في قلبي، ولما نلت يدي، وهما اللذان كانا من قبل ملكًا لجون دوق مارلبره".

---

(1)Ramillies

(2)Oudenaarde

(3) Malplaquet,

(4)Charles Seymour Duke of Somerset

السيدة ميري ورتلي منتجيو تصف حماما تركيا

ليس ثمة شكٍ في أن ميري ورتلي منتجيو[1] كتبت رسائلها وهي تعتقد أنها ستنشر يومًا ما، وأنها كتبتها وهي تريد أن يظهر فيها تفوقها على مدام ده شفنييه الكاتبة الفرنسية الشهيرة التي ماتت حين كانت ميري في السنة السابعة من عمرها. وقد وصفت ميري رسائل مدام ده شفنييه في خطابٍ كتبته إلى ابنتها تقول: "كانت آخر متعة تمتعت بها هي رسائل مدام ده شفنييه، فهي رسائل جميلة حقًّا، ولكني أؤكد لك في غير زهوٍ أن رسائلي لن تفقد شيئًا من جمالها بعد أربعين عامًا من هذا الوقت، ولهذا أنصحك ألا تلقي شيئًا منها في سلة المهملات".

وإذا كانت ميري قد أخطأت في إعجابها برسائلها، فقد كان هذا الخطأ في الوقت الذي قدرته لاحتفاظ هذه الرسائل بجمالها. ذلك أنها لا تزال بعد مائتي عام من كتابتها محتفظةً بكل ما كان لها في أيامها من جمال. أما الكاتبة نفسها فقد استلفتت من أيام طفولتها أنظار أهلها بذكائها النادر ونضوج عقلها المبكر. وشرعت تتبادل الرسائل مع ورتلي منتجيو، وكان يكبرها بكثيرٍ من السنين، ولكنها أحبته وأحبها، وعارض أبوها في زواجها به ففرت معه، وقضت حياتها بعد فرارها بزمنٍ قليلٍ في الأسفار خارج إنجلترا، ولما عُيِّن زوجها سفيرًا لبلاده في تركيا، صحبته هي وابنتها إلى تلك البلاد.

وكانت حياتها فيها أحب إليها من الحياة في إنجلترا الصاخبة المتعبة. وكانت ميري قوية الملاحظة لا يفوتها شيء في جميع ما زارته من الأماكن، وكانت النساء أهم ما يستفلت نظرها، شأنها في ذلك شأن سائر النساء. ومن أقوالها في النساء الفرنسيات: "لقد رأيت كل ربات الجمال منهن، ولكني لم أر واحدةً لا تشمئز منها النفس (ولست أجد عبارةً أصدق من هذه في وصفهن)، فما أسخف ثيابهن، وما أفظع الأصباغ التي يضعنها على رؤوسهن ووجوههن والتي تباعد بينهن وبين الطبيعة الإنسانية، فهن

(1)Lady Mary Wortley Montagu

يقصصن شعرهن، ويعقصنه حول وجوههن، ويضعن عليه أثقالًا من المساحيق يخيل إليك من كثرتها أنه عهن أبيض. أما وجوههن فقد صبغنها إلى أذقانهن بطلاءٍ كثيفٍ أحمر برَّاق، يباعد بينها وبين الوجوه البشرية".

وسرها مقامها في تركيا، وكتبت عن نسائها تقول: "إن لنساء الترك من الذكاء والظرف بل والحرية بقدر ما للنساء عندنا على الأقل. أما عن أخلاقهن وسلوكهن في وسعي أن أقول إنهن شبيهات بك.... ومن رأيي أن النساء التركيات هن وحدهن اللائي يتمتعن بالحرية في الدولة".

وحاولت ميري حين جاءت إلى تركيا أن ترى كل شيءٍ فيها، وكان من أول الأماكن التي زارتها حمام تركي وصفته في رسالتها التالية:

- ٤٠ -

"... فلم أر آخر الأمر من أن أكشف عن قميصي..."

[أدرنة في أول إبريل سنة ١٧١٧]

لقد أصبحت الآن في عالمٍ جديد، يبدو لي فيه كل ما أراه مخالفًا لما عهدته من قبل. وأنا أكتب إليك مغتبطةً مسرورة، راجيةً أن تجدي في رسائلي متعة الطرافة، حتى لا تلوميني بعد الآن على أنني لا أكتب إليك عن شيءٍ غير عادي.

ولست أريد أن أشق عليك بأن أقص أنباء رحلتنا المملة، غير أني لن يفوتني أن أصف إليك ما رأيته غريبا في صوفيا، وهي من أجمل مدائن الدولة التركية، تشتهر بحماماتها الحارة التي يلجأ إليها الناس للمتعة والصحة. وأقمت فيها عن قصدٍ يومًا كاملًا لأشاهد هذه الحمامات، ورأيت أن أذهب إلى واحدٍ منها متخفيةً، فاستأجرت لهذا الغرض عربةً تركية. وليست هذه العربات كعرباتنا، بل هي أكثر منها ملاءمةً لتلك البلاد، وذلك لأن الحرارة فيها شديدة تجعل وجود الزجاج فيها متعب كثيرًا. وهي

شديدة الشبه بالعربات الهولندية، لها نوافذ ذات عوارض خشبية متقاطعة، مطلية ومذهبة، نقشت عليها من الداخل صور السلال وطاقات الزهر، تتخللها في المادة حكم وعبارات شعرية قصيرة، قد غُطيت كلها بنسيجٍ قرمزي اللون مبطن بالحرير المطرز في الأهداب. وهذه الستر تخفي من في داخل العربة عن الأعين، ولكن في وسع الراكب أن يرفعها إذا شاء، فتستطيع السيدة أن تطل من النوافذ. وهي تتسع لأربع راكبات يجلسن على وسائد قليلة الارتفاع.

وذهبت إلى الحمام حوالي الساعة العاشرة في عربةٍ مغطاة من هذا النوع، فوجدته مزدحمًا بالنساء. والحمام نفسه بناء من الحجارة في شكل القباء، خال من النوافذ إلا في سقفه حيث ينفذ إليه من الضوء ما يكفيه. وكان للحمام الذي دخلته خمس من هذه الأقبية متصلةً بعضها ببعض، أصغرها أقربها إلى الباب، وتستخدم هذه لاستقبال المستحمات، وتقف عند بابها بوابة من النساء، وتعطي سيدات الطبقة الراقية هذه المرأة ما يعادل خمسة شلنات أو عشرة، ولم أغفل أنا عن أداء هذا الواجب. أما الحجرة الثانية فهي حجرة كبيرة، أرضها من الرخام، أقيمت حول جوانبها كلها أريكتان من الرخام، إحداها أعلى من الأخرى. وفي وسطها فوارتان تخرجان ماءً باردًا يسقط أول الأمر في حوضين من الرخام؛ ثم يجري على أرض الحجرة في قنواتٍ صغيرةٍ أُعدت لهذا الغرض خاصة، وهي توصل الماء إلى الحجرة التي تليها. وهذه الحجرة الثالثة أصغر قليلا من الثانية، وحول جدرانها هي الأخرى أريكتان من الرخام، ولكنها شديدة الحرارة، ويأتي إليها ماء مكبرت من الحمامات المتصلة بها، ويتعذر على الإنسان أن يبقى فيها بملابسه. أما القبوتان الأخريان فما الحمامان الحاران، وفي إحداهما صنابير للماء البارد بلطف حرارة الماء إلى الدرجة التي يريدها المستحم.

وجئت إلى الحمام بملابس السفر، وما من شكٍّ في أنها بدت لهن جد غريبة، ولكني لم أر واحدةً منهن تظهر أقل دهشة أو تبدي شيئًا من التشوف الذي لا يليق، بل استقبلنني كلهن بأعظم ما يستطعن من الحفاوة والظرف؛ ولست أعرف في قصور الملوك في أوروبا كلها قصر تظهر فيه السيدات للغريب من الأدب ما أظهرته لي أولئك

السيدات. وأظن أن عددهن لم يكن يقل عن مائتين، ولكني لم أر على وجوههن بسمات الازدراء، أو أسمع منهن همسات السخرية التي لا يعدمها الإنسان في مجتمعاتنا حين يظهر فيها إنسان لا تتفق ملابسه كل الاتفاق مع الأنماط السائدة. وكن يكررن على الدوام قولهن (كوزل بك كوزل)، ومعناها جميلٌ جميل جدًّا. وكانت الأرائك الأولى مغطاة بالوسائد والطنافس الثمينة، وجلست عليها النساء ومن خلفهن على الأرائك الثانية جواريهن، ولكنهن لا يمتزن عنهن بشيءٍ في ثيابهن، فقد كن كلهن بحالتهن الطبيعية، أي عرايا لا يخفين شيئًا من جمالهن أو عيوبهن. ولم تقع عيني بينهن على ابتسامةٍ خليعة، أو حركةٍ خارجة عن الأدب، وكن يتحركن ويسرن في جمالٍ وجلالٍ لا يقلان عما وصف به ملتن جلال أمنا الأولى وعظمتها[١]. ورأيت بينهن نساء كثيرات لا يقل تناسب أعضائهن عن تناسب أعضاء الأمهات اللاتي صورهن جيدو[٢] أو تشيان[٣]، وكانت بشرتهن في الغالب بيضاء براقة لا يزينها إلا غدائرهن الكثيرة المتدلية على أكتافهن، وقد جدلت باللؤلؤ أو الحرير، فكن كأنهن ربات الجمال اللاتي يصفهن الشعراء.

وهنا بدا لي أني كنت صادقةً في ذلك الظن الذي جال بخاطري كثيرًا، وهو أنه لو كان من عادة البشر أن يسيروا عراةً، لما نظر الناس قط إلى الوجوه. فقد شعرت أن أرق النساء بشرةً وأجملهن أجسامًا هن اللاتي استلفتن نظري، وكان لهن القسط الأوفر من إعجابي، وإن لم تبلغ وجوههن من الجمال ما بلغته وجوه غيرهن. ولست أخفي عنك أني بلغ من خبثي أن تمنيت أن لو كان مستر جرفاس[٤] حاضرًا معي متخفيًّا لا يراه أحد. إذن لارتقى فنه بعد رؤيته هذا العدد الجم من النساء العرايا في أوضاعٍ مختلفة، بعضهن يتحدثن، وبعضهن يشتغلن، وبعضهن يشربن القهوة أو الشراب المحلى،

---

(١) تشير إلى ما وصف به ملتن حواء في الفردوس المفقود

(2)Guido

(3)Titian

(4)Mr-jervas

وكثيرات منهن راقدات على الوسائد وإلى جانبهن جواريهن (وهن في العادة فتيات جميلات في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهن)، يجدلن شعورهن، ويجعلن منها أشكالًا جميلةً مختلفة.

وملاك القول أن الحمام هو مقهى السيدات، تذاع فيه أخبار المدينة كلها، وتخترع فيها الأفائك وما إليها، ويتمتع النساء بهذه المتعة مرةً في كل أسبوعٍ في العادة، وهن يمكثن في الحمام أربع ساعات أو خمسة على أقل تقدير، ولا يصبن فيه بالبرد حين يخرجن من الحمام الساخن إلى الحجرة الباردة، وقد كان ذلك موضع دهشتي. وطلبت إلى سيدةٍ خُيِّل إليَّ أنها أعظمهن شأنًا أن أجلس إلى جوارها، وأرادت أن تحملني على خلع ملابسي لأستحم كسائر النساء، فاعتذرت إليها، ولم يكن من السهل أن أقنعها بقبول عذري.

وألحن عليَّ كلهن أن أجيبها إلى ما طلبت، فلم أر آخر الأمر بدًّا من أكشف عن قميصي، وأن أظهر لهن مشدي، فقبلن عذري، وأكبر الظن أنهن قد اعتقدن أني فُرِضَ عليَّ هذا اللباس أو بالأحرى هذه الآلة فرضًا، وأن ليس في وسعي أن أفتحها، ولعلهن قد ظنن أن ذلك من فعل زوجي. ولقد سرني منهن ظرفهن وجمالهن؛ وكان بودي أن أقضي معهن من الوقت أكثر مما قضيت، ولكن المستر و.(ورتلي) كان معتزمًا أن يواصل السفر مبكرًا في صباح اليوم التالي، وكان لا بد لي من الخروج مسرعةً لأزور كنيسة جستنيان. على أني لم أر فيها من الجمال ما يشبه ذلك الجمال الذي تركته من أجلها، فقد كانت لا تزيد على كومةٍ من الحجارة.

والآن أودعك يا عزيزتي، ولست أشك في أنني قد متعتك بوصف منظرٍ لم تقع عيناك على ما يشبهه في حياتك، ولن تجد مثيلًا له في كتابٍ من كتب الأسفار. وآخر ما أقوله لك أن الرجل الذي يوجد في أحد هذه الحمامات لا يجزي على وجوده فيه بأقل من الإعدام.

***

وكشفت السيدة ميري وهي في تركيا طريقة الوقاية من الجدري، وهي التطعيم بجراثيمه فيصاب به الشخص إصابةً خفيفةً يستطيع التغلب عليها ولا تترك أثرًا في جسمه. وطعم ابنها بهذه الطريقة، ثم أدخلت العادة إلى إنجلترا بعد عودتها إليها، وظلت متبعة فيها زمنًا طويلًا لأن هذا الوباء كان كثير الانتشار، وبقيت هذه الطريقة حتى كشف سير إدوارد جنر[١] طريقة الوقاية بالتطعيم بالمصل الواقي.

وكان ذكاء السيدة ميري منتجيو وفكاهتها اللاذعة مما خلق لها بعض الأعداء. وعاشت هي وسارة دوقة مارلبره على وفاق، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وقد كتبت في ذلك تقول: "ولا تزال كل واحدةٍ منا ترى الأخرى، وكأننا شخصان قد اعتزما أن يكره أحدها الآخر في أدب". ثم تنازعت مع ألكسندر بوب الشاعر المعروف وأصبح هذا النزاع حديث الناس في لندن. ويقول بعضهم إن منشأه أن الشاعر أعار آل منتجيو قميصين رُدَّا إليه دون أن يُغسلا، ويقول البعض الآخر إنه أبى أن يهجو شخصًا طلبت إليه ميري أن يهجوه بشعره اللاذع، وتقول حفيدتها إن بوب جهر بحبه لها فسخرت منه وأغربت في الضحك. ومهما يكن سبب هذا العداء فقد كانت نتيجته أن أخذ بوب يشير إليها من طرفٍ خفي في شعره الهجائي ويسميها سافو[٢]، وهو اسم لم يكن أحد يجهل من يقصده به. أما من الجانب الآخر، فقد ظهرت "طلقة على بوب"[٣] وعبارة أخرى بذيئة قيل إنهما من قلم ميري نفسها.

وبعد بضعة سنين من هجاء بوب غادرت السيدة ميري منتجيو إنجلترا إلى القارة الأوربية. ويصفها هوراس ووليول[٤]، وهو ممن لا يتورعون عن المغالاة في الوصف، بقوله: ".... إن البلد كله يسخر منها، وما من شكٍ في أن ملبسها وبخلها ووقاحتها تدهش من لم يسمع قط اسمها، وهي تلبس على رأسها خمارًا رثًّا لا يغطي غدائرها

---

(1)Sir Edward Jenner

(2)Sappho

(3)A Pop upon Pope

(4)Horace Walpole

القذرة السود التي تتدلى على كتفيها، والتي لم تعن قط بتمشيطها أو تجعيدها....". واشتهر زوجها بالتقتير الشديد في آخر أيامه، ولما مات عادت إلى إنجلترا، وما لبثت أن لحقت به بعد بضعة أشهر من موته.

وصية لورد تشسترفيلد[1] إلى ولده

وصف الدكتور جنسن[2] اللورد تشسترفيلد صاحب هذه الرسالة بأنه رجل له "أخلاق العاهرات، وسلوك الراقصات". والرسالة التالية واحدة من عدة رسائل كتبها فليب دورمر استانهوب[3]، إرل تشسترفيلد الرابع، السياسي والأديب، إلى ولدٍ له غير شرعي.

- ٤١ -

"إن الذين تسرهم رؤية النحاس المصقول لأكثر عدداً من الذين يسرهم منظر الذهب الغفل".

لندن في ٦ مارس سنة ١٧٤٧

ولدي العزيز:

كل الذي تفعله يؤثر فيَّ تأثيرًا كبيرًا، حسنًا كان ذلك الأثر أو سيئًا. وقد جاءتني من لوزان من زمنٍ غير بعيدٍ رسالتان عنك، كان لهما أحسن الأثر في نفسي. فأما أولاها فكانت من مدام سان جرمن[4]، وأما الأخرى فمن مسيو يمينى[5]، وكلتاهما شهادة فيك طيبة، ولذلك رأيت من حقك عليَّ ومن حق من كتبا الرسالتين أن أخبرك بهما.

---

(١) انظر الرسالة التالية التي كتبها الدكتور جنسن إلى لورد تشسترفيلد

(2)Dr. Johnson

(3)Philip Dormer Stanhope, Earl of Chesterfield

(4)St. Germain

(5)Pampigny

ذلك أن ذا الخلق النبيل يحق له أن يعرف أنه نبيل الخلق، ففي ذلك تشجيع له وجزاء على نبل خلقه. وهما لا يقولان إنك قد تعلمت فحسب، بل يؤكدان أيضًا أنك تربيت تربيةً طيبة، وأن صفات الحياء والخجل والخشونة (وقد كان لك منها كلها نصيب) قد زالت عنك أو كادت تزول. ولقد سرني هذا كل السرور، وذلك لأن المواهب الصغرى، كما قلت لك من قبل، وهي دماثة الأخلاق والتحبب إلى الناس، والنشأة الطيبة، ورقة الحاشية، واللطف في الحديث، تفيد صاحبها أكثر مما يظنه الناس عادةً، وبخاصةً في هذه البلاد.

إن الفضيلة والعلم كالذهب الخالص، لها قيمتهما الذاتية، ولكنهما إذا لم يصقلا فقدا قسطًا كبيرًا من سناهما، وإن الذين تسرهم رؤية النحاس المصقول لأكثر عددًا من الذين يسرهم منظر الذهب الغفل.

وما أكثر العيوب التي تخفيها بشاشة الفرنسيين ودماثة أخلاقهم وآدابهم، فمنهم كثيرون بعوزهم الإدراك الفطري السليم، ومنهم عدد أكبر من هؤلاء تنقصهم المعلومات العامة النافعة، ولكنهم في العادة يسترون هذه العيوب بستارٍ من آدابهم، فلا تظهر للناس في معظم الأحوال. وكثيرًا ما قلت لك عن عقيدةٍ وإيمان إن الرجل الفرنسي الذي يجمع بين الفضيلة والعلم والعقل السليم، وبين ما يمتاز به مواطنوه من دماثة الخلق ورقة الحاشية، هو أرق ما تستطيع أن تسمو إليه الطبيعة البشرية. وفي وسعك إذا شئت أن تصل إلى هذا الكمال المبتغى، وأرجو ألا يعوقك عن الوصول إليه عائق.

وأنت تعلم ما هي الفضيلة، وفي وسعك إذا شئت أن تتصف بها، فهي في متناول أي إنسان، والشقي هو الذي يفرط فيها، وقد وهبك الله العقل، ودرست من العلم ما تستطيع به أن تحصل في الوقت المناسب على كل ما يحتاجه الإنسان منه، وبهذا القدر خرجت إلى العالم في سنٍ مبكرة، وإذا لم تتحل بعد ذلك بكل الصفات الأخرى التي تكمل بها خلقك، وتزين بها نفسك، فأنت الملوم دون غيرك. ويحسن بك أن تشكر مدام جرمن ومسيو يميني وأن تشعرها بأنك مقدر لها فضلهما عليك، ورضاءهما عنك،

وشهادتهما الطيبة فيك.

والآن أستودعك الله، ولتكن على الدوام خليقًا بهذه الشهادة الحسنة، فإذا فعلت فلن تكون جديرًا بأخلص الحب فحسب، بل إنك ستتمتع به أيضًا.

***

على أن ابن لورد تشسترفيلد لم يفد كثيرًا من رسائل والده، بل ظل حتى مات في السادسة والثلاثين من عمره رجلًا مغمورًا من أوساط الناس، لا يعرف عنه أحد أكثر من أنه ظل إحدى وعشرين عامًا يتلقى++ عن أبيه أكداسًا من الحكمة الدنيوية، والنصائح الخلقية، وأنه لم يعن بشيءٍ منها، وبلغ من عقوقه أن أخفى أمر زواجه عن أبيه. ونشرت أرملته رسائل والده (ولم يكن قد كتبها لتنشر) أثناء حياة اللورد. ولما مات باعت صورًا منها بألف وخمسمائة جنيهًا.

مدام ده يميدور تؤكد للبابا أنها أضحت إمرأة صالحة

نُشنت جين أنتوانت يواسن(١) لتكون محظية ملكٍ من الملوك، وقال عنها أبوها (ولم يكن زوجًا لأمها) إنها قطعة من ملك، ومن أجل هذا علمها تعليمًا راقيًا، وزوجها بزوجٍ ثري هو ابن أخيه، وتنبأت لها سيدة عجوز بأنها ستكون محظية ملك، فجدت جين في البحث عنه، وما لبث نجمها أن تلألأ في المجتمعات الراقية، ولكن هذا لم يكن كل ما تطمع فيه، فهي تريد الملك الذي أعدتها له الأقدار. وأخيرا التقت في عام ١٧٤٤ بلويس الخامس عشر في حفلة راقصة، وملكت قلبه، فهجرت زوجها في الحال، وأصبحت محظية الملك رسميًّا. ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أضيف إلى ألقابها لقب جديد، اشتق من ضيعة وهبها لها لويس، فأضحت مركيزة يميدور.

وكان لمدام يميدور من الذكاء بقدر ما لها من الجمال؛ ولم تقنع بالحب، إن جاز أن تسمي علاقتها بالملك حبًّا، فقد كانت مطامعها لا تقف عند حد. وما كادت تنال بغيتها حتى شرعت تنظم الأمور على ما تشتهي، فكانت هي التي تفض رسائل لويس، وكان على الوزراء أن يتصلوا بها في شئون الدولة قبل أن يتصلوا بالملك نفسه، وكانوا لا يقرون أمرًا إلا إذا وافقت عليه، وكانت تراسل الدبلوماسيين الأجانب، وعظماء الرجال في داخل فرنسا وخارجها، وقواد الجيش. وكانت شديدة الذكاء. وأعانها على ذلك قريحتها الوقادة، وذوقها الفني الرفيع، وبراعتها في التصوير والحفر التي لا تكاد تقل عن براعة الموهوبين من الكتاب والفنانين، فكانت تبسط رعايتها على عددٍ كبيرٍ منهم ومن بينهم فولتير نفسه. وكانت تنفق كثيرًا من المال الذي يغدقه عليها لويس على الفتيات الفقيرات والشيوخ المساكين وعلى تعمير القرى المخربة، فكانت بذلك ترد إلى الشعب شيئًا مما تغتصبه منه الدولة.

ثم فتر حب لويس الخامس عشر لها، وآلم ذلك قلبها فاعتزمت أن تكبت عواطفها

(1)Jeanne Antionette Poisson

النسائية، وأن تكتفي بالسيطرة على مصائر فرنسا السياسية. ومن أجل هذا شجعت لويس على الاسترسال في دعارته، بل كانت لا تستنكف أن تقدم إليه من يهوى من النساء. غير أنها أخذت من ذلك الوقت تتطلع إلى نجاتها الروحية كما تتطلع إلى نجاتها المادية، فكتبت الرسالة التالية إلى البابا بندكت الرابع عشر[١] تنبئه بما فعلته لإنقاذ نفسها، وترجو منه أن يوافق على خطتها:

- ٤٢ -

"... هذه التهم الفظيعة التي يتهمونني بها..."

لقد صحت عزيمتي في عام ١٧٥٢ على ألا أحتفظ للملك بعد الآن إلا بعاطفتي الشكر والحب الطاهر النقي، تدفعني إلى ذلك بواعث ليس في إذاعتها شيء من الفائدة. وأفضيت إلى الملك بما اعتزمته، ورجوته في الوقت نفسه أن يجمع علماء السوربون ليشيروا عليه بما يرون، وأن يبعث إلى الرئيس الديني الموكل بتلقي اعترافاته ليبحث الأمر مع غيره من رجال الدين، علهم يجدون وسيلةً أستطيع بها أن أبقى قريبة منه إجابةً لرغبته، من غير أن يتهمني الناس بإثم أصبحت الآن لا أرتكبه.

ولما كان الملك يعلم أخلاقي حق العلم، فإنه لم يكن لديه أقل أملٍ في أن أرجع عما اعتزمته. ومن أجل ذلك لم ير بدًّا من إجابة رغبتي، فاستدعى إليه العلماء وكتب بذلك إلى الأب بروسو[٢] فطلب إليه هذا أن يقطع كل صلةٍ له بي، وأجاب الملك بأنه لا يقبل هذا الاقتراح مطلقًا، وأخبره أنه حين طلب إليه أن يجد وسيلةً لا تترك لدى الشعب سببًا لريبته لم يطلب هذا لنفسه بل كان ذلك منه إرضاءً لي وحدي، وأكد له أن وجودي إلى جانبه لا غنى عنه لسعادته، ولتصريف شئون الدولة على خير وجه، وأنه لا يرى أحدًا غيري يجرؤ على أن يصدقه القول، وهو الأمر الذي لا غنى للملوك عنه،

(1)Benedict XIV

(2)Perusseau

إلى غير ذلك من الأمور. وظن الأب الصالح أنه يستطيع بإصراره أن يثني الملك عن عزمه، فلم يغير رده على سؤال الملك. وكان في وسع علماء السوربون أن يجدوا حلًّا للمشكلة، ولكن اليسوعيين رفضوا كل ما اقترح من الحلول. وتحدثت وقتئذٍ إلى عددٍ من الناس الذين تهمهم مصلحة الملك ومصلحة الكنيسة، وأنذرتهم بأنه إذا لم يقبل الأب بروسو من الملك توبته فيكبح بذلك جماحه فإن الملك سوف يسلك مسلكًا يطوقنا جميعًا العار. ولم أدخر وسعًا في نصحهم، ولكنهم لم يقبلوا النصح، ثم تبين لهم بعد قليلٍ أني لم أكن مخطئةً في هذه النصيحة.

ثم فكرت طويلًا في المصائب التي حلت بي، والتي لم تفارقني وأنا في ذروة عزي ومجدي، وأيقنت أن طيبات هذا العالم لا تكفل لي السعادة فيه، فقد كان لي منها أوفى نصيب، ومع ذلك أصبحت لا أبالي بالملاذ التي كانت من قبل منبع سروري وغبطتي.

كل هذا لم يترك لدي أقل شكٍّ في أن السعادة لا تكون إلا في طاعة الله. ثم لجأت إلى الأب ساسي[1] لأني وجدت فيه الشخص الذي يؤمن بهذه العقيدة إيمانًا قويًّا، وعرضت أمري عليه جملةً وتفصيلًا. وأراد أن يختبرني ليتحقق من إخلاصي، ودام هذا الاختبار من سبتمبر إلى يناير عام ١٧٥٦، ثم طلب إليَّ بعدئذٍ أن أكتب رسالةً إلى زوجي كتب صورتها هو بيده، ولا تزال هذه الصورة لدي حتى الآن. وأبى زوجي أن يراني فأوصاني الأب أن أطلب وظيفةً في حاشية الملكة، لأستر بذلك موقفي، وأمرني أن أزيل الدرج الموصلة إلى حجراتي حتى لا يكون في مقدور الملك أن يدخل إليها إلا من بابها المعتاد. وجملة القول أنه وضع لي خطةً أسير عليها نفذتها بقضها وقضيضها ولم أحد قط عنها.

وأثارت هذه الأمور ضجةً عظيمةً في البلاط وفي المدينة، وأخذ الفضوليون من كل الطبقات يتطفلون علينا ويتدخلون في أمورنا، وأوذي الأب ساسي إيذاءً شديدًا، جاءني يخبرني أنه لن يقبل توبتي ما دمت في القصر، فذكرته بجميع التجارب التي فرضها علي،

---

(1)Sacy

وقلت له إن صلتي بالملك قد تبدلت عما كانت عليه من قبل، وإنه هو نفسه قد اعترف بذلك، فكان جوابه أن الناس سخروا من القس الذي قبل توبة الملك بعد مولد الكونت ده تولوز[1]، وأنه لا يرضى لنفسه مثل هذا الموقف الصعب. ولم أجد أنا ما أرد به على هذا النوع من التفكير، وأدليت إليه بكل ما لدي من الحجج التي ظننت أنها ستقنعه بأن الدسائس ليست هي التي تدفعني إلى مسلكي الجديد، بل تدفعني إليه بواعث دينية ورغبة صادقة في أداء الواجب، ولكنه خرج من عندي ولم يعد إلى بعد ذلك الوقت.. وحل ذلك اليوم المشئوم، وهو اليوم الخامس من شهر يناير، وأخذت الدسائس تحاك من حولي كما كانت تحاك في العام السابق، ولم يدخر الملك جهدًا في إقناع الأب ديمريه[2] بإخلاصه لدينه، ولكن الدسائس لم تنقطع أسبابها، فكان الجواب هذه المرة لا يختلف عن الجواب السابق في شيء، وبذلك حالوا بين الملك وبين القيام بواجباته الدينية، مع أنه كان شديد الحرص عليها. ولم يلبث بعد فترةٍ قصيرةٍ من الزمن أن وقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها من قبل، وكان في وسعهم، لو أنهم أخلصوا في عملهم، أن ينقذوه منها.

أما أنا فقد ساءت حالي، وتفطر قلبي حزنًا، رغم ما أظهرته من الأناة التي دامت ثمانية عشر شهرًا، خضعت فيها للأب ساسي. فعمدت إلى استشارة رجلٍ صالحٍ كان موضع ثقتي؛ وتأثر الرجل بحالي وشرع يبحث عن وسيلةٍ يقضي بها على تعاستي. وكان له صديق راهب لا يقل حظه من العلم عن حظه من الذكاء، فشرح حالي لرجلٍ على شاكلته، قادر على أن يفيدنا برأيه، وقرر كلاهما أن مسلكي لا يتطلب مني ذلك التعذيب الذي كان يراد فرضه عليَّ لأكفر به عن ذنبي.

وهكذا رفع عني الظلم الذي قاسيته، وقُبلت توبتي بعد أن مررت بفترة اختبارٍ جديدة، وأصبحت الآن أشعر بأني أتمتع بقسطٍ كبيرٍ من راحة الضمير، وإن كنت لا أزال أحس في خبيئة نفسي بشيءٍ من الألم، إذ لا أزال أرى أن من الواجب على أن

(1)Compte de Toulouse

(2)Demares

أحتاط لئلا يصغي الرجل الصالح الذي تقبل توبتي واعترافي إلى هذه التهم الفظيعة التي يتهمونني بها.

***

ولسنا نعرف هل وافق البابا على مسلك مدام ده بمبدور أو لم يوافق عليه؟ وسواء أكان ذلك أم لم يكن فقد ظلت هي المسيطرة على لويس الخامس عشر؛ وكانت هذه السيطرة شؤمًا على فرنسا، فبفضلها وقعت معاهدة فرساي التي جمعت بينها و بين روسيا والنمسا في حلفٍ واحد، ورفضت فرنسا أو رفضت مدام ده بمبدور أن تجدد اتفاق الحياد المعقود بينها وبين بروسيا لأن فردريك الأكبر كتب أبياتًا من الشعر يعرض فيها بمدام ده بمبدور. وكان حلف النساء الثلاثي –حلف إليزبث الروسية ومريا تريزا النمساوية ومداد ده بمبدور الفرنسية– كان هذا الحلف هو السبب المباشر في حرب السبع سنين المشئومة.

وظلت مدام ده بمبدور متشبثةً بمركزها في بلاط لويس رغم ما حل بها وبفرنسا من النوائب، ولم تنس قط ما وضعه اليسوعيون (الجزويت) من عقباتٍ في سبيل توبتها، فلما هاجم الكتاب ورجال الدولة فيها بعد هذه الطائفة الدينية انضمت إليهم، وظلت تعمل معهم حتى حلت جماعتهم، وأُلغي نظام اليسوعيين من فرنسا.

وكان لابد أن تؤثر مشاغل الدولة، مضافة إلى نشاطها الاجتماعي الدائم، في صحتها، فرضت وماتت في الثانية والأربعين من عمرها، وحلت محلها وهي على فراش الموت امرأة أخرى أصبح لها المقام الأول في قصر لويس الخامس عشر، تلك هي مدام دوباري[1].

(1)Madame du Barry

معركة أدبية بين صمويل جنسن وجيمس مكفرسن

في أوائل العقد السابع من القرن الثامن عشر أضيفت إلى الآداب الإنجليزية مجموعة كبيرة من الأشعار تُعرف عادةً باسم قصائد "أسين"[1]، وأسين هذا شاعر شبه أسطوري يقال إنه عاش في القرن الثالث الميلادي.

وساهم كثيرون من الناس في الطبعات الأنيقة التي ظهرت بها هذه القصائد، وكان من بين من ساهموا فيها "إيرل بروت"(٢) زوج ابنة السيدة ميري ورتلي منتجيو. وبفضل هذه القصائد أصبح جيمس مكفرسن(٣) الذي ادعى أنه جمعها في أسفاره من المشهورين في المنتديات الأدبية في لندن ،لأنه هو الذي أحب هذا التراث الأدبي القديم.

ولكن صمويل جنسن كان يرتاب في صحة هذه القصائد، وكان بعض الناس قد طلبوا إلى مكفرسن أن يطلعهم على المخطوطات الأصلية التي يدعي أنه جمعها أثناء تجواله في شمال اسكتلندة، ولكنه لم يفعل. وفي عام ١٧٧٣ طاف جنسن وصديقه بزول في الأصقاع التي طاف بها مكفرسن من قبل أثناء بحثه المزعوم عن القصائد القديمة، وبعد عامين من ذلك الوقت نشر وصفةً ممتعةً لرحلته هذه عنوانه: "رحلة إلى جزائر اسكتلندة الغربية– A Journey to the Western Islands of Scotland.

وكان من آثار رحلة جنسن أن زاد يقينه بأن القصائد المعزوة إلى أسين مزورة. وحدث قبيل نشر وصف جنسن لرحلته أن أطلع بعضهم – ولعله وليم استراهان ناشر هذا الوصف– مكفرسن على نسخةٍ من هذا الكتاب. فلما قرأ أقوال جنسن وجد فيها إشاراتٍ إلى أسين أثارت غضبه، ووجد فضلًا عن ذلك العبارة المثيرة الآتية: "أظن أن رأيي في قصائد أسين لم يعد خافيًا على أحد. ويقيني أن هذه القصائد لم توجد قط إلا

(1)Ossian Poems

(2)Earl Brute

(3)James Macpherson

في الصورة التي رأيناها عليها، ولم يستطع ناشرها أو مؤلفها أن يطلع الناس على أصلها، وليس في وسع إنسانٍ غيره أن يطلع الناس على هذا الأصل؛ وإن التجاء إنسانٍ إلى الانتقام ممن يشكُّون بحقٍ في صدق دعواه بامتناعه عن إظهار الأدلة التي تثبت صحة هذه الدعوى ليبلغ من الوقاحة حدًّا لم يعرفه العالم قبل الآن، وليس الإصرار على هذه الوقاحة إلا آخر ملجأ يحتمي به المجرمون".

واستشاط مكفرسن غضبًا حينما اطلع على هذه الأقوال، وكتب رسالةً إلى استراهان ليطلع عليها جنسن يقول فيها "إن مثل هذه العبارات لا يليق أن تصدر من كاتبٍ إلى كاتبٍ آخر"، وأنذر كاتبها بأنه "لن ينجو من العقاب". وختم الرسالة بأن طلب أن يمحو جنسن هذه الأقوال من كتابه. ولم يكن هذا من طبيعة جنسن فأصر على رأيه ولم يسمح لاستراهان أن ينشر إعلانًا أراد مكفرسن أن ينشره؛ ولو أن مكفرسن كان يعلم من أخلاق جنسن ما يعلمه الخلف لما طلب إليه أن يعتذر عن عقيدةٍ يؤمن بها.

وجملة القول أن جنسن لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، ومن أجل ذلك بعث إليه مكفرسن برسالةٍ كلها وقاحة ووعيد. ولم يعثر أحد على هذه الرسالة بعد، ولكن لدينا من الشواهد ما يدل على أن مكفرسن قال فيها: "إنه لا شيء غير شيخوخة جنسن وضعفه ينجيه من المعاملة التي يستأهلها كاذب طاعن سافل". ومهما تكن محتوياتها فقد حملت جنسن على أن يعد عدته للدفاع عن نفسه، وأن يقذف بالرسالة التالية في وجه عدوه:

- ٤٣ -

"فأما ثورتك فإني أتحداها..."

في ٢٠ يناير سنة ١٧٧٥

إلى المستر جيمس مكفرسن

تلقيت رسالتك الوقحة السخيفة، ولن أدخر وسعًا في أن أرد عليك ما وجهته إليَّ

فيها من إهانة، وسيتكفل القانون بما أعجز أنا عنه، ولن يمنعني تهديد الأوباش أن أتقصى ما أتبينه من خداعٍ وتضليل.

وأنت تريدني أن أسحب أقوالي. ولكن أي شيءٍ أسحبه؟ لقد كنت من بداية الأمر أظن كتابك غشًّا وتضليلًا، ولقد تجمع لي الآن من الأدلة ما يزيدني يقينًا بغشه وتضليله، واعتقادي هذا هو الذي يدفعني إلى أن أعلن للجمهور حججي التي أتحداك أن تنقضها.

إني رجل أحترم الحق مهما يبلغ من احتقاري لك، فإذا ما استطعت أن تثبت صحة أقوالك فإني لن أتردد في الاعتراف بها. فأما ثورتك فإني أتحداها، وأما مواهبك فقد تبين ضعفها منذ نشرت هوميروس، وإن ما سمعته عن أخلاقك ليحملني على ألا أعنى بما تقول، بل أن أعنى بما تستطيع أن تثبته.

وفي وسعك أن تنشر هذا إذا شئت.

صم. جنسن

***

ولم يصل الأمر بين جنسن ومكفرسن إلى حد المبارزة. وأكبر الظن أنهما لو تبارزا لكانت العاقبة وبالًا على الدكتور البالغ من العمر خمسة وستين سنة، والذي كان يكبر الاسكتلندي بأكثر من ربع قرن. وقد دفن كلاهما في مقابر العظماء بدير وستمنستر. فأما جنسن فقد دفن فيها رغبةً من الأمة في تعظيمه، وأما مكفرسن فقد دفن فيها بناءً على طلبه هو (فقد مات وهو عضو في البرلمان).

ولم ينقطع الجدل حول صحة قصائد أُسين بعد موت مثيريه الأولين، بل إنه لا يزال قائمًا إلى هذه الأيام، وإن لم يبلغ من العنف ما كان عليه من قبل. أما القصائد نفسها فلا يقرؤها أحد الآن.

صمويل جنسن يرفض بازدراء معونةً يعرضها عليه لورد تشسترفيلد

قضى الدكتور جنسن الكاتب الإنجليزي الشهير حياته كلها في كفاحٍ مستمرٍّ مع المرض وضعف البصر، والفقر، وإهمال الناس شأنه، وقد أشار هو نفسه إلى هذا الكفاح في مقدمة معجمه الشهير فقال:

"إذا وجد الناس أن هذا المعجم قد خلا من أشياءٍ كثيرة، فليذكروا كذلك أنه احتوى أشياءً أكثر منها؛ ومع أن الناس لم يمسكوا قط عن نقد كتابٍ ما إشفاقًا منهم على مؤلفه، ومع أن العالم قلما يرغب في أن يعرف منشأ الأغلاط التي يستهجنها، فقد يشبع غريزة الاستطلاع في القراء أن يعرفوا أن هذا المعجم الإنجليزي قد ألف من غير معونة عالم أو مناصرة عظيم، فأنا لم أكتبه في عزلةٍ منعمة مريحة، أو تحت ظلال المجامع العلمية الوارفة، بل كتبته وسط المتاعب والمشاغل، وفي أثناء المرض والحزن. وقد يخفف من زهو النقاد الحاقدين، ويفل من حدة سلاحهم، أن يعرفوا أني إذا لم أعرض في هذا المعجم لغتنا كاملةً، فإني لم أقصر إلا فيما عجزت عن إتمامه الجهود البشرية حتى هذه الساعة".

وقد فكر جنسن في مشروعه العظيم، وهو وضع أول معجمٍ شاملٍ موثوقٍ به في اللغة الإنجليزية، في عام ١٧٤٧ حين كان يسكن في جرب ستريت[١] حي صغار الكتاب الفقراء في لندن. ثم كتب إلى لورد تشسترفيلد، وكان وقتئذ وزير الداخلية، يخبره بعزمه ويعرض عليه الخطة التي اعتزم أن يسير عليها في عمله. وكتب إليه لورد تشسترفيلد يقول إنه تلقي الرسالة، وإنه يتبرع له بعشرة جنيهات. وذهب جنسن لمقابلته، فقيل له إنه "في خارج الدار"، فأخذ يكدح في معجمه سبع سنين كاملةً نال في أثنائها بعض الشهرة الأدبية بما كان ينشره من المقالات الانتقادية.

---

(1)Grub-Street

ولما فرغ من عمله وسمع بذلك تشسترفيلد، طمع في أن يكون هو الذي يُهدى إليه هذا السفر الجليل، فكتب مقالين يثني فيهما عليه، ولكن "كلمات اللورد المعسولة، وحيله الخداعة" على حد قول بزول لم تجده نفعًا، بل أنتجت بالفعل عكس ما كان ينتظر أن ينتجه ثناء رجلٍ واسع الثراء عظيم الجاه، ذي مكانة أدبية وعلمية رفيعة. ذلك أن جنسن كان قد أثبت للعالم أنه بمفرده قادر على أن يعمل ما تعمله المجامع اللغوية. وكتب الرسالة الشهيرة التالية إلى لورد تشسترفيلد رفض فيها معونته.

- ٤٤ -

".. ليس في الناس من يسره أن تُمتهن جهوده.."

في السابع من فبراير سنة ١٧٥٥

سيدي اللورد

علمت أخيرًا من صاحب "العالم"[١] أنك كاتب المقالين اللذين ظهرا في هذه الصحيفة تقرظ فيهما معجمي، وتوصي الجمهور باقتنائه. وإنه لشرف لي عظيم أن تخصني بهذا الثناء الذي لا أعرف كيف أتلقاه أو بأية عبارةٍ أرد عليه، لأني لم أتعود من قبل عطف العظماء وفضلهم عليّ.

لقد زرت فخامتك على أثر تشجيعٍ قليلٍ رأيته منك، فراعني سحر حديثك كما راع سائر الناس، وتمنيت أن يكون لي خير "السيطرة على من له السيطرة على الأرض"، وأن أحظى بتلك الرعاية التي رأيت العالم كله يكافح لكي يحظى بها.

ولكني لم ألق منك تشجيعًا، وأبى عليَّ كبريائي، أو تواضعي، أن أعود لزيارتك. ولقد استنفدت حين تحدثت إليك على مسمع من الناس كل ما يستطيعه أمثالي من طلاب العلم قليلي الاختلاط، الذين لم يتعودوا أدب بطانة الملوك والعظماء، وبذلت في

---

(1)The World

ذلك غاية جهدي، وليس من الناس من يسره أن تُمتهن جهوده مهما تكن قليلة. ومضت سبع سنين بعد اليوم الذي انتظرت فيه في حجرتك الخارجية، أو طردت من باب دارك، قضيتها كلها جادًّا في عملي، تحيط بي الصعاب التي لا أرى فائدةً من ذكرها أو الشكوى منها.

وهأنذا أوشك أن أنشره من غير أن أتلقي معونةً أو كلمة تشجيع أو ابتسامة رضا، وتلك معاملة لم أكن أتوقعها، ولكني لم يكن لي قبل ذلك نصير يبسط عليَّ رعايته.

أليس النصير يا مولاي إنسانًا ينظر غير مكترث إلى رجلٍ يكافح في الماء لينجو من الهلاك، حتى إذا وصل إلى البر سالمًا أثقله بالمعونة التي لم يعد في حاجةٍ إليها؟

ولو أن الثناء الذي تفضلت به على جهودى قد جاء قبل الآن، لعددت ذلك منك عطفًا وكرمًا، ولكنك أبطأت في بذله حتى فقد قيمته، ولم أعد أستمتع به...؛ وحتى عرفني الناس ولم أعد في حاجةٍ إليه. وأرجو ألا يكون ثمة خروجٍ على الأدب إذا لم أعترف بالفضل لمن لم يسد إليَّ فضلًا، وإذا لم أشأ أن يعرف الناس أني مدين لإنسانٍ بما أعانني الله على عمله بنفسي.

وإذ كنت قد وصلتُ بعملي إلى المرحلة التي وصل إليها من غير أن يكون لأحدٍ من أنصار العلم فضل عليَّ، فإني لن يغضبني أن أفرغ منه وفضل الناس عليَّ أقل مما كان لهم من قبل إن كانت هذه القلة مستطاعة. ذلك أني قد محوت من زمنٍ طويل من ذلك الحلم، الآمال التي كنت أمني بها نفسي، والتي كانت سبب بهجتي وافتخاري.

من خادم خامتك الخاضع المطيع

صمويل جنسن

***

ولم يُهدَ المعجم بطبيعة الحال إلى لورد تشسترفيلد، ولم يظهر اللورد شيئًا من الغضب حين تلقى هذه الرسالة، ولم يرد عليها، متبعًا في ذلك ما جرت به تقاليد الطبقة التي ينتمي إليها. ولما سُئل عن رأيه في رسالة الدكتور جنسن أقر بأنها رسالة حسنة الأسلوب.

صمويل جنسن يهنئ صديقةً قديمة بزواجٍ غير شريف

رسالة كتبها إلى هسترلنش ثريل[1]

كتب الدكتور جنسن الرسالة التالية إلى هسترلنش ثريل وهي زوجة لعاصر خمر ثري لا يحبها ولا تحبه، وكانت حين أصبحت صديقة جنسن وسلوته في سنينه الأخيرة، أمًّا لاثني عشر طفلًا ثمانية منهم أحياء. وكان يأوي إلى بيتها إذا مرض أو عز الصديق، وكان إذا جاء أعدت له على الدوام حجرةً في مقرها الريفي، أو في بيتها في مدينة بريتن[2]، يستريح فيها من عناء العمل.

ودامت الصداقة بين مسز ثريل وزوجها من ناحية ومستر جنسن من ناحيةٍ أخرى ستة عشر عامًا، إذا جاء إلى دارها أعدت له الطعام وعنيت بشئونه، وقابل عندها من يحب مقابلته من الناس، وقد اصطحبته مرةً في رحلةٍ إلى باريس وبريتن وباث[3].

وبعد أن ظلت على هذه الحال ستة عشر عامًا، عرفت فيها في الأوساط الراقية بأنها صديقة الكاتب الكبير واللغوي العظيم، تبدلت حالها فجأةً فضاقت ذرعًا "بالرجل المتحير المتحذلق الحزين"، وكانت زوجته قد ماتت كما مات زوج مسز ثريل، وكان يسر جنسن من غير شك أن يتزوج بها لو أنها رضيت به، ولكنها تزوجت سرا بجبريل بيزي[4] وهو مغن إيطالي وسيم تعرفت به أولًا في عام ١٧٨٠.

ولم تدر كيف تبلغ خبر هذا الزواج إلى بطلها القديم وصديقها العزيز، وكان وقتئذ في سن الثالثة والسبعين، ثم استقر رأيها آخر الأمر على أن ترسل إليه رسالةً تقول فيها إنها اعتزمت الزواج، وذكرت له اسم من ارتضته زوجًا لها، فأجابها جنسن بالرسالة التالية:

---

(1)Hester Lynch Thrale

(2)Brighton

(3)Bath

(4)Gabriel Piozzi

- ٤٥ -

"**.... أسأل الله أنه يغفر لك ذنبك....**"

سيدتي

إذا كنت قد فهمت رسالتك على حقيقتها، فإنك قد تزوجت زواجًا غير شريف، فإذا كان هذا الزواج لم يتم بعد فإني أرجو أن تهيئي لي من نورك فرصةً أتحدث فيها إليك، أما إذا كنت قد هجرت أبناءك وارتددت عن دينك، فإني أسأل الله أن يغفر لك ذنبك. وإذا كنت قد أسأتِ إلى سمعتك وإلى بلدك، فأرجو ألا يدفعك حقك إلى ما هو أكثر من هذه الشرور، وإذا كان الفصل الأخير من الرواية لم يمثل بعد، فإني أتوسل إليك وأنا الذي أحببتك وأجللتك وبجلتك وخدمتك وظللت زمنًا طويلًا أعتقد أنك خير نساء العالم كلهن، أتوسل إليك أن تسمحي لي بأن أراك قبل أن تقدمي على عملٍ لا تستطيعين الرجوع فيه.

ولقد كنت.. كنت من قبل يا سيدتي

المخلص الوفي لك

صمويل جنسن

***

ولكن هذه الرسالة لم تجده نفعًا، فقد تزوجت مسز ثريل بالمغني الإيطالي، وانتهى بزواجها عهد الصداقة الذي خفف كثيرًا من بؤس جنسن وشقائه نحو عشرين عامًا.

ولما مات جنسن نشرت مسز ثريل "قصصها"[1] قبل أن يكتب بزول سيرة جنسن الخالدة، وكشفت فيها الستار عن العشرين سنة الأخيرة من حياته.

وراج الكتاب رواجًا منقطع النظير، فنفدت نسخ الطبعة الأولى منه يوم صدورها بالذات. وأشارت مسز ثريل في هذا الكتاب إلى صلتها بالدكتور جنسن بقولها: "النير الذي وضعه زوجي على عاتقي!".

---

(1)Anecdotes

رسالتان من فولتير بينهما خمسون عامًا

كان فولتير شاعرًا وفيلسوفًا ومؤرخًا، ومكافحًا عن حرية العقل، وكان فوق ذلك أقوى من عبَّر عن مبادئ الحرية، ومن أكبر العاملين على إذاعتها بين الناس. وقد ظلَّ أكثر من خمسين عامًا حاملًا لواء الأدب الأوروبي، لا ينازعه في ذلك منازع. وكان اسمه الحقيقي فرنسوا ماري أرويه، لكنه اتخذ لنفسه اسم "فولتير" ليوقع به رسائله.

وتلقى فولتير تعليمه في إحدى مدارس الجزويت، ونُفي من بلده مرارًا، وعاش أزمانًا طويلةً في عواصم أوروبا وبلاط ملوكها وأمرائها، ولم يكن يرى أنه كفء لهؤلاء الملوك والأمراء وكفى، بل كان يعد نفسه أرقى منهم. وعاد أخيرًا ظافرًا منتصرًا إلى باريس موطنه الأول في الرابعة والثمانين من عمره؛ وكان يعد المستبدين والمتعصبين مهما كبر مقامهم ألد أعدائه.

واشتهر فولتير بسخريته اللاذعة، وعلمه الغزير، ودفاعه المجيد عن حقوق الإنسان وحرية عقله، وكان لكتاباته أعظم الأثر في اندلاع لهيب الثورة الفرنسية.

وأرسل فولتير في التاسعة عشرة من عمره إلى مدينة لاهاى ملحقًا بالسفارة الفرنسية فيها، وهناك أحب الآنسة دنوييه[١]، وكانت فتاة رقيقة الحال، وأراد أن يتزوجها، ولكن أمهما والسفير لم يوافقا على هذا الزواج، وأمر السفير بسجن فولتير ولكنه استطاع الخروج من نافذة السجن والفرار مع حبيبته إلى بلدة شفننجن[٢] على بعد خمسة أميال من لاهاى، ليعدا فيها العدة لفرارها إلى باريس. وإلى القارئ رسالة كتبها إليها وهو في السجن:

---

(1)Dunoyer

(2)Scheveningen

- ٤٦ -

"..... وهم يستطيعون قتلي ولكنهم لا يستطيعون إخماد ما أشعر به من الحب إليك....."

لاهاي في سنة ١٧١٣

إني هنا سجين بأمر الملك، وهم يستطيعون قتلى ولكنهم لا يستطيعون إخماد ما أشعر به من الحب إليك. نعم يا حبيبتي ومعبودتي! سأراك الليلة ولو كلفني ذلك قطع رأسي، وأستحلفك بالله ألا تنطقي بهذه العبارات التي تكتبينها إليَّ. إنك لا بد أن تعيشي، وأن تكوني على حذر، ولا تأمني لوالدتك، فهي ألد أعدائك. وماذا أقول بعد هذا؟ احذري جميع الناس، ولا تثقي بأحدٍ منهم، واستعدي للفرار حين يبزغ القمر. وسأغادر أنا الفندق متخفيًّا، واستقل عربةً مغطاةً أو مكشوفةً نفر بها في لمح البصر إلى شفننجن، وسآخذ معي قلمًا وورقًا لكتابة رسائلنا.

فإذا كنت تحبينني فكوني رابطة الجأش، واستجمعي كل قواك، واستعيني بعقلك وقوة بديهتك، ولا تمكني والدتك من أن تلاحظ عليك شيئًا غير عادي. واجتهدي في أن تحضري معك صورتك، وثقي بأن أشد ما يمكن أن ألاقيه من عذاب، لا يستطيع أن يحول بينى وبين خدمتك.

وما من شيءٍ قط يقوى على التفريق بيني وبينك. إن حبنا يقوم على الفضيلة، وسيدوم ما دامت حياتنا. أستودعك الله، وأؤكد لك أن ليس ثمة خطر لا أستطيع أن أواجهه من أجلك، فأنت جديرة بذلك وبأكثر منه. وداعًا يا حبيبة قلبي.

أرويه

***

ولكن فولتير عجز عن تنفيذ خطته. فقد انكشف أمرهما، وأُرسل هو إلى باريس ليعمل في مكتب محام، وتزوجت الفتاة بغيره وصارت فيما بعد كنتة ونترفيلد[١]، ونشرت أمها بعد بضع سنين من زواجها عددًا من الرسائل التي كتبها إليها فولتير لتستعين بذلك على أداء ديونها.

أما فولتير نفسه فقد ترك دراسة القانون واشتغل بالأدب حتى أصبح من كبار الأدباء الذين يشار إليهم بالبنان في أوروبا كلها. وبعد أن فرَّ من الباستيل وأقام في إنجلترا ثلاث سنين صار صديقًا حميمًا لمركيزه شتليه[٢]، وكانت من كبريات الهواة في الفلسفة والموسيقى واللغات والرياضة، ودامت صداقتهما حتى توفيت في عام **١٧٤٩** في الثالثة والأربعين من عمرها، وكان هو وقتئذ في الخامسة والخمسين.

---

(1)Countess of Winterfield

(2)Marquise de Châtelet

والرسالة التالية كانت في واقع الأمر مقدمة للقاء بزول بفولتير في مساء اليوم السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٧٦٤، وبزول هذا هو كاتب سيرة جنسن الشهيرة التي يعدها بعضهم أحسن السير على الإطلاق، والتي يقال إنها رفعت من شأن جنسن أكثر مما رفعته أعماله كلها مجتمعة. وقد وصف بزول لقاءه بفولتير بقوله: "وجلسنا أنا وفولتير في حجرة الاستقبال، وأمامنا نسخة من الكتاب المقدس. وإذا كان هناك شخصان اشتد بينهما الجدل حتى وصل إلى أقصى حدٍّ فقد كنا نحن هذين الشخصين... وكان حديثنا كله.. كنزًا لا يُستطاع تقدير قيمته."

وكتب بزول بعد ذلك رسالةً إلى فولتير. وقد وجد رد فولتير على هذه الرسالة بين أوراق بزول الخاصة بعد مائةٍ وخمسين عامًا من كتابته.

- ٤٧ -

"الشيء اللطيف الذي كانوا يسمونه روحا"

شاتو ده فرناي[1] في ١١ فبراير سنة ١٧٦٥.

إن حدة طبعي ومرض عيني لا يسمحان لي بأن أرد عليك بالرشاقة والدقة اللتين يحتمهما عليَّ واجبي لك وحبي إياك. ويبدو لي من رسالتك أنك عظيم الاهتمام بذاك الشيء اللطيف الذي يسمونه روحًا؛ أما أنا فأؤكد لك أني لا أعرف عنه شيئًا، فلست أعرف كنهه ولا مستقره ولا مستقبله، فتلك كلها أمور يعلمها القساوسة والشبان المتعلمون حق العلم. أما أنا فلست إلا إنسانًا جاهلًا أشد الجهل.

فليكن ذلك ما يكون، ولكني أؤكد لك أن روحي يجل روحك أعظم إجلال.

---

(1)Chateau de Ferney

وإذا ما عرجت على البيداء التي أعيش فيها وجدتني (إذا كنت حيًّا) مستعدًا لأن أقدم لك خضوعي وإجلالي.

ف

إلى سيدي

المسيو بزول

بطرف مسيو بول والمسيو بيير

تراز

تورين

***

وقد كتب فولتير رسالته هذه باللغة الإنجليزية، وكانت كثيرة الأغلاط الهجائية. وكان فولتير في أخريات حياته مولعًا بالإشارة في رسائله وأحاديثه إلى قوله المشهور: "لو لم يكن هناك إله لكان من الواجب اختراع إله... ولكن الطبيعة كلها تنادي بأعلى صوتها إن الإله موجود حقًّا...".

وقد عبَّر فولتير عن هذه الحقيقة في رسالةٍ كتبها إلى فردرك وليم[١] ولي عهد بروسيا بعد أن زار بلاطه في بتسدام[٢].

ويروى أنه قال وهو على فراش الموت:

"إني أموت وأنا أعبد الله، وأحب أصدقائي، ولا أبغض أعدائي، وأحتقر الخرافات...".

A Monsieur
Monsieur Boswell
Chez Messieur Paul et Pierre
Toraz
A Turin

(1)**Frederick William**

(2)**Potsdam**

جان جاك روسو ومدام ديبناي يضعان القواعد التي تقوم عليها صداقتهما

كان جان جاك روسو عدو الأرستقراطية والملكية المطلقة الألد، ولكنه كان في بعض الأوقات يجد فيهما نفعًا كثيرًا، وقلما كان يعدم من الأثرياء من يأخذ بيده. على أنه لم يكن يحتفظ بأنصاره منهم زمنًا طويلًا. وإذا كانت الحياة الهمجية هي خير أنواع الحياة كما يقول، وإذا كان المجتمع يفقد الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من خير، فقد كان روسو نفسه خير شاهدٍ على صدق قوله. لكن العبقرية تغتفر لها أخطاؤها، وبخاصةً إذا باعدت بيننا وبينها الأيام. وكان روسو عبقريًّا ما في ذلك شك، ولقد وصفه بعضهم بقوله: "كان جان جاك رجلًا ذكيًّا مجنونًا، وكان ذكاؤه لا يظهر إلا إذا كان محمومًا، ولذلك كان من الخير ألا نعالجه أو نهينه". وقد كشف عن ذكائه فيما كتبه من المسرحيات الغنائية القليلة، وفيما وصفه من مبادئ للثورة الفرنسية في "إميل" والعقد الاجتماعي، وفيما كان له من الأثر في أسلوب جوت وشتو بريان وجميع الكتاب الروائيين الذين جاءوا من بعده.

وكانت مدام ديبناي[١] أيضًا من أذكى النساء "كانت دمثة الأخلاق، حاضرة البديهة، عظيمة المواهب، تحافظ في المجتمع على الآداب المرعية، وإن كانت هي نفسها لا خلاق لها".

ونشأت بين روسو ومدام ديبناي صداقة لم تدم طويلًا، وحدث في عام **١٧٥٦** أن ملَّ روسو المقام في باريس، وفكر في العودة إلى جنيف. وفي هذا الوقت تلقى من مدام ديبناي دعوةً للإقامة في كوخٍ قائمٍ في مزرعة زوجها في منتمورنسى[٢]، فلبى الدعوة بعد شيءٍ من التردد، وانتقل إلى هذه "الصومعة" في شهر إبريل هو وحبيبته تريز لفسير

(1)Madame d'Epinay

(2)Montriorency

وأمها[1]. ولم يتمتع روسو في صومعته بما كان يبتغيه من العزلة لأن مدام ديبناي أمطرته وابلًا من الرسائل تدعوه فيها إلى زيارتها، بل إنها أرسلت إليه إحدى وصيفاتها لتحفظه من الملل.

وحاول دنيس ديدرو[2] أن يحمل روسو على العودة إلى باريس، وقال له إن من القسوة والغلظة أن تقيم مدام لفسير العجوز في قلب الغاب في الشتاء. ورد عليه روسو ردًّا لاذعًا، ونشأت بين الاثنين معركة أدبية تدخلت فيها مدام ديبناى لتصلح بينهما، وقالت إنها تخشى أن يملها هي الأخرى بعد قليل. وقد كتب روسو الرسالة التالية ردًّا على رسالةٍ لها في هذا الموضوع:

-٤٨-

".. إني مرهف الحس أكثر من سائر الناس."

[١٧٥٦]

ما الذي أوحى إليك بأني سأملك بعد قليل؟ ولو كان لدي ما أشكو منه لكان هو إفراطك في تعظيمي وحسن معاملتي. ذلك أن الذي أحتاجه في كثيرٍ من الأحيان هو أن ألقى بعض الصد منك، ولست أكره أن أعنف إذا كنت أستحق التصنيف. ويخيل إليَّ أني أنا الشخص الذي يرى في هذا التعنيف أحيانًا نوعًا من التحفي، ولكن في وسع الإنسان أن يخاصم صديقه من غير أن يزدريه، وأن يخبره في وجهه بأنه أبله دون أن يقول له إنه رذيل؛ ولست أظنك تقولين إنك تحسنين إليَّ إذا أحسنت الظن بي، أو تنطقين بما يفهم منه أنك إذا فحصت عن أخلاقي قل احترامك لي، ولن تقولي لي في يومٍ من الأيام – "ولدي الشيء الكثير مما أستطيع أن أخبرك به عن أخلاقك".

لو قلت لي ذلك لكان إهانةً لي ولك أنت أيضًا، لأنه لا يليق بخيار الناس أن

---

(1) Thérèse Le Vasseur

(2)Denis Diderot

يكون لهم أصدقاء لا يحسنون الظن بهم. ولو أني أسأت فهم شيءٍ قلته في هذا الموضوع لبادرت دون شكٍّ إلى إيضاح ما كنت تقصدين به، ولما أصررت على تكرار الألفاظ بعينها في جفاءٍ وفتور، فيكون لها نفس الأثر المشئوم الذي كان لها من قبل. ويقيني يا سيدتي أنك لا تسمين هذا مجرد مظهرٍ خارجي، أليس كذلك؟

وما دمت قد طرقت هذا الموضوع فإني أحب أن أحدثك عما أطلبه من الصديق، وما أرضى أن أعطيه إياه. ولا تظني أنك ستجدين أخطاء فيا سوف أضعه من قواعد الصداقة، أو تعتقدي أن من السهل عليك أن تحوليني عنها، لأن هذه القواعد وليدة مزاحي وأخلاق، وهما اللذان لا أستطيع قط أن أتحول عنهما.

أول ما أريده من الأصدقاء أن يكونوا لي أصدقاءً لا أسيادًا، وأن يشيروا عليَّ ولا يحكموني، وأن يكون لهم كل ما يريدون من الحقوق على قلبي، وألا يكون لهم شيء منها على حريتي. وأشد ما أعجب له من الناس تذرعهم بالصداقة للتدخل في شئوني من غير أن يطلعوني هم على شئونهم.

وأحب أن يصارحني أصدقائي بآرائهم في وألا يخفوا منها شيئًا عني، وأن يقولوا لي كل ما يشاءون فأنا أجيز لهم كل شيءٍ إلا أن يحتقروني. على أنني لا أبالي بالاحتقار يأتيني من شخصٍ لا أعبأ به، أما إذا وُجِّه إلي من صديقٍ فمن حقي عليه أن يتحقق أولًا أني خليق به. وإذا كان من سوء حظه أن يحتقرني فليمتنع عن أن يجهر لي باحتقاره، بل عليه أن يقطع حبل صداقتي، فذلك حق لنفسه عليه. وفيما عدا الاحتقار وحده أرى أن من حق صديقي عليَّ أن يعاتبني، وأن يستخدم في عتابي أية لهجةٍ يشاء، ومن حقي أنا بعد أن استمع لكل ما يريد أن يقوله أن أقبل عتابه أو أرفضه، على أني لا أحب أن أُلام لومًا دائمًا على شيءٍ مضى وانقضى.

وما يضايقني من الأصدقاء حرصهم الشديد على أن يصنعوا معي المعروف آلاف المرات. ذلك أن في صنع المعروف شيئًا من مظاهر الولاية عليَّ لا أطيقه، وأن في وسع غير الأصدقاء أن يصنعوا معي هذا المعروف نفسه، وحسبي من الأصدقاء أن أحبهم

ويحبوني، وهو كل ما يراد من الصديق.

وأشد ما أغضب له من الأصدقاء أن يستطيع كل زميلٍ جديدٍ أن يحل في قلبهم محلي، مع أنهم هم وحدهم الذين أطيق صحبتهم في العالم كله. وما من شيءٍ يجعلني أطيق معروف الأصدقاء إلا حبهم لي، فإذا ما أرغمت نفسي على قبول معروفهم فإني أحب منهم أن يكون صنيعهم ملائمًا لذوقي أنا لا لأذواقهم، لأن أفكارنا لا تتفق في كل شيء، وكثيرًا ما يكون الخير في رأيهم شرًّا في رأيي.

وإذا حدث بين الصديقين ما يخشى منه على صداقتهما وجب على المخطئ أن يسعى هو إلى مصالحة صديقه. على أني أعترف أن هذا القول لا معنى له إذ ليس في الناس من لا يعتقد أنه على حق، ولهذا يجب على من بدأ النزاع أن يبدأ هو بحسمه، محقًّا كان أو غير محق. وإذا ثرت بغير حقٍّ أو غضبت لغير سببٍ معقول، فليس له أن يحذو حذوي ويجاريني في فعلي ، فإن فعل كان ذلك دليلًا على أنه لا يحبني. إني أريد منه غير هذا، أريد منه أن يشعرني بحبه وأن يعانقني وأن يظهر في عناقه هذا عطفه وحنوه. هذا ما أريده يا سيدتي؛ وجملة القول أني أحب أن يبدأ هو بإطفاء نار غضبي، ولست أشك في أن هذا لن يحتاج منه إلى وقتٍ طويل، فلم تكن في قلبي قط نار لا تطفئها دمعة. وإذا ما هدأت أعصابي، وخجلت من نفسي، وأسفت على فعلتي، وتحيرت في أمري، فليعاتبني أشد العتاب، وليصارحني بما أخطأت فيه، وما من شكٍّ في أنه سيجد مني ما يرضيه. وإذا كان منشأ الغضب أمرًا تافهًا لا يستحق البحث والجدل، فلتطو صفحته، وليكن المعتدي أول من يمسك لسانه عن الجدل، ولا يتشبث بأن يكون آخر المتكلمين، ظنًّا منه أن هذا مما يقتضيه الشرف. ذلك ما أحب أن يفعله صديقي معي، وما لا أتردد في أن أفعله معه في مثل هذه الحال.

وأحب بهذه المناسبة أن أذكر لك حادثةً صغيرةً لا أظنك فكرت فيها وإن كان لها بك صلة. وهي خاصة برسالةٍ تلقيتها منك ردًّا على رسالةٍ بعثت بها إليك، ولكنها لم تعجبك كما يبدو لي، وأظن أنك لم تفهمي معناها حق الفهم. لقد كتبت إليك ردًّا جميلًا أو أن هذا على الأقل هو ما كنت أظنه. وكانت تسري فيه من غير شكٍّ روح

الصداقة والمودة، ولكني لا أنكر أنه كان يحتوي على بعض عباراتٍ اندفعت إليها في غضبي. ولما أعدت قراءتها لنفسي خشيت ألا يكون وقعها عليك خيرًا من وقع رسالتي السابقة، ومن أجل هذا ألقيتها في النار من فوري، ولشد ما ارتاحت نفسي إذ رأيت بلاغتي كلها تحترق في اللهب. ولم تعرف أنت شيئًا من هذا، وكان من أسباب فخري أني استسلمت لك وخضعت لسلطانك. ذلك أني أعتقد أن شرارةً صغيرةً قد تؤجج نارًا يصعب إخمادها. وهل يخفى عليك يا صديقتي العزيزة الوفية ما قاله فيثاغورس في هذا المعنى، وهو أنه ليس للإنسان أن يحرك النار بسيفه، وهو قول ينطوي في رأيي على مبدأ من أهم مبادئ الصداقة وأقدسها.

ولا تعجبي إذا قلت إني أطلب إلى الصديق أكثر مما ذكرته في هذه الرسالة. بل أكثر مما يطلبه هو إليَّ وأكثر مما يطلبه إليَّ لو أنه كان في مكاني وكنت أنا في مكانه. إني أعيش في عزلة، ولهذا تجديني مرهف الحس أكثر من سائر الناس، فإذا تنازعت مع إنسانٍ يعيش بين الناس ويختلط بهم، فإن ذلك لا يكلفه أكثر من أن يفكر في الأمر ساعةً، ثم تصادفه مئات من الأمور التي تشغل باله فينسى من فوره نزاعه.

أما أنا، فأظل طول ليلي أرقًا أفكر فيه، ولا يذهب من عقلي وأنا أسير بمفردي من شروق الشمس إلى غروبها لا يستريح منه قلبي لحظةً واحدة، ولذلك كان ما أعانيه من قسوة الصديق في يومٍ واحد يعدل ما يعانيه غيري في عدة سنين. وأنا كما تعلمين رجل مريض، ومن حق المريض على بني الإنسان أن يتغاضوا عما في خلقه وطبعه من هنات؛ وأي صديقٍ بل وأي إنسانٍ مهذب تطاوعه نفسه على أن يؤلم مخلوقًا تعسًا مصابًا بداء عضال أنهكه. وهد قواه؟ إني رجل فقير وإن فقري (أو ما يبدو لي أنه فقر) ليجعلني خليقًا بشيءٍ من الرعاية. ولقد أجبتي أنت إلى كل ما أريده من الإغضاء عن عيوبي الصغيرة دون أن أطلب ذلك إليك، لأن الصديق الوفي لا ينتظر حتى يطلب إليه صديقه ما يريده منه. ولكن أسألك أيتها الصديقة العزيزة – وأسألك بصراحة– هل تعرفين أن لي أصدقاء؟ أقسم لك أن من حسن حظي أني قد عرفت كيف أستغني عنهم، وإني لأعرف الكثيرين ممن لا يأسفون إذا استطاعوا أن تكون لهم عليَّ يد، بل إني

لأعرف الكثيرين ممن لهم عليَّ يد، أما القلوب الخليقة بأن تستجيب إلى نداء قلبي– فحسبي أني لم أعرف منها غير قلبٍ واحدٍ قط.

فلا تعجبي إذن إن رأيت أن كرهي باريس يزداد يومًا بعد يوم، وما من شيءٍ يأتيني منها –غير رسالاتك– إلا وهو يزيد في غضبي. ومن أجل هذا لن أدخلها أبدًا. وإذا رأيت أن تفصحي عن رأيك في هذا الموضوع، وأن تفصحي عنه بأعظم ما تشائين من القوة والصراحة فإن ذلك من حقك. وثقي بأني سأتقبله بقبولٍ حسن، وأنه سيكون عديم النفع. وبعدئذٍ لن تحاولي مرةً أخرى......

***

لم يكن روسو ولويز فلورنس بترولي تارديود سكلافل[1] مركيزة إيبناي حبيبين بالمعنى الذي يفهمه الناس من الحب، ويذكر لنا روسو في اعترافاته أحد الأسباب التي قامت في سبيل حبهما هذا، فيقول إنها "كانت نحيلة شديدة الاصفرار لها صدر يشبه ظهر يدها" وكانت العلاقة التي بينهما علاقة صداقة. وقد ردت على رسالته السابقة بالرسالة التالية:

-٤٩-

"…. دع هذه الشكاوى الصغيرة لذوي القلوب الخاوية والرؤوس الفارغة…."

[١٧٥٦]

أظن يا صديقي أن من أصعب الأمور أن يضع الإنسان قواعد ثابتة للصداقة. ذلك أن من الطبيعي أن يضع كل إنسانٍ من القواعد ما يلائم تفكيره الخاص. فأنت تذكر لي ما تطلبه إلى أصدقائك ثم يأتيني من فوري صديق لي ويطلب إليَّ ما لا يتفق قط مع ما تطلبه أنت، ونتيجة ذلك أن أجد مزاجي يخالف مزاجه فأقضي يومي أحاول

(1)Louise Florence Petroneille Tardieu D'Esclavelles

فعل ما ينفر مني أصدقائي، وأتمنى لهم كل سوءٍ بطبيعة الحال. غير أن هناك قاعدتين أساسيتين لا غنى عنهما في الصداقة ويجب أن يستمسك بهما كل إنسان، وهما التسامح والحرية. وكل صداقةٍ لا تشتمل على هاتين الخلتين لا تلبث عراها أن تنفصم. وإليك بالاختصار الأساس الذي أقيم عليه صرح صداقتي. إني لا أطلب إلى الصديق أن يحبني حبًّا عارما دافقًا سريع التأثر، أو حبًّا أقدم عليه بعد تفكيرٍ وتدبير، بل إني لأرتضي منه أن يحبني على قدر ما يستطيعه من الحب وما يسمح له به مزاجه هو؛ وذلك لأن رغباتي مهما تكن قوية لا تستطيع أن تبدل مزاجه سواء كان متحفظًا في حبه أو متقلبًا أو رزينًا أو مرحًا. وإذا ما طلب المرء في الصديق صفةً تنقصه، وظل يذكر هذا ويلح فيه، أدى ذلك إلى كره صديقه له ونفوره منه، والواجب علينا أن نحب أصدقاءنا كما يحب الفنانون الصور، فهؤلاء تقع عيونهم على ما في الصور من جمالٍ ولا يبصرون ما عدا ذلك.

وتقول: إذا ما شجر النزاع، وإذا ما أساء صديقى معاملتي، وما إلى ذلك... إني لا أفهم قولك "أساء صديقي معاملتي"، ولا أعرف أن في الصداقة معاملة سيئة إلا معاملة واحدة هي عدم الثقة. أما إذا قلت: رأيت صديقي يومًا من الأيام يخفي عني أشياء، وفي يومٍ آخر يفضل هذا الشيء وذاك عن محبتي والاهتمام بي، أو أنه كان يجب عليه أن يتخلى عن ذلك الشيء لي، فإن هذا كله يؤدي حتمًا إلى السخط. دع إذن هذه الشكايات الصغيرة إلى ذوي القلوب الخاوية والرؤوس الفارغة. إنها خليقة بصغار المحبين السخفاء الأدنياء، فهؤلاء ديدنهم المنازعات الصغيرة الدنيئة الحقيرة التي تجعلهم ضيق العقول شكسين نكدين خبثاء أو أراذل. وكان خليقًا بهم أن يسكنوا إلى أصدقائهم، ويطمئنوا إليهم، وأن تطفح وجوههم بالبشر، وتفيض قلوبهم بالمحبة، وأن يزدادوا كل يومٍ حبًّا لأصدقائهم، وذلك لما يتصفون به من استقامة الأخلاق وطيبة القلوب، وما أوتوا من نظرةٍ فلسفيةٍ إلى الأمور. وهل يليق بالفيلسوف صديق الحكمة أن يفعل ما يفعله المتزمتون منخوبو القلوب ضيقو العقول، الذين يعمدون إلى الخرافات الباطلة الحقيرة فيستبدلونها بحب الله؟ ثق يا صديقي أن الذي يفهم الطبيعة البشرية على حقيقتها لن

يصعب عليه أن يصفح عن هنات الناس وأن يحبهم لما يفعلون من خير، لأنه يعرف أن فعل الخير من أشق الأمور. إن القواعد التي تضعها للصداقة، والتي جاءت عقب نزاعك مع ديدرو[1] لتذكرني بالخطة التي يسلكها الإنجليز على الدوام حين تكشف لهم أزمة من الأزمات عن عيبٍ في تشريعهم، هو منشأ تلك الأزمة التي لا يستطيعون علاجها من فورهم لأنهم لم يكونوا يتوقعون حدوثها.

أما أنا يا صديقي، فإني حين قلت لك في بدء رسالتي إن الحرية والتسامح هما أساس الصداقة الحقة، لم أكن أظن أني سأسمح لنفسي بمثل ما سمحت لها به من الحرية، وأطلب لها ما طلبت من التسامح. وأرجو أن تصفح عما في هذه الرسالة من سوء أدبٍ يغفره لي وفائي وإخلاصي. أي إلهي! ما أكثر الحقائق الطيبة التي أستطيع أن أضمنها هذه الرسالة، ولكني لا أستطيع تسطيرها فيها لأني أضطر إلى قطع سلسلة أفكاري مرةً كل دقيقتين. إني لا أجد من الوقت ما يسمح لي بأن أُسرَّ إليك إني أتحداك أن تغضب مني بالرغم من أنني تعمدت في هذه الرسالة أن أستثير غضبك. ذلك أني مهما كثرت أخطائي أحبك من كل قلبي!

***

ومع هذا فلم ينقض إلا قليل من الزمن حتى كتب روسو إلى مدام ديبناي يقول: "إن الصداقة التي كانت بيننا قد انقطع حبلها". وكان سبب ذلك أن الدسائس حيكت شباكها من حولهما حتى لم يستطيعا الإفلات منها. وكانت هذه الدسائس من الغموض والتعقيد بحيث لا نستطيع نحن أن نعرف حقيقتها. فمن قائل إن مدام ديبناي مرضت (بالسرطان)، وأنها اعتزمت أن تذهب إلى جنيف لتستشير الطبيب العالي الشهير الدكتور ترنشن[2] وطلبت إلى روسو أن يصحبها، فأبى روسو بحجة أن صحته لا تساعده على تحمل متاعب السفر. وتدخل ديدرو في الأمر كعادته وكتب إلى روسو

(1)Diderot

(2)Dr Tronchin

يقول له إن من حق من أحسنت إليه أن يصحبها إلى حيث تريد، ولو أدى به ذلك إلى أن يخوض من أجلها الوحل.

وكتب إليه صديق آخر هو البارون جرم[1] يلومه على فعله، فرد عليه روسو برسالةٍ طويلةٍ يشرح فيها سبب امتناعه عن الذهاب و يقول: "أما ما تشير إليه من فضلٍ وإحسان، فإني لا أريدها ولا أشعر بأني مدين بالشكر لمن يفرضونهما عليَّ".. وفي شهر ديسمبر من عام ١٧٥٧ غادر روسو "الصومعة" التي كان يقيم فيها.

ويقص روسو نفسه قصةً أخرى في اعترافاته التي كان يقرؤها على أصدقائه في عام ١٧٧٠ فيها طعن على أخلاق مدام ديبناي واتهامها بتهمٍ أخلاقية شنيعة. ولكن روسو لا يوثق بالكثير من أقواله في اعترافاته، والقصة التي يرويها عن سفرها لا يقبلها عقل.

أما مدام ديبناي نفسها فتذكر في مذكراتها القصة الأولى، قصة المرض وجحود روسو، غير أن أصدقاء روسو ومنهم لورد بيرن يتهمون ديدرو وجرم بتزوير هذه المذكرات.

---

(1)Baron Grimm

من رسائل بنجمين فرنكلن

كان بنجمين فرنكلن متعدد الكفايات، كان سياسيًّا، وعالمًا طبيعيًّا، وفيلسوفًا، وناشرًا، وطابعًا ومخترعًا. وقد عمَّر طويلًا (١٧٠٦– ١٧٩٠)، وكتب كثيرًا، ودوَّن سيرته بيده، ولكن كثيرين غيره قصوا تاريخ حياته.

وقد كتب الرسالة التالية إلى الآنسة أ. هبرد[١] ابنة زوجته من رجلٍ آخر تزوجت به قبله.

- ٥٠ -

".... سنلحق به بعد قليل...."

فلادلفيا في ٢٣ فبراير سنة ١٧٥٦

أعزيك. لقد فقدنا قريبًا لنا عزيزًا وعظيمًا. ولكن هذه سنة الحياة، وقد قضت إرادة الله أن تطرح هذه الأجسام الفانية حين يريد أن تبدأ الروح حياتها الحقة، فليست حياتنا هذه إلا حياة الجنين لا تعدو أن تكون استعدادًا للحياة.

والإنسان لا يكمل مولده إلا بعد أن يموت، فلا تحزن إذن لأن طفلًا جديدًا قد وُلد بين الأحياء الخالدين، ولأن عضوًا جديدًا ضم إلى مجتمعهم السعيد؟ إننا أرواح، وإذا كان الله قد أعارنا أجسادًا حين نستطيع أن ننال بها البهجة والسرور، ونكسب بها العلم والمعرفة، ونسدي الخير لبني جنسنا، فذلك فضل منه وإحسان. وإذا ما أصبحت الأجساد عاجزةً عن الوفاء بهذه الأغراض، وأضحت سببًا في آلامنا بعد أن كانت منبعًا لسرورنا وبهجتنا، ولم تعد عونًا لنا على إسداء الخير، بل صارت عقبةً في سبيله، وملاك القول إنها حين تعجز عن أداء الأغراض التي خلقت من أجلها، فإن من رحمة الله بنا

(1)A. Hubbard

وفضله علينا أن يهب لنا وسيلةً نتخلص بها منها، وتلك الوسيلة هي الموت. ألا ترين أنا نختار برضانا بعض الأحيان موتًا جزئيًّا؟ ألسنا نبتر من أجسادنا العضو الفاسد الذي لا نستطيع علاجه وإصلاحه؟

إن الذي يقتلع ضرسًا من أضراسه يقتلعه بمحض اختياره لأن ألمه منه يذهب بخلعه، ومن يتخلص من جسمه يتخلص لساعته من آلامه الحاضرة والمستقبلة، ومن الأمراض التي يتعرض لها والتي تسبب له الآلام. وما أشبهنا نحن وصديقنا بجماعةٍ دُعوا إلى رحلةٍ يتمتعون بها أبد الدهر. فأما هو فقد أُعِدَّ له مقعده قبلنا فسبقنا إليه لأنه يصعب علينا أن نبدأ كلنا هذه الرحلة في وقتٍ واحد. فلم إذن نحزن أنا وأنت إذا كنا سنلحق به عما قليل، وإذا كنا نعرف أين نجده؟

أستودعك الله

ب. فرنكلن

من بنجمين فرنكلن إلى وليم استراهن

كان وليم استراهن[١] الذي كتب له فرنكلن هذه الرسالة صديقًا له حميمًا، وكان من أعضاء البرلمان الإنجليزي، وكان قبل أن يختار عضوًا فيه قد أخذ على عاتقه طبع معجم صمويل جنسن الكبير في اللغة الإنجليزية، ونشر المجلد الأول من تاريخ هيوم[٢]. ثم نشر بعدئذ كتب آدم اسمث[٣] وجبن[٤] وغيرها.

وظل فرنكلن واستراهن يتراسلان نحو أربعة عشر عامًا، وكثيرًا ما احتوت رسائلهما أخبار الأسرتين. وكان فرنكلن يوقع رسائله لصديقه: "صديقك المحب وخادمك الخاضع" وكثيرًا ما زاره في لندن.

ثم أصبح استراهن قبيل الثورة الأمريكية عضوًا في البرلمان البريطاني. وقد كتب فرنكلن رسالته التالية إلى صديقه القديم وهو في سورة الغضب.

- ٥١ -

".... انظر إلى يديك...."

فلادلفيا في الخامس من شهر يوليو سنة ١٧٧٥

مستر استراهن:

أنت من أعضاء البرلمان، ومن الأغلبية التي حكمت على بلادي بالدمار، وأخذت تحرق مدننا وتذبح أبناءنا. انظر إلى يديك! إنهما ملطختان بدماء أهلك! لقد كنت أنا وأنت صديقين زمنًا طويلًا، ولكنك الآن عدوي وأنا– عدوك

بنجمين فرنكلن

---

(1)William Strahan

(2)Hume

(3)Adam Smith

(4)Gibbon

على أن فرنكلن لم يبعث بهذه الرسالة بعد أن كتبها إلى استراهن، بل بعث إليه بدلًا منها برسالةٍ أخرى ودية بعد بضعة أيامٍ من كتابة هذه الرسالة، وتلقى عليها ردًّا مثلها. وعاد فرنكلن واستراهن صديقين حميمين مرةً أخرى بعد الثورة الأمريكية.

كاترين الكبرى تذكر تفاصيل المؤامرة التي رفعتها إلى عرش روسيا

[رسالتها إلى الكونت ستانسلوس بنياتوفسكي]

لعل حق كاترين في أن تلقب بكاترين الكبرى لا يستند إلى أساسٍ أقوى من كثرة عشاقها. وتعد كاترين من "المستبدين الأخيار"، ولكن استبدادها كان أعظم كثيرًا من خيرها. فأما أنها كانت ذات مواهب عظيمة فذلك ما لا ينكره إنسان، وأما أنها أفادت روسيا بمواهبها فأمر مشكوك فيه كل الشك، ولعل أعظم ما أفادته منها بلادها أنها أنقذتها من حكمٍ شر من حكمها هي، وهو حكم بطرس الثالث.

وما يشهد لكاترين بالمقدرة وقوة الشخصية أنها وهي أميرة ألمانية استطاعت أن تحكم "جميع الروس"، وأن تتشبه ببطرس الأكبر قيصر روسيا. خطبت هذه الأميرة وهي في سن الخامسة عشرة من عمرها إلى بطرس وارث عرش روسيا بعد إليزبث، فتخلت من فورها عن مذهبها البروتستنتي واعتنقت المذهب الأرثوذكسي الروسي الذي لم تكن تؤمن به إيمانًا حقًّا. ولم تكتف بهذا بل اتخذت اللغة الروسية لغةً أصليةً لها. وكان الدين واللغة أقل الفروض التي كان لابد أن تتحملها للوصول إلى عرش روسيا. أما أشقها عليها فهو زواجها ببطرس في عام ١٧٤٥.

لقد كان بطرس إنسانا مسلوب العقل، وكان من نعم الله على روسيا أنه لم يحكمها أكثر من ستة أشهر. فقد كان رجلًا حقيرا قبيح المنظر –يشبهه مواطنوه بالقرد–، فاجرًا، أهم ما يعني به ملذاته وملابسه. وكان يعجب بفردرك الأكبر ملك بروسيا إعجابًا بلغ حد العبادة، ولعل منشأ هذا الإعجاب ظنه أن بينه وبين فردرك شبهًا كبيرًا، وأن ملك بروسيا كان ذا ذوقٍ في اختيار الملابس وزينتها، والأزرار والأنواط، وهي أحب الأشياء إلى بطرس. ولم يكن بطرس يكره إلا شيئين اثنين هما كاترين والشعب الروسي. وبعد عشر سنين من زواج بطرس وكاترين ولد لهما ولي العهد، وكان بطرس

يشتهر بضعفه وفجوره، أما كاترين فلم تكن تشتهر بغير فجورها.

ولما خلف بطرس الإمبراطورة إليزبث على عرش روسيا أقدم على كثيرٍ من أعمال الحق، أثارت عليه غضب الأشراف ورجال الجيش، وأصبحت كاترين بفضل حبها للشعب الروسي وصلاتها برجال الحرس –وقد كان أخوان من أسرة أرلوف من عشاقها– أصبحت كاترين محور مؤامرة تدبر لخلعه؛ ونجحت المؤامرة وكان نجاحها سببًا في إبعاد وارثين شرعيين عن عرش روسيا هما إيفان السادس(١) الذي سجن في قلعة شلوسلبرج(٢) وابنه بول(٣). وجلست كاترين على العرش بعد ثورة لم تسفك فيها دماء، وكتبت بعد جلوسها الرسالة التالية إلى الكونت ستانسلوس بنياتوفسكي –وكان أكثر عشاقها حين كان مقيمًا في بلاطها– تقص عليه نبأ هذه الثورة:

- ٥٢ -

"ونادى الجند.... إني منقذتهم"

في ٢ أغسطس [بالحساب القديم] من عام ١٧٦٢

سأرسل الكونت كيسرلنج إلى بولندة على الفور ليعمل على تنصيبك ملكًا عليها بعد ملكها الحالي. فإذا لم ينجح في مهمته فإني أحب أن يكون الأمير آدم(٤) هو الملك.

ولا تزال جميع العقول هنا ثائرة ولذلك أرجو ألا تجيء أنت وتزيد نار هذه الثورة ضرامًا.

وكان العمل الذي انتهى بجلوسي على العرش يجري من نحو ستة أشهر. ذلك أن بطرس الثالث قد فقد معظم ما كان له من عقلٍ قليل، فكان يريد أن يتدخل في كل

---

1)Ivan VI (

(2)schlusselburg

(3)Paul

(4)Adam

شيء، وأن يلغي الحرس الوطني، ولهذا أرسل رجال هذا الحرس إلى ميدان القتال واستبدل بهم جنود هولستين[1]، وكان في نيته أن يستبقيهم في المدينة. وأراد فضلًا عن ذلك أن يغير دين البلاد، وأن يتزوج ل. ف [إليزبث فرنتسوفا][2]، وأن يلقيني أنا في السجن. ولقد أهانني علنًا على مائدة الطعام في يوم الاحتفال بالسلم، وأصدر في مساء ذلك اليوم أمرًا بسجني، غير أن عمي الأمير جورج حمله على إلغائه.

ومن ذلك اليوم أخذت أصغي إلى الاقتراحات التي تقدم بها بعضهم إلى بعد موت الإمبراطورة إليزبث. وكانت الخطة المرسومة هي أن يقبض عليه في حجرته، وأن يسجن فيها كما سجنت الأميرة أنّا[3] وأطفالها. غير أنه انتقل إلى أورنينبوم[4]. وكنا واثقين من إخلاص عددٍ كبيرٍ من الضباط في فرق الحرس الوطني. ورأس جناح المؤامرة الأخوان أرلوف، ويذكر أستن[5] كيف كان أكبر أبناء هذه الأسرة يجري خلفي على الدوام، ويرتكب كثيرًا من أعمال الحق. وهو يحبني كثيرًا كما تعلم، وكان حبه لي غير خافٍ على جميع الناس، وهذا الحب هو الذي دفعه إلى أن يفعل لي ما فعل. وهو من أسرةٍ أفرادها كلهم ذوو عزيمةٍ ماضية، والكثرة الغالبة من الجند تحبهم كثيرًا لأنهم خدموا طويلًا في الحرس الوطني، وأنا مدينة لهم بالشيء الكثير كما يشهد بذلك أهل مدينة بطرسبرج على بكرة أبيهم.

وهيئت عقول الحرس لهذا العمل، وأُشرك ثلاثون أو أربعون من الضباط في المؤامرة، كما أُشرك فيها نحو عشرة آلاف جندي. وظل السر مكتومًا ثلاثة أسابيع لأن المتآمرين كانوا يؤلفون أربع فرقٍ منفصلة، اتفقت كلمة رؤسائها على تنفيذ الخطة

---

(1)Holstein

(2)Elizabeth Vorontsova

(3)Anna

(4)Oranienbaum

(5)Osten

المرسومة، غير أن تفاصيلها ظلت كلها مكتومة إلا عن الأخوة الثلاثة. وكان بانين[١] يرغب في أن يكون العمل المصلحة ولدي، ولكن أخويه لم يوافقاه على ذلك.

وكنت أنا في بيترهوف[٢]، أما بيتر فكان يقيم في أورانينبوم حيث يقضي وقته في السكر، واتفقنا على ألا ننتظر عودته منها إذا عرف السر، بل نجمع الحرس الوطني ونعلن جلوسي على العرش. وكان يظن أن حماسة الحرس كفيلة بأن تقضي على أثر كل خيانة.

وذاع بين الجند في السابع والعشرين أنه قد قبض عليَّ فأثارت هذه الشائعة ثائرتهم، ولكن واحدًا من ضباطنا هدأ ثورتهم، ثم جاء جندي إلى ضابط يدعى باسك[٣] وهو رئيس الفرقة وأخبره أني لم يبق لي أقل أمل، وأكد له أن لديه أنباء عني. ثم ذهب هذا الجندي نفسه وهو لا يزال قلقًا مضطرب الفكر، وأفضى إلى ضابطٍ آخر بنفس الخبر. ولم يكن هذا الضابط الثاني ممن يعرفون سر المؤامرة، فدهش حين سمع أن ضابطًا سمح لهذا الجندي بالانصراف، ولم يقبض عليه، وذهب هذا الضابط الثاني إلى رئيسه الأعلى، وأمر هذا بالقبض على باسك. وفي ذلك الوقت بدأ الجنود كلهم عملهم، وأرسل الخبر في أثناء الليل إلى أورنينبوم، وحزن أصدقائي الأخصاء أشد الحزن لهذه الأنباء، وأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا ثاني أبناء أورلوف ليأتي بي إلى المدينة. وأخذ الأخوان الآخران. يتنقلان في كل مكان، ويشيعان أني سأحضر بعد قليل...... وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن والعشرين كنت مستغرقةً في النوم بعد أن قضيت يومًا مضطربًا، فقد كنت أعرف ما يدبر في الخفاء، إذ دخل حجرتي ألكسي أورلوف وقال وهو في غاية ما يكون من الهدوء: "لقد حان الوقت لأن تستيقظي، فقد أعد كل شيءٍ للمناداة بك إمبراطورة". وسمعت هذا القول فلم أتردد لحظةً واحدةً بل ارتديت ملابسي بأسرع ما أستطيع، وخرجت دون أن أزين، وركبت العربة التي أعدها

---

(1)Panin

(2)Peterhof

(3)Passek

لي، وكان يقف عند بابها ضابط آخر في زي تابع، وجاء ضابط ثالث ليقابلني على بعد بضعة أميالٍ من بتروف. وعلى بعد خمسة أميال روسية[١] منها قابلني أرلوف الأكبر نفسه ومعه الأمير بريتنسكي الأصغر[٢]. وتخلى لي الأمير عن مكانه في العربة لأن خيلي كانت مجهدة، وسارت بنا العربة إلى مقر فرقة إسماعيلوفسكي[٣] ثم نزلنا. ولم يكن فيها إلا إثنا عشر رجلًا ومعهم طبال، فلما رآنا ضرب طبله فجاء الجند وعانقوني وقبلوا قدمي ويدي وملابسي، ونادوا أني منقذتهم، وأمسك اثنان منهم بيدي قسيسا يحمل صليبًا وجاءا به إليَّ، وبدأوا كلهم يقسمون يمين الولاء لي، ولما فرغوا من هذا طلب إلى أن أركب العربة ومشى أمامي القسيس، ومعه الصليب، وسرنا على هذا النحو إلى مقر فرقة سمينفسكي[٤]. ولما دنونا منها أقبل الجند علينا وهم يهتفون لي هتافًا شق عنان السماء، ثم سرنا إلى كنيسة قازان[٥]، ولما وصلناها نزلنا من العربة.

وأقبلت علينا فرقة بربوبرشينسكي[٦] محييةً وقال جنودها: "نرجو أن تقبلي معذرتنا إذ كنا آخر من جاء لبيعتك، فقد منعنا من المجيء ضباطنا، وها نحن أولاء قد جئنا بأربعة منهم مقبوضًا عليهم، شاهدًا على ولائنا الذي لا يقل عن ولاء سائر زملائنا". ثم جاء فرسان الحرس وكادوا يجنون من شدة الفرح، ولم أر في حياتي ما يماثل هذا المنظر، فقد كان الجند يبكون ويبتهلون إلى الله أن يحرر أرض الوطن.... وكنت أعلم أنهم يكرهون عمي الذي نصبه بطرس الثالث رئيسًا على الفرقة، فأرسلت إليه من يرجوه البقاء في منزله حتى لا يصيبه سوء. ولكن الأمور سارت على غير ما أشتهي، فقد بعثت فرقته سرية منها لتقبض عليه. ونهب الجند بيته وأساءوا معاملته، وذهبت من فوري إلى قصر الشتاء الجديد حيث كان مجلس الشيوخ والمجمع المقدس مجتمعين.

---

(١) الميل الروسي نحو ثلاثة أخماس الميل الإنجليزي.

(2)Bariatinsky

(3)Izmailovsky

(4)Semionovsky

(5)Kazan

(6)Preobrashensky

وسرعان ما وضعت صيغة المنشور الذي يذاع على الشعب، ويمين الولاء التي يقسمونها، ثم طفت أنا بالجند مشيًا على قدمي، وكانوا يبلغون أربعة عشر ألفًا من الحرس الوطني والمشاة. وما كادوا يبصرونني حتى هتفوا لي هتافًا شق أجواز الفضاء، واشترك معهم في الهتاف عدد كبير من عامة الشعب. ثم انتقلت إلى قصر الشتاء القديم لأتخذ ما يلزم من التدابير، وهناك عقدنا مجلسًا اتفقنا فيه على أن أسير أنا على رأس الأعضاء إلى بتروف حيث كان ينتظر أن يتغدى بطرس الثالث، وأُعدت الجياد في محطاتٍ متفرقةٍ على طول الطريق، وكان الحراس الذين فيها يأتوننا بالجواسيس من حينٍ إلى حين.

وأرسلت أمير البحر تليزن[١] إلى كرنستاد، ثم قدم فرنتسوف[٢]، وكان قد أرسل إليَّ ليلومني على فراري. وقد جيء به إلى الكنيسة ليقسم لي يمين الولاء، ثم جيء بالأمير تروبتسكي[٣] والكونت شوفالوف[٤] من بيترهوف، وقد جاءا إليها ليتأكدا من ولاء الجند لبطرس وليقتلاني. واقتيد الرجلان إلى الكنيسة من غير أن يصيبهما أذى وأقسماهما أيضًا يمين الولاء.

وبعد أن أرسلنا جميع الرسل يحملون البشائر إلى حيث يجب إرسالها، واتخذنا جميع ما يجب أن نتخذه من التدابير، ارتديت حلة الحرس في الساعة العاشرة مساءً بعد أن خلع عليّ لقب ضابط فيه وسط مظاهر من السرور لا يُستطاع وصفها. وركبت جوادي بعد أن تركت ورائي عددًا منهم اختيروا من فرقه المختلفة لحماية ولدي الذي بقي في المدينة، وركبت أنا على رأس الجند، وسرنا طول الليل إلى بيترهوف.

ووصلنا في طريقنا إلى ديرٍ صغيرٍ أقبل علينا عنده جلستين[٥] نائب وزير المالية ومعه

---

(1)Talyzin

(2)Vorontsov

(3)Troubetsky

(4)Shuvalov

(5)Golistin

رسالة من بطرس يظهر فيها خضوعه التام...... ووصلتنا بعد هذه الرسالة الأولى رسالة ثانية حملها القائد إسماعيلوف. ولما أقبل ركع أمامي وقال: "هل تعدينني رجلًا شريفًا؟" فأجبته "نعم"، فقال: "إني يسرني أن أكون في صف الشجعان الأبطال. إن الإمبراطور يعرض عليك أن ينزل عن العرش، وسآتي به أنا إلى هذا المكان بعد أن يتم نزوله عنه باختياره. وبهذه الطريقة السهلة، أنقذ وطني من كارثة الحرب الأهلية". وعهدت إليه أن يقوم بهذه المهمة فعاد من فوره لتنفيذها. وأعلن بطرس الثالث فعلًا نزوله عن العرش في أورنينبوم بكامل حريته، ومن حوله ١٥٩٠ من جنود هولستين. وجاء هو وإليزبث فرنتسوفا وجودوفتش[١] وإسماعيلوف إلى بيترهوف، حيث أعطيته ستة ضباط وعددًا من الجند لحراسته.

وكنا وقتئذ في ساعة الظهر من اليوم التاسع والعشرين وهو يوم القديس بطرس، وقد آن أوان الغداء. وبينما كان الطعام يعد للحاضرين وهم كثيرون، ظن الجند أن المرشال الأمير تروبتسكي قد جاء ببطرس الثالث ليعقد الصلح بيني وبينه، وأخبروا كل من رأوه... إنهم لم يروني منذ ثلاث ساعات، وأنهم يكادون يقضون من شدة الخوف لئلا يكون تروبتسكي اللعين قد أراد بي شرًّا، وأنه "يسعى ليعقد صلحًا مزيفًا بينك وبين زوجك ثم يقضي علينا كلنا القضاء المبرم، ولكننا سنمزقه إربًا". هكذا قالوا هم، أما أنا فقد ذهبت إلى تروبتسكي وقلت له: "أرجوك أن تركب عربتك، وسأطوف أنا بالجند مشيًا على قدمي". ثم أخبرته بما هو حادث فارتاع أشد الارتياع وانتقل من فوره إلى المدينة واستقبلني الجند بسرورٍ لم يُسمع بمثله من قبل.

ثم أُرسِلَ العاهل المخلوع إلى مكانٍ ناءٍ جميل يُدعى ريشا[٢] على بعد خمسة وعشرين ميلًا روسيًّا من بطرسبرج، وكان يحرسه في ذهابه ألكسي أرلوف وأربعة من الضباط وعدد من الأهلين المسالمين، اخترتهم لهذا الغرض. وأعد له في هذه الأثناء مسكن جميل يليق بمقامه في شلوسلبرج، وكان لدينا من الوقت ما يسمح بإعداد ما يلزم

(1)Gudovich

(2)Ropsha

من الخيل في المحطات الواقعة على الطريق.

ولكن الله سبحانه وتعالى قدر غير هذا، فقد سبب له اضطرابه إسهالًا شديدًا دام ثلاثة أيام، ولم ينقطع في اليوم الرابع، ثم أكثر من الشراب في ذلك اليوم لأننا لم نمنع عنه شيئًا إلا حريته، (وكان قد طلب عشيقته وكلبه وعبده الأسود وكمانه، ولكني أردت أن أقطع ألسنة السوء عن الاستطالة في عرضه فلم أجبه إلا لمطالبه الثلاثة الأخيرة). ثم أصيب بمغصٍ مصحوبٍ بنزيفٍ شديدٍ وحمى وهذيان، وظل على هذه الحال يومين كاملين أعقبهما ضعف شديد، ولم يفده كل ما بذل الطب له من عناية ، فقضى نحبه بعد أن طلب أن يوفد إليه قسيس لوثري. وخشيت أن يكون الجند قد سموه فأمرت بتشريح جثته فلم ير فيها أقل أثرٍ للسم، بل كانت معدته سليمة، وتبين أن الذي قضى عليه هو التهاب في الأمعاء وسكتة مخية. غير أن قلبه كان صغيرًا جدًّا وضامرًا.

وبعد انتقال بطرس من بيترهوف أُشير عليَّ بالذهاب فورًا إلى تلك المدينة، ولكني أدركت أن الجند سيزعجهم هذا الانتقال الفجائي فرأيت أن أشيع الخبر بينهم أولًا، بحجة أني أريد أن أعرف متى يكونون مستعدين للانتقال إليها بعد متاعب الأيام الثلاثة الماضية. فكان جوابهم: "حوالي الساعة العاشرة مساءً على أن تكوني أنت معنا". وسرت معهم فعلًا، وفي منتصف الطريق عرجت على بيت كوراكين[1] الريفي حيث ألقيت نفسي على السرير بكامل ملابسي، وجاء أحد الضباط فخلع نعلي، ونمت بحالتي هذه ساعتين ونصف ساعة واصلنا بعدها السير. واجتزنا كترينهوف[2]. ثم ركبت بعدها على رأس فرقة بريوبرشنسكي. وكانت تتقدمنا فرقة من الفرسان الخفيفة، ومن ورائها الحرس الخاص المختار من فرسان الحرس الوطني، وأمامي مباشرةً رجال بلاطي. وجاءت من خلفي فرق الحرس الوطني حسب مراتبها العسكرية ومن خلفها كلها ثلاث فرق من الجيش.

---

(1)Kurakin

(2)Catherinenhof

ودخلت المدينة وسط مظاهر السرور التي لا آخر لها، ثم دخلت القصر الصيفي، حيث كان في انتظاري رجال الحاشية والمجمع المقدس وابني وجميع من تخولهم مراتبهم أن يستقبلوني. وذهبت من فوري لأداء صلاة الشكر، ثم جلست أستقبل المهنئين. ولما كنت قد قضيت ثلاثة أيام كاملة من صباح يوم الجمعة إلى مساء الأحد من غير طعامٍ أو شرابٍ أو نومٍ إلا قليلًا، فقد آويت إلى الفراش واستغرقت في النوم، ولكني لم أنم إلا قليلًا، إذ جاء إلى حجرتي في منتصف الليل الضابط بسك من فرقة الفرسان الخفيفة، وأيقظني من نومي وهو يقول: "إن الشعب هائج وإن جنديًّا من فرقتي أخذ يطوف أنحاء المدينة وهو ينادي خذوا أسلحتكم! إن ثلاثين ألفًا من البروسيين قد أقبلوا يريدون أن يختطفوا أمنا. وسمع الجند هذا فاختطفوا أسلحتهم، وهم يسيرون في هذه الساعة إلى هنا ليتأكدوا من سلامتك، وهم يقولون إنهم لم يروك منذ ثلاث ساعات، ولكني أعتقد أنهم سيعودون إلى أماكنهم في هدوء إذا رأوك سالمةً. إنهم لا يصغون إلى أقوال ضباطهم، ولا إلى آل أرلوف". فلما سمعت هذا القول لم أر بدًّا من القيام من فراشي، وخشيت أن أزعج حراسي بلا سبب، وكانوا يبلغون فرقة كاملة، فذهبت إليهم أولًا وأفضيت إليهم بسبب خروجي في تلك الساعة، ثم ركبت عربتي ومعي اثنان من الضباط، وسرت إلى حيث كان الجند مجتمعين، وناديت فيهم أني بخير، وأن عليهم أن يذهبوا إلى مضاجعهم ويتركوني كي أنام لأني لم أنم في هذه الليلة إلا قليلًا بعد سهرٍ دام ثلاث ليال متوالية. وطلبت إليهم أن يكونوا في المستقبل أكثر طاعةً لأوامر ضباطهم، فأجابوا بأن سبب انتشار الخبر بينهم هو وجود أولئك البروسيين الملعونين، وأنهم كلهم مستعدون لأن يفتدوني بأرواحهم، فشكرتهم وطلبت إليهم أن يذهبوا إلى مضاجعهم"، فقالوا: "عمت مساءً" ودعوا لي بدوام الصحة وانصرفوا وادعين. وكثيرًا ما كانوا وهم سائرون يلتفتون إلى خلفهم ليروا عربتي قبل أن تختفي عن أعينهم.

وجاءوا في اليوم التالي يعتذرون إليَّ ويأسفون لأنهم أيقظوني من نومي، وقالوا: "لو أننا كلنا أردنا أن نراك طول النهار والليل لأضر هذا بصحتك، وحال بينك وبين تصريف شئون الدولة".

هذا ما فعله الجند أما الزعماء فلو أردت أن أصف موقفهم جميعًا لتطلب ذلك مجلدًا كاملًا....

وحسبي أن أقول إن الأميرة دشكوفا(١)، وهي أصغر من أختي إليزبث فرنتشوفا(٢) تريد أن تعزو لنفسها كل الفضل فيما حدث، لأنها كانت تعرف طائفةً قليلةً من الزعماء، ولكن صلاتها العائلية وصغر سنها –فهي لا تزيد على التاسعة عشرة من عمرها– قد أساءا إلى سمعتها، فلم يكن أحد يثق بها. وهي مع ذلك كانت تصر على أنها هي السبب في كل ما عاد عليَّ من خير. والحقيقة أن جميع المتآمرين كانوا على اتصالٍ بي ستة أشهر كاملةً قبل أن تعرف هي أسماءهم. ولست أنكر أنها جمة النشاط، ولكنها رغم نشاطها سيئة السلوك، وليس من زعمائنا من يحبها. ومن أجل ذلك لم يفض إليها أحد بما يعرفه إلا ضعاف الرأي، وحتى هؤلاء لم يفضوا إليها إلا بنتفٍ من الأخبار الصغيرة، غير أن ا.ا شوفالوف(٣)، وهو أسفل خلق الله طرًا، وأسوأهم سمعةً، قد كتب على ما يظهر إلى فولتير يبلغه أن امرأةً في التاسعة عشرة من عمرها قد قلبت حكومة هذه البلاد. ورجائي إليك أن تصحح ما وصل من الأخبار إلى هذا المؤلف. لقد كان علينا أن نخفي عن الأميرة كيف كان الزعماء يتصلون بي، فلم تعرف أقل شيءٍ عن المؤامرة إلا بعد خمسة أشهر من بدايتها، ولم يصلها عنها في الأربعة الأسابيع الأخيرة إلا أقل الأخبار وأصغرها شأنًا....

تلك هي قصتنا بوجه التقريب. ولست أخفي عنك أن كل شيءٍ قد تم بإرشادي وتوجيهي، إني قبيل انتهاء المؤامرة قد صببت الماء على النار، لأن سفرنا إلى الريف حال دون تنفيذ الخطة المرسومة بحذافيرها، بعد أن ظلت أسبابها كلها مهيأة أسبوعين كاملين. ولما سمع الإمبراطور السابق بنشوب الثورة في المدينة منعته الفتيات اللاتي يؤلفن

---

(1)Dashkova

(2)Elizabeth Vorontoshova

(3)I.I. Shovalov

حاشيته أن يستمع إلى نصيحة المارشال ميونخ[١]، وقد نصحنه بأن يلجأ إلى كرنستاد[٢] أو يلقي بنفسه بين أحضان الجيش مع طائفةٍ من الحرس صغيرة العدد. وذلك أن الإمبراطور حين ذهب إلى كرنستاد في سفينةٍ صغيرةٍ كانت المدينة قد وقعت في أيدينا بفضل ما قام به أمير البحر تليزن[٣] من إجراءٍ حاسمٍ سريع. فقد وصل تليزن إلى المدينة في الوقت المناسب وجرد القائد دفيير[٤] من سلاحه. وكان دفيير قد أُرسِلَ إليها من قبل الإمبراطور، فلما جاء بيتر أنذره أحد ضباط الميناء من تلقاء نفسه بإطلاق النار عليه إذا همَّ بالنزول إليها. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم كل شيءٍ على ما كنا نرغب، وذلك لأن اجتماع هذه الظروف الحسنة لم يكن ليحدث لولا إرادة الله وتدبيره.

ولقد وصلتني رسالتك، غير أن تبادل الرسائل بيننا على الدوام يعرضنا لأخطارٍ لا عداد لها، ولهذا فإني مضطرة إلى أن أتخذ عشرات الآلاف من الاحتياطات. هذا إلى أني لا أجد من وقتي ما يسمح لي بقراءة رسائل الحب الخطرة.

إن ظروفًا شديدةً تحيط بي.... وليس في وسعي أن أخبرك بها كلها، ولكنها ظروف حقة لا شك فيها.

وسأفعل كل شيءٍ لك ولأسرتك، فلا تشك قط في هذا!

إني مضطرة إلى التقيد بآلافٍ من المجاملات، ومراعاة آلافٍ من الاعتبارات، فضلًا عما أنوء به من أعباء العمل الحكومي. واعلم جيدًا أن أساس ما حدث كله هو كره الأجانب، وأن بطرس الثالث نفسه يعد أجنبيًّا.

والآن أستودعك الله. إن في العالم حظوظًا غريبة كل الغرابة.

***

---

(1)Münnich

(2)Kronstadt

(3)Talyzin

(4)Devier

ووفت كاترين بوعدها للكونت بنياتوسكي بعد عامين من هذا الانقلاب السياسي. ذلك أنه لما مات ملك بولندة طُلب إلى الشعب أن يختار له ملكًا جديدًا. وكان نظام الحكم فيها يقضي بأن يختار الهولنديون ملكهم، وهو نظام طالما أدى إلى تدخل الدول الطامحة فيها في شئونها، وتأييدها من ينتمون إليها من المرشحين للملكية. وكان الجيش الروسي وقت هذا الانتخاب يحتل جزءًا من أرضها كما كانت الحكومة البولندية خاضعةً للروسيا من جهةٍ ولحليفتها بروسيا من جهةٍ أخرى. واختير بنياتوسكي ملكًا على بولندة طوعًا لأمر كترين، جلس على العرش باسم استانسلوس الثاني، وكان هو آخر ملوك هذه البلاد البائسة.

وبعد عشر سنين من ذلك الوقت زحفت الجيوش الروسية على بولندة بأمر كاترين نفسها، واقتطعت جزءًا كبيرًا منها ضمته إلى بلادها. وفي عهدها قسمت بولندة بين روسيا وبروسيا والنمسا، ولقي بنياتوسكي أعظم مذلةٍ على يدي حبيبته السابقة. وفي عام ١٧٩٥ أشارت كاترين قبل موتها بعامٍ واحد على بنياتوسكي أن يعتزل الملك، فرأى أن من الحكمة أن يستمع إلى هذه النصيحة.

ولما أطاحت الثورة الفرنسية برأس لويس السادس عشر تغيرت أخلاق كاترين، ففقدت حبها لتقدم العلوم، أو بعبارةٍ أصح تبدل اهتمامها الظاهر بالعلوم كرهًا شديدًا لها. وأصبحت كاترين التي كانت تتبادل الرسائل مع فولتير وجرم[1]، والتي كانت لها اليد الطولى على ديدرو[2]، أصبحت كاترين هذه حربًا على كل تفكيرٍ حر، ورأت أن من واجبها أن تطهر روسيا من الأفكار التي أوقعت فرنسا فيما وقعت فيه من بلاء. ذلك أن ما كان يذيعه عنها الكتاب الفرنسيون المأجورون من حب الخير وعمل له قد نشر عنها ما كانت تريده لنفسها من دعاية في غرب أوروبا. أما الآن فقد رأت أن ثمن هذه الدعاية أكبر مما تستطيع أداءه، ولذلك بذلت كل ما تستطيع من جهدٍ في حروبها "المستنيرة" مع السويد وتركيا وبولندة لتقضي على ما كان فيها من تفكيرٍ حرٍّ رأت أنه

(1)Grimm

(2)Diderot

أشد ما يكون خطرًا عليها.

وماتت كاترين بالسكتة المخية في السابعة والستين من عمرها، وهي تعيش مع آخر عاشقٍ من عشاقها، وتعد العدة لحربٍ جديدةٍ على بلاد الفرس. ووسعت كاترين في حياتها رقعة بلادها وضيقت على شعبها أشد التضييق.

لافيت يصف أمريكا بعد نزوله فيها

[رسالته إلى زوجته]

لم يكن لافيت جنديًّا أو سياسيًّا عظيمًا، ولكنه كان يحب الحرية، وظل طوال حياته وفيًّا للمثل العليا التي أدت إلى إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية، وأثبت في ثورات ثلاث –حرب الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية الكبرى وثورة عام ١٨٣٠– أن في مقدور الرجل السري الموثر أن يكون في الصف الأول من دعاة الرقي والحرية.

وقد ورث ماري جوزف بول إيف روس جلبرت دوموتيه، ماركيزده لافيت(١)، في الثالثة عشرة من عمره ثروةً طائلة. ولما بلغ التاسعة عشرة وكان ضابطًا في فرقة الفرسان شبت نار الثورة الأمريكية، وكان هو يعطف على قضية الأمريكيين منذ البداية، واستطاع وهو في فرنسا أن يحصل على رتبة ضابط في الجيش الأمريكي بمساعدة سيلاس دين(٢) وكيل أمريكا في فرنسا، وأخذ من ذلك الحين يعد العدة للرحيل ويجمع حوله الرفاق والأنصار. ولكن أصدقاءه أشاروا عليه بعدم التورط في هذا العمل، وحتى بنجمين فرنكلن نفسه الذي أصبح وزير أمريكا في فرنسا بدل دين حاول أن يثنيه عن عزمه. ثم أمره لويس الخامس عشر آخر الأمر ألا يغادر أرض فرنسا.

ولكن ذلك لم يثن من عزيمة لافيت، فأعد لنفسه سفينةً واستعد للرحيل، غير أن سفينته صودرت بناءً على طلبٍ من وزير إنجلترا المفوض في فرساي، وقبض على لافيت؛ ثم تمكن أصدقاؤه من سرقة السفينة من الميناء الفرنسي الذي حجزت فيه ووضعها في ثغرٍ أسباني قريب، واستطاع لافيت أن يفلت من حراسه ويفر إلى أسبانيا ويسافر إلى أمريكا مع أحد عشر رجلًا من رفاقه.

(1)Marie Joseph Paul Yves Roch Gillert du Motier Marquise de Lafayette.

(2)Silas Deane

وكانت رحلة لافيت وهؤلاء الرفقاء شاقة وخطرة دامت شهرين كان يتعقبهم فيها طرادان بريطانيان، لكنهم أفلحوا أخيرًا في النزول في كارولينا الجنوبية[١]، وكان أول ما فكر فيه بعد نزوله إلى البر أبناءه وزوجته ماري أدرين ده نواي[٢] (وكان قد تزوجها وهو في السادسة عشرة من عمره). وخشي أن تكون رسالته الأولى قد وقعت في أيدي الإنجليز فكتب إليها الرسالة الثانية التالية:

- ٥٣ -

"... ليس في أمريكا فقراء..."

شارلستون في ١٩ يونيه سنة ١٧٧٧

أبلغتك يا حبيبتي في رسالتي الأولى أني وصلت سالمًا إلى هذه البلاد بعد أن قاسيت بعض المشاق من جراء دوار البحر في أثناء الأسابيع الأولى من الرحلة، وقلت لك إني كنت وقت كتابتها، أي في صباح أول يومٍ بعد نزولي إلى البر، في بيت ضابط ظريف، وإن الرحلة استغرقت شهرين، وإني طلبت أن أسافر من المينا الذي نزلت فيه على الفور.

وقد حدثتك في تلك الرسالة عن كل شيءٍ عزيزٍ لدي، عن أسفي على فراقك، وعن أطفالنا الأعزاء، وقلت فيها فضلًا عن هذا إني في أحسن صحة. وقد أردت أن أذكر خلاصتها في هذه الرسالة الثانية لأني ظننت أن الإنجليز ربما أرادوا أن يسلوا أنفسهم بمصادرة تلك الرسالة وهي في طريقها إليك، وإن كان حسن طالعي يبعث في كبير الأمل في أنها ستصلك.

ولقد لازمني حسن طالعي هذا من أول الأمر، ودهش الناس كلهم لذلك، فثقي أنت أيضًا هذا، وما من شكٍّ في أن ثقتك هذه ستبدد كل مخاوفك.

---

(1)South Carolina

(2)Marie Adrienne de Noailles

لقد نزلت إلى البر بعد أن ظلت سفينتنا تسير عدة أيام بجوار شاطئ غاص بالسفن الحربية المعادية. وكان كل إنسانٍ– حين وصلت إلى الشاطئ– يعتقد أن سفينتنا سيقبض عليها لأن طرادتين بريطانيتين كانتا تقفان في مدخل الميناء.

بل لقد بلغ من شأني أني أرسلت أمرًا إلى قائد السفينة أن يُنزل الرجال إلى البر، وأن يحرقها هي إذا كان لا يزال في الوقت متسع لهذا العمل. ولكن حدث لحسن الحظ أن هبت عاصفة شديدة دفعت المراكب المعادية إلى عرض البحر فترةً من الزمن، فدخلت سفينتي الميناء وقت الظهر من غير أن تصادف عدوًّا أو صديقًا.

وقابلت في شارلستون القائد هاو[1] وهو ضابط أمريكي يعمل الآن في الجيش، ونحن في انتظار حاكم الولاية الذي سيصل من الريف في هذا المساء. وقد أظهر لي كل من أردت معرفته هنا أعظم ضروب الأدب والعناية، واستقبلت استقبالًا لا أرجو أحسن منه، وإن كنت قد رأيت ألا أدخل مع مستقبليَّ في تفاصيل الخطة التي أريد أن أسير عليها، لأني أحب أن أزور مجلس الأمة الأمريكي أولًا، وأرجو أن أستطيع السفر إلى فلدلفيا[2] بعد يومين. والطريق إليها برًّا يبلغ طوله مائتين وخمسين فرسخًا، وسنقسم أنفسنا جماعاتٍ صغيرة، وقد اشتريت فعلًا جيادًا وعرباتٍ خفيفةٍ لتنقلنا إليها. وفي هذا الميناء سفن فرنسية وأمريكية تريد أن تنتهز فرصةً بعد المراكب الحربية المعادية لنسافر عليها جميعًا غدًا، وكلها مسلحة، وقد وعدني من فيها أن يقاوموا أشد المقاومة ما يصادفونه من القوارب الحربية الصغيرة التي يملكها أفراد من الأعداء. وسأوزع رسائلي على السفن المختلفة.

وسأحدثك الآن عن هذا البلد وعن ساكنيه. لقد وجدتهم ظرفاء لا يقلون في ذلك عن الصورة التي رسمتها لهم في مخيلتي في أوقات حماستي. وقد جمعوا بين بساطة العادات وبين رقة الحاشية وحب الوطن والحرية والمساواة التامة التي تسودهم في كل مكان، فهنا

---

(1)Howe

(2)Philadelphia

لا فرق مطلقًا بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء، و إني لأتحدى أي إنسانٍ أن يجد أقل فرقٍ بين معاملة أفراد كلتا الطبقتين للأخرى؛ وإن كان منهم من لهم ثروات طائلة. ولقد رأيت الحياة الريفية لأول مرةٍ في بيت الضابط هاو. أما الآن فأنا في المدينة حيث لا تفترق الحياة عن مثلها في المدن الإنجليزية، وكل ما هنالك من الفرق أنها هنا أكثر بساطةً ومساواةً وحبًّا ورقةً منها في إنجلترا. ومدينة شارلستون من أجمل المدن وأحسنها بناءً، وأهلها من أظرف من رأيت في حياتي، والنساء الأمريكيات غاية في الجمال، بسيطات في عاداتهن، أنيقات؛ وهن أشد حرصًا من الإنجليزيات أنفسهن على أن تبدو هذه الأناقة في كل شيءٍ وفي كل مكان. وأشد ما يسرني في أمريكا أن الناس كلهم إخوان، إذ ليس في هذه البلاد فقراء، بل إني أستطيع أن أقول إنه ليس فيها من نسميهم الفلاحين الأجراء، فلكل شخصٍ هنا أملاكه الخاصة وحقوقه التي لا تختلف في شيءٍ عن حقوق أكبر الملاك. والفنادق هنا تختلف عن مثيلاتها في أوروبا. فصاحب الفندق وصاحبته يجلسان معك إلى المائدة ويشاركانك في الطعام الممتع، وحين تغادرين المكان تدفعين ما عليك دون مساومة. فإذا أراد الإنسان ألا يذهب إلى فندق ففي الريف بيوت يكفي أن يذكر الإنسان فيها أنه أمريكي صالح ليلقى من الأدب والرعاية ما يلقاه الصديق من صديقه في أوروبا.

ولقد أُستقبلت أحسن استقبالٍ حيثما حللت، وكان يكفي أن يعرفوا أن شخصًا ما من رفاقي ليرحبوا به أحسن ترحيب. ولقد فرغت توًّا من حفلة عشاءٍ كبرى أقامها واحد من أهل المدينة تكريمًا لي، حضرها القائدان هاو ومولتري[1] وبعض الضباط الذين يرافقونني، وقد شربنا الأنخاب وحاولنا أن نتكلم بالانجليزية، التي بدأت أعرف منها الشيء القليل، وسأذهب غدًا مع هذين السيدين لزيارة حاكم الولاية وأعد العدة لسفري، وسأطوف بعد غدٍ في هذه المدينة وضواحيها ثم أسير بعدئذٍ للانضمام إلى الجيش.

(1)Moultrie

وقد تظنين أني الآن جد سعيد بفضل تلك الحياة السارة التي أحياها في هذا البلد، وبفضل ما بيني وبين أهله من عطفٍ متبادلٍ يجعلني أشعر في حضرتهم بالراحة والاطمئنان كأني قد قضيت بينهم عشرين عامًا كاملة، وبفضل ما أجده بين تفكيري وتفكيرهم من تماثلٍ تام، وبفضل حبي للمجد والحرية. ولكنك لست معي، وليس أصدقائي معي، ولست أشعر بالسعادة وأنا بعيد عنك وعنهم. ولقد سألتك هل لا تزالين تحبيني؟ ولكني كثيرًا ما سألت نفسي هذا السؤال عينه، وكان قلبي يجيبني في كل مرةٍ "نعم"! وأنا الآن أشد ما أكون لهفةً على سماع أخبارك، وأرجو أن أجد منك رسائل تنتظرني في فلدلفيا. وكل الذي أخشاه أن يقبض على السفينة التي تحمل هذه الرسائل وهي في طريقها إلى هنا. على أني وإن كنت قد أغضبت الإنجليز بسفري إلى هذا البلد على الرغم منهم، فإني أعتقد أن هذه الرسائل لن يتأخر وصولها إليَّ. فاكتبي إليَّ كثيرًا، وأطيلي رسائلك، فأنت لا تعرفين ما يملأ نفسي من غبطةٍ حين أتلقى هذه الرسائل. عانقي هنريت[1]، آه ليتني أستطيع معانقة أطفالنا. إن والد هؤلاء الأطفال سائح جوَّال، ولكنه رجل شريف النفس طيب القلب، وهو أب صالح يحب أسرته أعظم الحب، وزوج صالح يحب زوجته من كل قلبه.

بلغي تحياتي إلى أصدقائك وأصدقائي، وإلى الرفاق الأعزاء الذين كانوا في يومٍ من الأيام رفاقنا في البلاط.

...... والآن لا بد لي أن أختم رسالتي لأني يعوزني الورق والوقت، وإذا لم أكرر في رسالتي عشرة آلاف مرة قولي إني أحبك، فليس ذلك النقص في هذا الحب، بل منشأه تواضعي، لأن في مقدوري أن أقول إني قد أقنعتك قبل الآن بهذا الحب. لقد مضى من الليل أكثره، والحر الآن شديد لا يطاق، والحشرات تلتهمني التهامًا، فأنت ترين إذن أن خير البلاد لا تخلو من السيئات. أستودعك الله.

لافيت

(1)Henriette

وسافر لافيت من كارولينا الجنوبية إلى فلدلفيا حيث كان مجلس الأمة الأمريكي مجتمعًا، وعجب رجال المجلس أشد العجب من هذا الضابط الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة، وأصر لافيت على أن يعمل متطوعًا من غير أجر، وأصدر المجلس قرارًا بتثبيته في رتبته.

ولم يضطلع لافيت بعملٍ بارزٍ في ميدان القتال، ولكنه أفاد الجمهورية الناشئة فوائد أخرى عظيمة الأثر، فقد عاد في عام ١٧٧٩ إلى فرنسا على رأس بعثةٍ تطلب العون الدائم من تلك البلاد، ونجح في بعثته هذه أعظم نجاح. وعاد بعد ستة أشهرٍ من فرنسا إلى أمريكا ومعه الجنود والمؤن والمال والكونت ده روشمبو[١]. وعينه صديقه واشنطن قائدًا لفرقةٍ تدافع عن ولاية فرجينيا، فهيأ له بذلك أن يشترك في موقعة "يوركتون"[٢] التي انتهت بتسليم القائد الإنجليزي "كورنولس"[٣] وختام الحرب.

ولما زار لافيت أمريكا آخر مرةٍ في عام ١٨٢٤، وكانت حوادث الثورة الفرنسية قد هدت قواه، ولم يكن كما كان من قبل واسع الثراء، منحه مجلس الأمة مائتي ألف ريال أمريكي وأراضي واسعة. وفي هذه الزيارة جدد صلاته بأصدقائه القدماء، ورحل إلى منتسلو[٤] حيث زار صديقه الشيخ جفرسن[٥]، وقضى أكثر من سنةٍ يتنقل في أنحاء الجمهورية الفتية، ثم عاد بعدئذٍ إلى فرنسا في الثامنة والستين من عمره ليقضي بقية حياته في هدوء. غير أن ثورةً أخرى قامت بعد خمس سنين من ذلك الوقت ودفعته إلى العمل في خدمة الحرية.

---

(1)Comte de Rochambeau

(2)Yorktown

(3)Cornwallis

(4)Monticello

(5)Jefferson

ألكسندر هملتن ينعي على مجلس الأمة الأمريكي ما وصل إليه من انحطاط

[رسالته إلى جورج واشنطن]

وقف على طوار أحد الشوارع في مدينة نيويورك شاب في السابعة عشرة من عمره، قدم من جزائر الهند الغربية، وأخذ يلقي على المجتمعين خطبةً حماسية أثارتهم على المظالم التي يعانونها على يد بريطانيا. وبعد قليلٍ من ذلك الوقت كتب هذا الشاب عينه وهو طالب في كلية الملك (جامعة كولومبيا الحالية) منشورين سياسيين بلغ من إعجاب الأمريكيين بهما أن عزوهما إلى جون جاي[1]، ثم أخذ بعدئذٍ يكتب في الصحف عباراتٍ هجائية لاذعة، ومقالات سيآسيا منطقية هادئة. ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى ذاع صيته في جميع المستعمرات الأمريكية.

كان ألكسندر هملتن[2] قصير القامة، نحيف الجسم، أحمر الوجه، جميل الطلعة. ولما قامت حرب الاستقلال انضم إلى الجيش الأمريكي وارتقى بعد وقتٍ قصيرٍ إلى رتبة ضابط في المدفعية. ثم أصبح في عام ١٧٧٧ ياور جورج واشنطن وكاتب سره الخاص، وصديقه الحميم، يستشيره في مهام الأمور، ويكتب له معظم خطبه إن لم نقل كلها.

لكن هملين لم ترضه أعمال مجلس الأمة الأمريكي، فقد انقسم المجلس أحزابًا وشيعًا متنافسةً، وتملَّك أعضاءه الزهو، وزادوا موقف الأمة البائسة سوءًا على سوء. وكان هملتن يرى أن الأمة في حاجةٍ إلى سلطةٍ مركزيةٍ قويةٍ تجتاز بها محنتها، فكتب إلى واشنطن الرسالة التالية:

---

(1)John Jay

(2)Alexander Hamilton

- ٥٤ -

"... أي شيءٍ أصاب أولئك الرجال العظام؟"

في ١٣ فبراير سنة ١٧٧٨

إن ثمة مسألة لا تبرح ماثلةً أمامي، وهي جديرة بأن يعني بها كل من كان منا ذا رأي سديدٍ وكلمةٍ مسموعة، وأقصد بها ما وصلت إليه حال مجلس الأمة الأمريكي العظيم من تدهور. إن من الحقائق المؤلمة التي نراها ونحس بها في كل يومٍ أن هذه الهيئة تعوزها الحكمة التي كان يجب أن تتحلى بها، والتي لا بد منها إذا أردنا لشئوننا نجاحًا. لست أشك في أن كثيرين من أعضاء المجلس خليقون من كل الوجوه بالأمانة التي يحملونها، ولكن هذا لا ينطبق على هيئة المجلس كله. ذلك أن أعماله يغلب عليها الحمق والهوى وقلة التبصر والإدراك، ولا تدل على الكرامة. ولست أخشى أن أقول إنك تحس بهذا كله، وإن لم يكن لديك بقدر ما لدي من الفرص التي تمكنك من معرفة هذه الحقائق. إن مسلك هذا المجلس مع الجيش بنوعٍ خاص لهو مسلك الضعف والتردد وسوء التدبير. ولقد أتى بنا هذا إلى درجةٍ من الخطورة فوق ما نتصور، إن للأعضاء آراء في الاقتصاد خاطئة ضعيفة منعتهم أن يزودوا ضباطه بالمرتبات التي تبعث في نفوسهم الاهتمام بأعمالهم. وكانت نتيجة هذا التصرف أن سرت في هؤلاء الضباط روح الإهمال وعدم الاكتراث، فقضت على ما يجب أن يتحلوا به من صفاتٍ طيبة. وكثيرًا ما جعلوا المحسوبية والزلفى اللتين لا تستندان إلى غير الهوى أساسًا للترقي إلى الرتب العسكرية العليا، فأثاروا بذلك ثائرة الجيش. ومما زاد الطين بلةً أنهم أغدقوا هذه الرتب على الأجانب وعلى أحط الطبقات في الجيش، ولم يؤتوا من الشجاعة ما يستطيعون به أن يقفوا في وجه المدعين الأجانب الذين لا ينقطعون عن الإلحاح واللجاجة والكبرياء الباطل. بل لقد أظهروا في جميع تصرفاتهم من الانقياد والتردد ما أطمع فيهم كل أفاقٍ حقير، يتظاهر أمامهم بالكفاية الحربية والخبرة العسكرية. وهل تصدق يا سيدي أن من الأقوال التي جرت مجرى الأمثال على لسان الضباط الفرنسيين وغيرهم من الأجانب

أنهم لا يعجزون عن الحصول على كل ما يرغبون فيه، وأنهم يكفيهم لذلك أن يرفعوا عقيرتهم ويعلنوا ما لهم من كفاية، ويتظاهروا بالإصرار على طلبهم والثقة بأنهم لا يطلبون إلا ما لهم من حق؟ تلك كلها أمور تجرح شعوري أنا الرجل الجمهوري إلى حدٍّ لا أستطيع التعبير عنه، بل إنها لتسقطني في عين نفسي.

لقد كان لأمريكا هيئة نيابية تشرف بمثلها أية أمة ويعتز بمثلها أي عصر، أما الحال التي وصلنا إليها فهي حال مروعة تنذر بأعظم الأخطار. فما سبب هذا؟ وكيف ننجو منه؟ هاتان مسألتان لا بد من النظر فيهما والعناية ببحثهما إذا أردنا خيرًا بهذه الولايات. ولست أدري أي شيءٍ أصاب أولئك الرجال العظام الذين ألفوا أول مجلسٍ في هذه البلاد؟ هل ماتوا، أو خذلوا قضية الوطن، أو أصابهم شيء غير هذا وذاك؟ فأما الذين ماتوا فهم قليلون، وأقل منهم من خذلوا قضية الوطن. وأما الباقون غير القلة التي لا تزال في مجلس الأمة فبعضهم في ميدان القتال، ومعظمهم يشغلون مناصب مدنية كل طائفة منهم في الولاية التي أنجبتهم. ولا علاج للحال التي وصلنا إليها إلا بإخراجهم من تلك المناصب وإعادتهم إلى الأماكن التي تحتاجهم أشد من حاجة ولاياتهم نفسها.

لقد أرادت كل ولايةٍ أن تنظم حكومتها الداخلية وترفع من شأنها وتزيد من ثروتها ورخائها، فاختارت أحسن أبنائها ليتقلدوا المناصب فيها ويسيِّروا دفة أمورها. وفضل هؤلاء ما ينالونه في مواطنهم من مزايا، وما يتمتعون به من أسباب الراحة، وكان لصلاتهم بمواطنيهم أثر قوي خاطئ جعلهم أشد عنايةً بمصالح ولاياتهم المختلفة منهم بمصالح الاتحاد العامة، وذلك خطأ موبق لا بد من علاجه. فمهما يكن لصلاح دستور الولايات ونظام شرطتها من خطر فإن أعظم منه خطرًا أن يكون المجلس العام مجلسًا رشيدًا تتجلى فيه الحكمة؛ وإلا فإن هذا المجلس العاجز سيفسد على الولايات سعيها لإصلاح شئونها الخاصة، ويقضي قضاءً مبرمًا على القضية العامة. ولا يحق تفقروا مجلس الولايات المتحدة العام لتغنوا إدارة الولايات فرادى. ألا فلتتصوروا العواقب الوخيمة التي تنجم عن وجود مجلسٍ يزدريه الناس في داخل البلاد وخارجها. وكيف نستطيع

بذل جهودنا مجتمعةً إذا كانت تبعة تأليف هذه الجهود ملقاة على عاتق طائفةٍ من الحمقى الضعفاء المترددين؟ وكيف نرجو النجاح في مفاوضاتنا مع أوروبا إذا لم تكن الأمم الأوروبية واثقةً من قوة حكومتنا العامة وحكمتها! إن قوة الحكومة وحكمتها هما الهدف الذي ينظرون إليه، وبقدر حظنا من هذه القوة والحكمة تكون نظرتهم إلينا ويكون اهتمامهم بأمرنا.

لقد تحدثت إليَّ وتحدثت إليك حين حظيت بلقائك آخر مرةٍ عما في المجلس من انقسام، ولقد تكشفت لي بعد هذا اللقاء أدلة صادقة لا تترك مجالًا للشك في وجود هذا الانقسام الفظيع وفي مداه الواسع. وأكبر ظني أنك أنت أيضًا رأيت وسمعت ما يكفي لإقناعك بما اقتنعت أنا به. ويقيني أن المنشقين قد كشفوا عن نواياهم الخبيثة أسرع مما كانوا يريدون، وأنهم شرعوا يخفون أنفسهم عن الأنظار، ولكني أظن أنهم لن يفعلوا أكثر من تحويل العاصفة التي كانوا يريدون إثارتها جهرةً إلى قوةٍ للتدليس خفيةً. ولهذا كان من واجب جميع الرجال العقلاء المخلصين لبلادهم – والمخلصين أيضًا لرجلٍ عظيمٍ في هذه البلاد– من واجب هؤلاء جميعًا أن يأخذوا حذرهم وألا يدخروا وسعًا في إحباط أعمال أعدائه الخفية.

***

وقد اتهم هملتن أكثر من مرة بأنه من أنصار الملكية، كما اتهم بالتآمر على الشعب، ولكن هملتن هذا هو الذي حارب دفاعًا عن الدستور، وكتب أكثر من نصف المنشورات التي أذيعت دفاعًا عن حكومة الاتحاد، وهملتن هو القائل! "إن حقوق الإنسانية المقدسة لا يبحث عنها في الأوراق القديمة ولا في السجلات المتعفنة. لقد خُطَّت هذه الحقوق بأحرفٍ من نورٍ في الطبيعة البشرية، خطتها يد العناية الإلهية، ولم يؤت مخلوق على ظهر الأرض القدرة على محوها أو طمس معالمها...، ولا أمل للحرية المدنية في الوجود إذا لم يكن المجتمع الذي تُوضع له القوانين نصيب في وضعها". وقد كان هملتن يؤمن بضرورة وجود سلطةٍ أرستقراطيةٍ رشيدةٍ وحكومةٍ مركزيةٍ قوية، وكان يخشى عواقب المغالاة في النظم الديمقراطية ويرهب شطط رجال الثورة الفرنسية.

وهملتن الرجعي هو الذي فسر مواد الدستور الأمريكي تفسيرًا حرًّا، ولما أريد تثبيت الدين الأهلي وتأسيس المصرف القوي وجد هملتن في مواد الدستور ما يبيح هذين العملين، على حين أن تومس جفرسن عدوه الديمقراطي الحر لم يجد في الدستور ما يبيحهما. وكان جفرسن يقاوم هملتن فيما يريد أن يتخذه من إجراءاتٍ يصل بها إلى أغراضه، فلما أصبح جفرسن رئيس الجمهورية لجأ هو نفسه إلى هذه الإجراءات بعينها أكثر مما لجأ إليها أي إنسانٍ قبله. وقد كتب جيزو[1] عن هملتن يقول! "ليس في دستور الولايات المتحدة عنصر من عناصر النظام والقوة والاستقرار لم يشترك هملتن في وضعه والدفاع عنه بقوة".

غير أن هملتن ظل طوال حياته يسعى لمجده الشخصي ويعمل ليكون زعيمًا عظيمًا. ولقد كشف جفرسن أثناء زيارة هملتن له أي زعيمٍ يريد هملتن أن يكون إذ قال: "كانت حجرتي مزينة بمجموعةٍ من صور العظماء بينهم بيكن ونيوتن ولُك، وسألني هملتن عن هؤلاء فقلت له إنهم هم أعظم ثلاثة أنجبهم العالم، وسميتهم بأسمائهم، فسكت قليلًا ثم قال! "إن أعظم رجلٍ عاش على ظهر الأرض هو يوليوس قيصر".

(1)Guizot

جورج واشنطن يرد على ناقديه ويدفع التهم التي وجهت إلى جنوده العرايا البائسين

كان جورج واشنطن[1] القائد الأعلى لقوات الثورة الأمريكية في الخامسة والأربعين من عمره حين كتب الرسالة التالية إلى مجلس الأمة قبيل عيد الميلاد من عام ١٧٧٧ وكان قد اختير قائدًا للقوات الأمريكية، وقادها إلى النصر في بسطن[2] وإلى الهزيمة في نيويورك.

وفي أواخر عام ١٧٧٦ وأوائل عام ١٧٧٧ انتصر واشنطن في موقعتي ترنتن[3] وبرنستن[4]، ثم تلت تلك الأيام أيام أخرى حالكة هُزم فيها في براندیوین[5]، واضطر أن يقضي الشتاء في في فلي فورج[6]، وقاسى في تلك الفترة أشد الآلام، فقد فشت الأمراض بين جنوده، وفسدت أخلاقهم، وضعفت قواهم المعنوية، وكان معظمهم في حالةٍ من البؤس يرثى لها. ولم يكن يرى حوله في أشهر الشتاء القارس إلا مرضًا وعريًا وجنونًا وجوعًا ومحاولاتٍ للفرار. وفي ذلك الوقت علت أصوات ناقديه في الدوائر الحربية وفي مجلس الأمة الأمريكي.

وهذا النقد المرّ هو الذي أوحى إليه بكتابة الرسالة التالية إلى أعضاء المجلس المجتمعين في مدينة فلدلفيا[7].

---

(1)George Washington

(2)Boston

(3)Trenton

(4)Princeton

(5)Brandywine

(6)Valley Forge

(7)Philadelphia

- ٥٥ -

"..... شقاء ليس في طاقتي ان أفرج كربه أو أدفعه...."

فلي فورج في ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٧٧

سيدى:

لقد ترددت حتى الآن في أن أجهر بآرائي أو أعرض شكواي، لأن ما حدث من التبديل في هذه الإدارة لم يكن متفقًا مع ما أبديته من الآراء، ولأني تنبأت بما لا بد أن يترتب على هذا التبديل من عواقب. ولكني وجدت الآن أن ضعف الجيش الناشئ من نقص طعامه وكسائه وغيرها من حاجياته الضرورية يعزى كله إليَّ؛ وليس الذين يفعلون ذلك هم العامة وحدهم، بل يشترك معهم فيه ولاة الأمور. لهذا رأيت أن قد حان الوقت الذي يجب أن أكون فيه صريحًا في تبرئة نفسي، وأرجو أن تصدقوني إذا أعلنت أني لم أر إنسانًا قط أقيمت في وجهه العراقيل كما أقيمت في وجهي، وقد أقامتها كل إدارةٍ من إدارات الجيش، وإذا شئتم دليلًا على سوء تصرف أحد كبار المتعهدين بتوريد ملابس الجيش، وبرهانًا على أن الجيش لا يستطيع أداء واجباته العادية في الظروف التي تحيط به الآن...، إذا شئتم هذا البرهان وذاك الدليل قلت لكم إننا قد وجدنا بعد إحصاءٍ قمنا به اليوم أن في معسكرنا ما لا يقل عن ألفين وثمانمائة وتسعة وثمانين رجلًا عاجزين عن القيام بواجبهم لأنهم حفاة وعراة. وقد نقص عدد جنودنا الصالحين للخدمة منذ اليوم الرابع من هذا الشهر إلى الآن نحو ألفين، وذلك لشدة ما قاسوه من التعب، ومن تعرضهم للجو القارس لنقص أغطيتهم بوجهٍ خاص. وبلغ من أمر الكثيرين منهم أنهم كانوا ولا يزالون يقضون الليل كله جلوسًا حول النار بدل أن يناموا ويستريحوا راحةً طبيعية.

وإنا لنرى من سادتنا من لا يعرفون هل يأوى الجيش إلى ثكناتٍ له شتوية أو لا...؟ ومع ذلك تراهم ينددون بجنودنا كأنهم يظنون أن هؤلاء الجنود قد صنعوا من الطين والحجارة، وأنهم كالطين والحجارة لا يحسون بالصقيع والثلج... على أن الذي

يدهشني أكثر من هذا أن هؤلاء السادة أنفسهم وقد رأوا بأعينهم عري الجند...، يظنون حرب الشتاء وحماية هاتين الولايتين (نيوجرسي[١] وبنسلفانيا[٢]) من غارة العدو عملًا سهلًا ميسورًا. غير أن في وسعي أن أؤكد لهم أن تسطير الاحتجاجات في حجرةٍ مريحةٍ إلى جوار نارٍ متقدة أسهل كثيرًا من الإقامة في العراء على تلٍّ أجردٍ قارس البرد، ومن النوم وسط الصقيع والثلج دون كساءٍ أو غطاء. وإذا كانوا هم لا يشفقون على الجند العرايا البائسين، فإني أنا أشعر بما يعانونه وأشفق عليهم وأرثي لما هم فيه من شقاءٍ ليس في طاقتي أن أفرج كربه أو أدفعه.

تلك هي الأسباب التي من أجلها أثرت هذا الموضوع، ومما يزيد كثيرًا فيما أواجهه من صعاب، وما أعانيه من شقاء، أن الناس ينتظرون مني فوق ما يُستطاع أداؤه، وأن سلامة الجيش وحسن سير الأمور يوجبان عليَّ أن أخفي عن أعين الجمهور حال الجيش الحقيقية، فأتعرض بذلك إلى المثالب والتهم الكاذبة.

جورج واشنطن

***

وبعد أربع سنين من ذلك الشتاء الرهيب الذي قاسى فيه جنود واشنطن الأمرَّين، لنقص كسائهم وأغطيتهم، قادهم هو نفسه إلى النصر؛ فهزم الجيوش الإنجليزية وشتت شمل الأمداد التي جاءتها من إنجلترا، واضطر القائد كورنولس[٣] أن يسلم له عند يورك تون[٤] في عام ١٧٨١، وتوالت بعدئذٍ الانتصارات، واعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة، وأقر الجميع لجورج واشنطن بأنه أعظم رجالها في الحرب والسلم، وأصبح أحب الناس إلى قلوب مواطنيه.

---

(1)New Jersey

(2)Pennsylvania

(3)Cornwallis

(4)Yorktown

جورج واشنطن يرفض تاج الولايات المتحدة

وبعد هذا الانتصار بزمنٍ قليل كتب ضابط من ضباط الثورة يدعى نيقولا[١] –واسمه الأول غير معروف– إلى قائده الأعلى يقول إن المستعمرات الثلاث عشرة التي اتحدت بعد ثورتها الموفقة على البريطانيين "ليس في مقدورها أن تصبح أمة واحدة في ظل حكومة جمهورية". وعرض أن تؤلف منها "مملكة يرأسها واشنطن". ولم يكد القائد الأكبر يتلقى هذه الرسالة في معسكره الرئيسي عند نيوبرج[٢] حتى استدعى إليه أمين سره جناثان ترمبل[٣] وأملى عليه الرسالة التالية:

- ٥٦ -

"... لا بد لي أن أنظر إليها بعين المقت"

نيوبرج في ٢٢ مايو سنة ٨٢

لقد قرأت بعنايةٍ وبمزيجٍ من شدة الحيرة والدهشة تلك العواطف التي احتوتها رسالتك، وأؤكد لك يا سيدي أني لم يؤلمني شيء بقدر ما آلمني قولك إن في الجيش أفكارًا كالتي عبرت عنها، وهي أفكار لا بد لي أن أنظر إليها بعين المقت، وألومكم عليها أشد اللوم. وستظل هذه الآراء في الوقت الحاضر مكنونة في صدري إلا إذا أثير هذا الموضوع مرةً أخرى، فأضطر إلى إفشائها على الرغم مني.

ولست أدري أي شيءٍ فعلت فشجعكم على أن تبعثوا إليَّ بهذه الآراء التي أعتقد أنها تعرض بلادي لأعظم ما يمكن أن يتهددها من الأخطار؛ وإذا لم أكن مخطئًا فيما أعرفه من أمري قلت إنه لم يكن في وسعكم أن تجدوا إنسانًا يبغض مشروعكم هذا

---

(1)Nichola

(2)Newburgh

(3)Jonathan Trumbull

أكثر مني. على أنني في الوقت نفسه لا أحب أن أخفي عنكم أني لا أعتقد أن في البلاد كلها إنسانًا أصدق مني رغبةً في أن ينال الجيش ما يستحقه من رعاية، وسأبذل في سبيل ذلك كل ما أستطيع من جهد، مستعينًا على ذلك بجميع ما لي من سلطانٍ ونفوذ خولها إلى الدستور، إذا ما أتيحت لي الفرص، وأستحلفك بالله إذا كان في قلبك شيء من الحب لبلادك، والرعاية لنفسك وأبنائك، أو الاحترام لي، أن تطرد هذه الأفكار من عقلك، وألا تفضي بمثل هذه الإحساسات –سواء كانت إحساساتك أنت أو إحساسات غيرك– إلى أحدٍ من الناس. وتقبل احترام

خادمك المطيع

ج. واشنطن

***

واختير واشنطن مندوبًا عن فرجينيا في الجمعية التأسيسية ورأس جلساتها في عام ١٧٨٧، ثم اختير رئيسًا لجمهورية الولايات المتحدة في عام ١٧٨٩، وأعيد انتخابه على الرغم منه عام ١٧٩٢، وفي عام ١٧٩٧ آوى إلى مزرعته، وعاش فيها حتى مات سنة ١٧٩٩.

بنجمين فرنكلن يعرض على أرملةٍ فرنسية أن تتزوجه

[رسالة إلى السيدة هلفيتيس][1]

كان بنجمين فرنكلن يتصف بأنه نصف قروي ساذج ونصف متمدن. فلما أن قدم إلى فرنسا في عام ١٧٧٦ ليرعى فيها مصالح بلاده تغلبت مدنيته على سذاجته؛ وتفتحت لهذا الشيخ الأبواب المغلقة، من باب لويس السادس عشر إلى أبواب أندية السيدات الفرنسيات. وكتب جون أدمز، وكان في وقتٍ ما زميله، يقول: "إن شهرة فرنكلن قد طبقت الخافقين وعلت على شهرة ليبنتز[٢] ونيوتن وفردرك الأكبر وفولتير. وكان الناس يحبونه ويجلونه أكثر مما يحبون هؤلاء ويجلونهم".

واستقر فرنكلن في دارٍ في باسي[٣]، واتخذ له مساعدين اثنين لا أكثر (أحدهما حفيد له غير شرعى من ابنٍ غير شرعي). وفي هذا البيت أنجز هو ومساعداه من الأعمال أكثر مما كان ينجزه مئات الكتبة في نفس الوقت في مكتبٍ من مكاتب الحكومة في باريس. وكانت تسكن في قريةٍ مجاورةٍ له السيدة هلفيتيس وهي أرملة أحد رجال المال والفلاسفة والأدباء المشهورين. وكان فرنكلن نفسه قد فقد زوجته في عام ١٧٧٤ فأحب هذه السيدة الجميلة المثقفة، وكتب إليها في عام ١٧٨٠، وهو في الثانية والسبعين من عمره وهي في الواحدة والستين، الرسالة التالية يعرض عليها أن تزوجه:

---

(1)Helvetius

(2)Leibnitz

(3)Passy

"..... فلننتقم لأنفسنا......."

باسي [في يناير سنة ١٧٨٠]

عدت إلى بيتي في الليلة الماضية مغضبًا من قولك لي ليلتئذ إنك مصممة على أن تعيشي أرملةً إكرامًا لزوجك العزيز. ثم استلقيت على فراشي وخيل إليّ أني مت وأني دخلت الجنة.

وسألوني فيها: هل أرغب في أن أرى أحدًا؟ فأجبتهم: "خذوني إلى الفلاسفة"، فقيل لي: "إن اثنين منهم يقيمان في هذه الحديقة وها جاران طيبان وصديقان وفيان". "وما اسمهما؟"– "اسمهما سقراط وهافيتيس"– "إني أجلهما كليهما أعظم إجلال، ولكني أحب أن أرى هلفيتيس أولًا لأني أعرف قليلًا من الفرنسية ولا أعرف كلمةً واحدةً يونانية" ورحب بي هلفيتيس، وقال لي إن شهرتي قد وصلت إليه قبل لقائي به، وسألني آلاف الأسئلة عن أحوال الحرب والدين والحرية والحكومة الفرنسية في هذه الأيام. فقلت له: "إنك لا تسألني عن صديقتك السيدة هلفيتيس مع أنها لا تزال شديدة التعلق بك، وقد كنت في بيتها منذ ساعة". فأجابني بقوله: "آه! إنك تذكرني بأيام السعادة الماضية التي يجب عليّ أن أنساها لكي أكون سعيدًا في هذه الدار. لقد ظللت سنين طوالًا لا أفكر إلا فيها، ولكني الآن سلوتها واتخذت لنفسي زوجةً أخرى هي أقرب من وجدت من النساء شبهًا بها. نعم إنها لا تبلغ مبلغها من الجمال، ولكنها تشبهها في رجاحة عقلها وذكائها، وهي تحبني حبًّا لا حد له، ولا همَّ لها إلا أن تدخل السرور عليَّ". وقد خرجت الآن تبحث عن خير أنواع الشراب والطعام لتقدمه إليَّ في هذه الليلة، فإذا بقيت معي بعض الوقت استطعت أن تراها".

فقلت له: "أرى أن صديقتك القديمة أكثر منك وفاءً، فقد عرض عليها الزواج كثيرون ولكنها رفضتهم جميعًا، ولست أخفي عنك أني أنا نفسي مغرم بها، ولكنها كانت شديدة القسوة عليَّ وردتني خائبًا حبًّا فيك". فرد عليَّ بقوله: "إني ليحزنني ما

أنت فيه من شقاء، فهي من غير شكٍّ امرأة صالحة رقيقة الحاشية. ولكن قل لي هل لا يزال الأب ده لاروش[1] والأب مورليه[2] يترددان أحيانًا على منزلها؟" فأجبته: "إنهما يأتيان إليها في بعض الأوقات لأنها لم تقطع صلتها بأحدٍ من أصدقائك". فقال لي: "لو أنك استطعت أن تضم إليك موريليه وتغريه بالقهوة والزبدة على أن يحدثها في أمرك لكان من المحتمل أن تنال بغيتك؛ وذلك لأنه خبير بمواقع الكلم، قوي الحجة لا يقل في ذلك عن اسكوتس[3] وسنت توماس[4]، وإذا حاج أحدًا اختار ألفاظه ونظمها بحيث لا يكاد يقوى على رد حجته. أو لو أنك استطعت أن تغري الأب ده لاروش بطبعةٍ جميلةٍ من كتابٍ في الأدب قديم بأن يذمك في حضرتها لكان ذلك أنفع لك من مدح موريليه، لأني وجدت أنه إذا أشار عليها بشيء كانت هي شديدة الميل إلى أن تفعل عكس ما يشير عليها به".

وفي هذه اللحظة أقبلت علينا السيدة هلفيتيس الجديدة ومعها شراب أهل الجنة. وما كدت أراها حتى تبين لي أنها مسز فرنكلن صديقتي الأمريكية السابقة، وطلبت إليها أن تعود إليَّ ولكنها ردت عليَّ ردًّا فاترًا وقالت: "لقد كنت زوجة لك صالحة تسعة وأربعين عامًا وأربعة أشهر، أي ما يقرب من نصف قرن، فحسبك مني هذا". وأغضبني هذا الرد فعولت من فوري على أن أغادر هذه الأماكن التي لا وفاء فيها وأن أعود إلى هذا العالم الطيب لأرى فيه الشمس وأراك مرةً أخرى.

وهأنذا! فلننتقم لأنفسنا.

***

ولم ترض السيدة هلفيتيس بأن تتزوج فرنكلن، ولكنها ظلت صديقةً وفيةً له.

---

(1)Abbe de la Roche

(2)Abbe Morellet

(3)Scotus

(4)St. Thomas

وليس لدينا أقل دليلٍ على أن هذه الصداقة قد شابتها في وقتٍ ما شائبة، بل إن لدينا ما يدل على أن حبهما قد زاد على مرِّ السنين. ولما هم فرنكلن بمغادرة فرنسا عام ١٧٨٥ تلقى وهو في ميناء الهافر رسالةً من السيدة هلفيتيس ترجوه فيها أن يعود.

جلبرت هويت يكتب سيرة سلحفاته المدللة

[رسالته إلى ابنة صديقة له]

كان جلبرت هويت من رجال الدين، عاش ثلاث وسبعين سنةً في القرن الثامن عشر؛ وكان في وسعه أن يرقى إلى أعلى مناصب الكنيسة، ولكنه لم يطمع إلا في أن يعيش هادئًا في سلبرن(١) موطن أسرته، يشاهد الطبيعة ويكتب عن آثار أبرشيته، وكانت نتيجة مشاهداته كتابه عن "تاريخ سلبرن الطبيعي وعادياتها(٢)"، ويعد من أعظم المراجع الإنجليزية في موضوعه.

وكانت سلحفاته الشهيرة المعروفة باسم تمثى(٣) قد عمرت طويلًا حين ورثها. وقد كتب إلى صديقٍ له يدعى دينز برنجتن(٤) في الثامن من شهر أكتوبر سنة ١٧٧٠ من بيت عمته يقول إنها "ظلت ثلاثين سنةً في فناءٍ مسورٍ للبيت الذي أزوره الآن". واستمر جلبرت يكتب إلى هذا الصديق أخبارًا عن سلحفاته حتى اليوم الحادي والعشرين من إبريل سنة ١٧٨٠ حين كتب إليه يقول إنها أصبحت ملكًا له. وكتب في ذلك اليوم لصديقه رسالةً يظهر فيها دهشته من أن الله قد منَّ بذلك الأجل الطويل على هذا الحيوان الخامل الذي يقضي ثلثي حياته نائمًا فاقد الإحساس لا يفيد شيئًا من حياته.

وتلقت تمثى في عام ١٧٨٤ رسالةً شعريةً من سيدةٍ في مقتبل العمر تدعى هستر ملسو(٥) ابنة أخت سيدة تسمى بهذا الاسم نفسه يقال إن جلبرت هويت خطبها

(1)Selborne

(2)The Natural History and Autiquities of Selborne

(3)Timothy

(4)Daines Barrington

(5)Hester Mulso

لنفسه فلم تستجب لخطبته وتزوجت برجلٍ آخر يدعى شابون[١]. ولما كانت تمثي غير قادرةٍ على أن ترد بنفسها على رسالة هذه السيدة فقد تولى جلبرت هويت الإجابة بالنيابة عنها.

"…. سلاحف كثيرة ذكرانًا وإناثًا…."

سلبرن في ٣١ أغسطس سنة ١٧٨٤

أيتها السيدة المبجلة،

لقد سرني خطابك أعظم السرور لأنه أول خطابٍ تشرفت به. وكنت أرغب في أن أرد عليك بطريقتك عينها، ولكنني لم أنظر الشعر طول حياتي، ومن أجل هذا فإنك لن تجدي بدًّا من أن تقنعي مني بالنثر العادي. ولما كنت لم أر من هذا العالم العظيم إلا رقعةً صغيرةً، ولم أتحدث إلا مع عددٍ قليلٍ من الناس، ولم أقرأ إلا القليل، فإني لا أدري كيف أكتب ما يدخل السرور على نفس كاتبةٍ ذكيةٍ مثلك، وإذا لم تسمحي لي بأن أكتب عن نفسي فسيكون ردّي في واقع الأمر جد قصير.

فلتعلمي إذن أنني أمريكية، وأنني وُلدت في عام ١٧٣٤ في مقاطعة فرجينيا في وسط أرض كلئة بين مزرعة دخان واسعة وخليج من خلجان البحر، وفي ذلك المكان قضيت سني شبابي مغتبطةً بين أهلي، وكنت أرى من حولي المعمرين من أقاربي المبجلين الذين بلغوا من الكبر عتيًّا دون أن ينغص عليهم حياتهم مرض. ذلك أن بني جنسنا يعمرون في الغالب حتى لا نكاد نبصر في حياتنا جنازة ميت. ولا زلت أنا أذكر موت جد جدي الذي فارق هذه الحياة بعد أن عاش مائة وستين سنة. وما كان أسعدني لو أنني استطعت أن أتمتع بجو بلادي وصحبة أصدقائي، ولكن صبيًّا بحارًا كان يطوف في تلك الأرجاء يبحث عن شيءٍ يلتقطه من الأرض، ففاجأني وأنا أستمتع بضوء الشمس تحت عشبٍ من الأعشاب، وقذف بي في حقيبته ثم حملني بعدئذٍ إلى سفينته. ولم يحدث

(1)Chapone

في رحلتنا شيء جدير بالذكر، وكل ما أذكره منها أن تلاطم الموج على جانب السفينة هدأ أعصابي وجعل نومي في قاع المركب هنيئًا لذيذًا. وكانت رحلتنا قصيرة انتهت حين رست السفينة في ميناء «ششستر[1]" على شاطئ إنجلترا. وباعني خاطفي في هذا الميناء إلى سيدٍ من سادة الريف بنحو ثُمن جنيه.

وكان هذا السيد قد جاء إلى ذلك البلد ليحضر حفلةً انتخابية. وسرعان ما وضعني في سلةٍ حملها خادم له وهي مدلاة إلى جانبه إلى موطنه في الريف. وقد ذهبا إليه على ظهر جوادين سارا بهما مسرعين نحو أربعين ميلًا؛ ولم أكن قد تعودت ركوب الخيل من قبل فشعرت بالدوار في هذه الرحلة الهوائية. وكان الذي اشتراني رجلًا فكهًا فشرع يعرضني على بعض أصدقائه وأطلق على اسم تمثى[2]، ثم لم يعد يعني بعد ذلك بي، بل وَكَّلَ أمري إلى زوجته، وكانت سيدة خيِّرة تشمل بعطفها وعنايتها أحقر تابعيها. وعشت مع هذه السيدة قرابة أربعين عامًا أقمت خلالها في فناءٍ مسورٍ أمام بيتها، استمتعت فيه بالهدوء الشامل، وبذلك القسط من السرور الذي يستطيع مثلي أن يتمتع به في عزلته بعيدًا عن المجتمع. وبقيت على هذه الحال حتى توفيت هذه السيدة بعد أن عمرت طويلًا –طويلًا في تقدير السلاحف– وبعد موتها انتقلت إلى ابن أخٍ لها. وأخرجني هذا الرجل وهو سيدي الحالي من مستقرى الشتوي، ووضعني في صندوقٍ من الخشب، وألقاني في عربةٍ مقفلةٍ سارت بنا ثمانين ميلًا، كنت في أثنائها أضطرب وأتخبط في جوانب الصندوق حتى وصلت إلى مسكني الحالي. وكانت هذه أسوأ رحلةٍ قمت بها في حياتي، وقد قاسيت من جرائها ألمًا شديدًا. غير أني أستمتع حيث أقيم الآن بكثيرٍ من المزايا.. حديقة متسعة فيها الشمس والظل، ويكثر فيها الخس والخشخاش واللوبيا وكثير من الأعشاب والنباتات الشهية النافعة، أخص منها بالذكر طائفةً كبيرةً من خير أنواع عنب الثعلب اللذيذ. غير أني مع هذا أشعر بأني حُرمت من عطف سيدتي الصالحة التي كان وقارها وسلوكها يتفقان مع مزاجي إلى أقصى حد. وأحب أن أقول

---

(1)Chichester

(2)Timothy

لك إن سيدى من أولئك الذين يسمون علماء الأحياء يزوره الكثيرون من أمثاله ويغرونه بإجراء تجارب غريبة عليّ، فتارةً يجسون نبضي، وتارةً يضعونني في وعاءٍ به ماء ليروا هل أستطيع السباحة أو لا أستطيع، إلى غير ذلك من التجارب السخيفة. وهم يأخذونني في كل عامٍ مرتين إلى دكان البدال ليزنوني كي يعرفوا كم أفقد من وزني في أشهر صومي، وكم يزيد وزني من طعام الصيف. وهم إذا أرادوا ذلك وضعوني على ظهري في كفة ميزان، فأحرك سيقاني وأنا في هذا الوضع حركات يسر منها أطفال صاحب الدكان، وإن كانت تضايقني أشد المضايقة. لكن الذي يجرح كرامتي هو ما يظهره بنو الإنسان سادة المخلوقات من الازدراء بفهمي وذكائي، واعتقادهم أن أحدًا غيرهم لم يُؤت شيئًا من المعرفة. فقد سمعت سيدى يقول يومًا إنه يتوقع أن أتردى يوما ما في حفرةٍ في الحديقة لا أراها؛ وأحب أن يعرف سيدي هذا أني أستطيع أن أفرق بين الحفر والأرض المستوية كما يفرق هو بينهما. وأسمع سيدي أحيانًا يردد أقوالًا يضحك منها سامعوه فيقول:

لقد وضعت تمثيوس في مكانٍ عالٍ

بين طائفةٍ من المغنين

ومست بأصابعها السريعة العود

أما أنا فلست أرى شيئًا من الفكاهة في هذه العبارة، ولست أعرف من أين نقلها، ولعله أخذها عن حكيمٍ من حكماء بني الإنسان. وإذا كان هذا الحكيم قد أراد بقوله هذا أن يسخر من جنس السلاحف فقد أضاع جهوده في غير طائل. هذا بعض ما أشكو منه، ولكنه لا يعد شيئًا مذكورًا إذا قيس إلى ما سأقوله لك بعد. ألا فلتعلمي أيتها السيدة الرحيمة أن أعظم ما حلَّ بي من المصائب مصيبة لم أبح بها لأحدٍ من قبل، وهي حاجتي إلى الرفاق من بنات جنسي. ذلك شيء لا أنساه مطلقًا لأنه على الدوام ماثل أمام عيني. فإذا جاء الربيع اشتد حنيني إلى الصحاب حتى لا أستطيع له دفعًا. وقد بلغ من أمري أن فكرت في شهر مايو الماضي في أن أفر من المكان الذي أنا فيه،

فقد تصورت أن سلاحف كثيرة ذكرانًا وإناثًا تقيم في المرتفعات المعروفة بتل الخبازين(١) أو في سهول الكلأ الفسيحة المجاورة لنا، وكان في وسعي أن أرى الربى والسهول من شرفة دارنا. وظللت أترقب الفرصة التي استطيع فيها القرار حتى رأيت باب السور مفتوحًا في صباح يومٍ مشمس، فغافلت الحارس تومس هور(٢) وفررت إلى المراعي المزهرة، ومنها إلى مزارع اللوبيا، وغبت عنهم ثمانية أيام كاملة، كنت فيها أطوف هذه البرية الجميلة وأرتاد المراعي أحيانًا. ولكن جهودي كلها ذهبت أدراج الرياح، فإني لم أجد الرفاق الذين كنت أرغب فيهم، والذين خرجت لأبحث عنهم: وعضني الجوع وبدأت أتمنى العودة إلى الدار، ولهذا سرت نحوها حتى قربت منها، وأسلمت نفسي إلى تومس، وكان قد حزن أشد الحزن لفراقي.

هذه يا سيدتي هي قصة أفراحي وأتراحي، والثانية منها أشد وأكثر من الأولى. وقد قيل لي إنك سيدة مرهفة الحس، ومن أجل هذا جئت أبسط قضيتي إليك لتجعليها قضيةً لك، وفي مقدورك أن تعرفي منها شعوري وآلامي. تصوري أيتها السيدة أن إنسانًا اختطفك غدًا وأنت في عنفوان الشباب، وسار بك إلى أرض السلاحف، وأنك بقيت فيها خمسين عامًا لا تبصرين وجه إنسان!! فكري في هذا يا سيدتي العزيزة. وأشفقي عليَّ.

سلحفاتك الحزينة

تمثى

***

وفي وسعنا أن نقول إن تمثى كانت من بعض الوجوه أوسع شهرةً من صاحبها، فبينما يرقد جلبرت هويت في مقبرة سلبرن ترى صدفةً تمثى معروضة للأنظار في المتحف البريطاني!

(1)Bakers Hill

(2)Thomas Hoar

جوزف بريستلي يجزي الإساءة بالإحسان

[رسالته إلى جيرانه في برمنجهام]

كان جوزف بريستلي(١) من رجال الدين، ومن العلماء والسياسيين، وكان كيميائيًّا ذائع الصيت، يرجع إليه الفضل في كشف الأكسجين وأكسيد النيتريك وغيره من المركبات، ولكنه كان على الدوام يثير المتاعب في طريقه بآرائه الدينية التي لا تتفق مع آراء معظم معاصريه، وبالطريقة التي كان يتبعها في الجهر بهذه الآراء.

ولد بريستلي في برمنجهام عام ١٧٣٣، وقضى معظم حياته في تلك المدينة، ولما هاجم إدمند بيرك(٢) الكاتب والخطيب الإنجليزي المعروف حكم الإرهاب في الثورة الفرنسية في كتابه (آراء عن الثورة الفرنسية **Reflections on The French Revolution**) تصدى له بريستلي وهاجمه مهاجمةً عنيفةً مُنِحَ على أثرها لقب مواطن في الجمهورية الفرنسية. ثم ثار عليه أهل بلده بسبب آرائه الدينية المتطرفة، فهاجموا بيته وحرقوه وهدموا معمله الكيميائي، ونهبوا مكتبته، ومزقوا كثيرًا مما كان فيها من مخطوطاتٍ لا تقدر بثمن. وكتب بريستلي عقب هذه الأعمال الهمجية رسالته التالية إلى أهل بلدته برمنجهام.

- ٥٨ -

"…. فنحن الأغنام وأنتم الذئاب…."

لندن في ١٩ يوليه سنة ١٧٩١

أهل بلدى وجيراني السابقين

لقد عشت بين ظهرانيكم إحدى عشرة سنة خبرتم فيها سلوكي وحبي للسلام، ورأيتم فيها عنايتي بالواجبات الهادئة التي تفرضها عليَّ مهنتي ودراساتي في الفلسفة. ولم

---

(1) **Joseph Priestly**

(2) **Edmund Burke**

أكن بعد هذا لأنتظر منكم تلك الإساءات التي نالتني أنا وأصدقائي على أيديكم. ولكنكم خُدعتم وغُرِّر بكم، فلقد طالما سمعتم الناس يسخرون من المنشقين وبخاصةً المنشقين الموحدين(١)، ولهذا أصبحتم تعتقدون أنا خليقون بكل ما يصيبنا من أذى، وخفيت عنكم الحقائق فلم تبالوا بالأساليب التي نعامل بها.

لقد ظننتم أن الوسيلة لا يمكن أن تكون خاطئة ما دامت الغاية صالحة، وأخذ معلموكم ورؤساؤكم بوجهٍ عام يصبون اللعنات علينا (ونحن نعرف أنهم ظلوا يفعلون هذا زمنًا طويلًا)، حتى سموا عقولكم وأثاروا تعصبكم إلى أقصى حدٍّ مستطاع؛ ولم تسمعوا في هذه الأثناء شيئًا يلطف من غضبكم علينا، بل كنتم تسمعون على الدوام ما يملأ قلوبكم غيظًا منا وحقدًا علينا، فأصبحتم من أجل ذلك متأهبين لارتكاب كل عملٍ من أعمال العنف دون تفكيرٍ منكم أو منهم، وهم أقدر على معرفة الحقائق منكم، وكان جديرًا بهم أن يعلموكم ويحسنوا تعليمكم، ولكنهم لم يفعلوا فظننتم أن كل ما يصيبنا من شرٍّ يفيد الحكومة والكنيسة، وأنكم بقضائكم علينا تؤدون عملًا يفرضه عليكم ربكم، وتتطلبه منكم بلادكم.

ولقد كان من حسن حظنا أن عقول الإنجليز تستفظع القتل، ومن أجل هذا لم تفكروا –كما أرجو– في ذلك الجرم،... ولكن ما قيمة الحياة إذا كنتم لا تتركون عملًا يزيد في بؤسها إلا فعلتموه؟...

فلقد حطمتم من الأجهزة العلمية والفلسفية ما لا تقدر قيمته وفائدته، وما لم يجتمع مثله عند أحد غيرنا في هذا البلد أو في غيره من البلاد، ذلك أني ظللت أنفق على هذه الآلات مبالغ طائلة في كل عام، ولا أرجو من ورائها فائدةً مادية، بل كل الذي كنت أعمل له هو تقدم العلم لخير مواطني وخير الإنسانية عامة. ودمرتم مكتبةً لا تقل قيمةً وفائدةً عن هذه الأجهزة، ولا يمكن شراؤها بالمال إلا بعد أجيالٍ طوال. على أن الذي آلمني أكثر من هذا كله أنكم أتلفتم مخطوطاتٍ هي ثمار جهودٍ شاقة بذلتها سنين طوالًا، وليس في مقدوري أن أؤلفها من جديد، لقد فعلتم في هذا كله وأنا الذي

(١) Unitarian Dissenters وهم طائفة دينية مسيحية تقول بوحدانية الله ولا تؤمن بألوهية المسيح.

لم أؤذ واحدًا منكم، بل لم أفكر قط في إيذائه....

وما أشد خطأكم إذ ظننتم أن أعمالكم هذه ستفيد قضيتكم أو تضر بقضيتي. إن الدين أيًّا كان لا ينتصر إلا بالحجة القوية والدليل المقنع، فما عليكم إذن إلا أن تدحضوا حجتنا فتنتصروا بذلك علينا؛ أما التجاؤكم إلى العنف فليس إلا دليلًا على أنه هو خير ما لديكم من الحجج. ألا فلتعلموا أنكم إذا قضيتم عليَّ كما قضيتم على منزلي ومكتبتي وأدواتي فإن عشرةً غيري لا يقلون عني جرأةً وكفايةً بل يزيدون سيبرزون من فورهم، فإذا قتلتم هؤلاء العشرة فإن مائةً غيرهم يحلون على الفور محلهم...

... فنحن الأغنام وأنتم الذئاب، وسنحتفظ نحن بأخلاقنا، ونرجو أن تبدلوا أنتم أخلاقكم. وسندعو لكم بالخير كلما دعوتم علينا بالشر، ونطلب إلى الله أن تعودوا في القريب العاجل إلى سابق جدكم، وإلى أخلاقكم الهادئة الرزينة التي كان أهل برمنجهام فيما مضى يمتازون بها من جميع الناس.

المخلص الداعي لكم بالخير

ج. بريستلي

***

وارتحل بريستلي بعد هذه الكارثة من برمنجهام إلى لندن، وبعد أن أقام فيها ثلاث سنين غادرها إلى أمريكا. ولما وصل إلى نيويورك استقبله أهلها بحماسةٍ عظيمة، وقضى بقية حياته في أمريكا يكتب تاريخ الكنيسة المسيحية، ويجري التجارب الكيميائية في نورثمبرلند[١] من أعمال بنسلفانيا[٢] حتى توفي في عام ١٨٠٤. ويصعب على الباحث أن يجد بين الإنجليز في القرن الثامن عشر من عمل لتقدم العلم كما عمل بريستلي.

(1)Northumberland

(2)Pennsylvania

شيان لنج إمبراطور الصين يرفض ما طلبته إنجلترا من امتيازات تجارية

[رسالته إلى جورج الثالث]

كان شيان لنج من أكثر شعراء العالم إنتاجًا، فقد كتب ٣٤٠٠٠ قصيدة، ولكن شهرته ومجده يقومان مع ذلك على حكمه في بلاد الصين، فقد جمع هذا العاهل بلاد الصين كلها وجزءًا كبيرًا من التركستان تحت حكمه، وظل منذ اعتلى العرش إلى نزوله عنه بعد ستين سنة يشن حربًا عوانًا على القبائل الهمجية المعادية له حتى أصبح الرئيس الأعلى للدولة الصينية وللديانة التُّبتِّية. وقد حاول شيان لنج أن يخضع الرؤساء الدينيين في تلك البلاد لسلطانه، فاستدعى لاما تاشي إلى قصره الصيفي في جيهول، وتردد اللاما أولًا ثم اضطر إلى إطاعة الأمر. ولما جاء إلى تلك المدينة استقبل استقبالًا رائعًا، ثم سار في زيارةٍ إلى بكين عاصمة الصين، وهناك مات فجأة، وأكبر الظن أن شيان لنج أمر بقتله بالسم. وكان لاما دالاي أسلس قيادًا من زميله.

ولم يكن شيان لنج سياسيًّا قديرًا فحسب، بل كان إلى ذلك عالمًا وفنانًا، ازدهرت في عصره الفنون، وأدخل الطراز اليوناني في الأبنية الصينية.

وكانت للغربيين مطامع في بلاد الصين لما فيها من الثروة العظيمة، ورأت شركة الهند الشرقية في الصين جنةً ينعم فيها رجالها أمثال كليف وهيستنج[١]، وأرسل جورج الثالث ملك إنجلترا بناءً على طلب الشركة وعلى نفقتها بعثةً يرأسها لورد مكارتني[٢] لتفاوض الصين في إنشاء علاقاتٍ تجاريةٍ بين البلدين. ووصلت البعثة إلى جيهول قبيل احتفال شيان لنج بعيد ميلاده الثالث والثمانين، واستقبلها عاهل الصين أحسن استقبال، ودهش حين رأى ملكًا عظيمًا من ملوك الغرب يعني هذه العناية كلها بخطب

(1)Clive و Hasting

(2)Macartney

وده، وعجب رجال القصر حين رأوا عاهلهم العظيم يجيز لمكارتني أن يركع على ركبةٍ واحدة بدل أن يسجد أمامه تسع مرات كما جرت بذلك الآداب الصينية.

ثم قدمت البعثة مطالبها التجارية إلى شيان لنج، ووصف مكارتني حكومة الصين في أيامه بقوله: "إن دولاب الحكومة وسلطانها قد بلغا من النظام والقوة حدًّا يمكنها من أن تتغلب من فورها على أعظم العقبات، وأن يكون لها من الأثر كل ما تستطيع أن تبلغه القوة البشرية". وليس بعجيبٍ مع هذا وبعد أن رأى الإمبراطور ما جرته الامتيازات التجارية على بلاد الهند المجاورة له أن يرفض المطالب الإنجليزية.

- ٥٩ -

".... حتى يكون خضوعك الأبدي إلى عرشنا سبباً في تمتع بلادك بالسلم..."

[١٧٩٣]

أيها الملك! إنك تعيش وراء حدود بحاري الكثيرة، لكن رغبتك الخاشعة في أن يكون لك نصيب من مزايا مدنيتنا قد حملتك على أن ترسل إلينا بعثةً من عندك تحمل رسالتك. وقد قطع رسولك البحار، ومثل بين يدي في عيد ميلادي، وأردت فوق ذلك أن تظهر إخلاصك فبعثت معه هدايا من حاصلات بلادك.

ولقد قرأت الرسالة ورأيت في ألفاظها الصادرة من قلبك ما يدل على تواضعك واحترامك لنا وهو ما تُحمد عليه كثيرًا.

ولما كان رسولك ومن معه قد جاءوا برسالتك وهداياك من بلادٍ بعيدة، وقطعوا مسافاتٍ شاسعة، فقد أظهرت لهم عظيم عطفي وسمحت لهم بالمثول بين يدي. وأردت أن أؤكد لهم هذا العطف فدعوتهم إلى وليمة، وأعطيتهم كثيرًا من الهدايا، وأمرت فوق ذلك أن تهدي الهدايا إلى القائد البحري وإلى ستمائةٍ من ضباطه ورجاله وإن لم يأت هؤلاء إلى بكين حتى يكون لهم نصيب من عطفي الشامل.

أما رجاؤك أن ترسل أحد رعاياك ليمثلك في بلاطنا السماوي، وأن يشرف على

تجارة بلادك مع الصين، فهذا ما تأباه تقاليد أسرتنا وما لا أستطيع أن أجيبك إليه بحالٍ من الأحوال. نعم إن بعض الأوروبيين الذين يعملون في خدمة أسرتنا قد سمح لهم بالإقامة في بكين، ولكنهم يُرغمون على أن يلبسوا لباس الصينيين، ولا يسمح لهم باجتياز حدود المنطقة التي يقيمون فيها أو العودة منها إلى بلادهم؛ وأكبر ظني أنك تعرف القواعد التي تسير عليها أسرتنا؛ وليس في مقدور رسولك الذي تقترح إيفاده إلينا أن يكون في وضعٍ يماثل الموظفين الأوروبيين المقيمين في بكين والذين لا يُسمح لهم بالخروج من الصين؛ وليس في مقدورنا نحن أن نسمح له بحرية التنقل، وأن نخوله حق الاتصال ببلده، ومن ذلك نرى أنكم لن تستفيدوا شيئًا من إقامته بيننا.

هذا إلى أن لأسرتنا السماوية أملاكًا واسعةً، وأن بعثات الخراج التي تفد إلينا من البلاد الخاضعة لنا تسيطر عليها كلها مصلحة الولايات الخراجية، فتؤدي إليها حاجاتها، وتشرف أدق إشرافٍ على حركات رجالها، ولا يمكننا مطلقًا أن نتركهم وشأنهم. وإذا جاء رسولك إلى بلاطنا فإن لغته ولباسه الوطني سيختلفان عن لغة شعبنا ولباسه، وليس في مقدوره أن يقيم بهذه الحالة بيننا. وقد يقال إن في وسعه أن يفعل ما يفعله الأوروبيون الذين يقيمون إقامةً دائمةً في بكين، فيلبس لباس الصينيين ويتعود عاداتهم. لكن أسرتنا لم ترغب في يومٍ من الأيام أن ترغم الناس على أن يفعلوا ما لا يحبون أو ما لا يسهل عليهم فعله. وسأفترض أني أرسلت رسولًا من قبلي إلى بلادكم، فكيف تستطيعون أن يهيئوا له وسائل إقامته المطلوبة؟ ثم إن أوروبا تشمل أممًا كثيرةً غير أمتكم، فإذا طلبت كل أمةٍ من هذه الأمم أن يكون لها من يمثلها في بلاطنا فهل نستطيع أن نجيبها إلى طلبها؟

إن ذلك مستحيل من الوجهة العملية. وكيف تستطيع أسرتنا أن تبدل خطتها ونظام معاملاتها المقررة منذ قرنٍ من الزمان أو أكثر لكي تجيبك إلى ما تطلبه أنت بمفردك؟

وإذا قلت إن احترامك لأسرتنا السماوية يجعلك شديد الحرص على اقتباس مدنيتنا، أجبتك أن مراسيمنا وقوانيننا تختلف كل الاختلاف عن نظائرها في بلادكم، ولو

أن رسولك استطاع أن يقتبس أصول مدنيتنا فإنك لن تستطيع مع ذلك أن تنقل أخلاقنًا وعاداتنا إلى بلادكم الغريبة عنها والتي لا تلائمها، ولهذا فإن رسولكم مهما يبلغ من المهارة والكفاية لن يفيدك أدنى فائدة.

وإني وإن كنت الحاكم المسيطر على هذه الدنيا الواسعة لا أرغب إلا في شيءٍ واحدٍ أضعه دائمًا نصب عيني، وهو أن أحكم البلاد أكمل حكمٍ وأحسنه، وأن أصرف شئون الدولة على أحسن وجه. أما السلع العجيبة الثمينة فلا أعنى بها، فإذا كنت قد أمرت بأن تقبل الهدايا التي أرسلتها إليَّ أيها الملك فإني لم أقبلها إلا تقديرًا للروح التي دفعتك إلى إرسالها من بلادك البعيدة. إن فضائل أسرتنا العظيمة قد عمت كل البلاد التي تحت قبة السماء، وقد أرسل إلينا ملوك الأرض من جميع الأمم الخراج بطريق البر والبحر، وفي وسع سفيرك أن يرى بعينيه أنَّا قد أوتينا من كل شيء، وأن ليس للغريب البديع من الأشياء قيمةً في نظري، وأنَّا لا حاجة بنا إلى مصنوعات بلادك. وهذا هو ردى على ما طلبك أن ترسل ممثلًا لك إلى بلاطي، وهو طلب لا يتفق وتقاليد أسرتنا ولا يمكن أن تجنوا أنتم منه إلا المتاعب.

ولقد أوضحت لك رغباتي مفصلةً، وأمرت رسلك الذين جاءوا بالهدايا أن يعودوا إلى بلادهم آمنين. وجدير بك أيها الملك أن تحترم عواطفي هذه وأن تكون في المستقبل أكثر ما كنت في الماضي إخلاصًا وولاءً، حتى يكون خضوعك الأبدي إلى عرشنا سببًا في تمتع بلادك بالسلم والرخاء في مستقبل الأيام. لقد أهديت إليك أيها الملك هدايا قيمة يزيد عددها على ما يهدى في مثل هذه الأحوال، منها خز ومنها سلع نادرة المثال (مبينة كلها في ثبتٍ مرسل مع هذه الرسالة)، هذا فضلًا عما أهديت إلى كل عضوٍ من أعضاء بعثتك (وهي مبينة أيضًا في ثبت معها) فلتتقبلها بما يليق من الاحترام ولا تنس حسن صنيعي إليك.

***

ولم يعش شيان لنج حتى يرى تغلغل النفوذ الأجنبي في بلاد الصين، فقد نزل عن

العرش باختياره في عام ١٧٩٦ لابنه الخامس عشر، واعتزل شئون الحكم ليتفرغ للقراءة والراحة، ولكنه قبل أن ينزل عن الملك جاءته بعثة تجارية أخرى، وكانت بعثة هولندية، ولم تغفل تقاليد البلاط الصيني هذه المرة كما أغفلت في المرة السابقة، وحدث حين سجد الهولنديون السمان أمام الإمبراطور أن ضحك شيان لنج بأعلى صوته مخالفًا في ذلك ما توجبه الكرامة الشرقية.

كامي ده مولن(١) يودع زوجته قبيل إعدامه

كان ده مولن من رجال الثورة الفرنسية ومن أكثرهم حماسةً لها، ولما أدرك آخر الأمر ما فيها من فظائع مروعة لم يفده هذا شيئًا، لأنه كان أضعف من أن يقف في وجه التيار الذي لم يلبث أن جرفه معه.

وبدأ ده مولن عمله في الثورة في الثاني عشر من يوليو سنة ١٧٨٩، فقد رآه الناس وقتئذ يقفز فوق منضدةٍ في مقهى في باريس، ويعلن الحاضرين أن لويس السادس عشر قد طرد نكر(٢) من منصبه، ثم رأوه يشهر مسدسه ويدعو الناس إلى التسلح، ويندفع إلى الشارع ومن ورائه الجمهور الغاضب الهائج. وازداد عدد أتباعه وهم سائرون في شوارع المدينة ينهبون ويسلبون، ويقتحمون المتاجر والمساكن ليستولوا على كل ما يصلح أن يكون سلاحًا. وبعد يومين من ذلك التاريخ أي في اليوم الرابع عشر من شهر يوليو هاجمت هذه الجموع سجن الباستيل.

ومن ذلك الوقت بدأ ده مولن يصدر الجرائد والنشرات الثورية. وكان ربسبيير أكبر زملائه في المدرسة يسميه "طفلا مفسودًا"، ويقول عنه ميرابو إنه "ممن يسهل شراؤهم بالمال"، ويصفه أندريه شنييه(٣) الذي هاجمه ده مولن في جريدته بأنه "إنسان لا يخشى بأسه، وحتى أولئك الذين يسمون أنفسهم أنصاره إنما يتخذونه موضعًا لسخريتهم، وأما

(1)Camille Desmoulins

(2)Necker

(3)André Chénier

أصدقاؤه فيحتقرونه أكثر مما يحتقره أعداؤه لأن أولئك أعرف به من هؤلاء". ولم يكن أحد من زعماء الثورة يعني به إلا ربسبيير.

وظل ده مولن يناصر الثورة حتى شهر أكتوبر من عام ١٧٩٣ حين بلغ حكم الإرهاب غايته، فلم يطق صبرًا عليه، وأصدر جريدةً دعا فيها إلى السلم والاعتدال. وصدر أول عددٍ منها في ديسمبر من ذلك العام، ومما جاء فيه: "لقد كنت قاطع طريقٍ وأنا فخور بما فعلت، ولكنني أخالف في الرأي أولئك الذين يقولون إن الإرهاب يجب أن يكون هو النظام المألوف. لا! إني أعتقد أن حريتنا تقوي دعائمها، وأن في وسعنا أن نهزم أوروبا، إذا أقمنا لجنةً للرحمة". وجاء فيه أيضًا: "... إن الحرية هي السعادة والعقل... فهل تريدون مني أن أدركها، وأن أخر ساجدًا أمامها، وأن أسفك دمي دفاعًا عنها؟ إن كنتم تريدون ذلك فافتحوا أبواب السجون، وأطلقوا سراح المائتي ألف مواطن الذين يحلو لكم أن تسموهم المشبوهين"..

وأصدر ربسبيير أمره بالقبض على ده مولن وغيره من المعتدلين ومنهم صديقه القديم دانتن، وحوكموا جميعًا ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم، وقضت محكمة الثورة بإعدامهم كلهم، وكتب ده مولن في أثناء محاكمته وقبل أن يصدر الحكم بإعدامه الرسالة التالية إلى زوجته لوسيل[1]، وكان قد تزوج بها أيام الثورة:

-٦٠-

"... ولدت لأقرض الشعر وأدافع عن البائسين..."

في الساعة الخامسة من صباح أول إبريل سنة ١٧٩٤

لقد أعانني النوم على نسيان آلامي. ذلك أن الإنسان إذا نام لا يشعر بأنه في السجن فهو يستمتع وقتئذٍ بكامل حريته. ولقد شملني الله برحمته وأراني إياكم منذ لحظةٍ واحدةٍ في منامي، وعانقتكم فَردًا فردًا... رأيت ابننا الصغير قد فقد إحدى عينيه إذ

(1)Lucile

شاهدتها معصوبة، وحزنت حين أبصرتها، واشتد بي الحزن حتى أيقظني من النوم، فوجدت نفسي في غيابة سجني. وكانت تباشير النهار قد بدت في أرك بعدها يا لولت، ولم أستطع سماع صوتك، وقد كنت أنت وأمك تتحدثان إليَّ، وكان هوراس[١] يناديني "أبي! أبي!"، وهو لا يحس بألمه. ألا ما أقسى أولئك النفر الذين يحولون بيني وبين التمتع بسماع هذه الألفاظ العذبة، وبين رؤيتي إياكم، وإدخال السرور عليكم! لقد كان هذا هو مطمعي الوحيد ومؤامرتي الوحيدة.

وكشفت عن شقٍّ في سجني، فوضعت أذني عليه، وسمعت إنسانًا يتنهد، خاطرت بالنطق بألفاظٍ قليلة، وطرق سمعي صوت مريض يتألم. وقد سألني عن اسمي؟ فلما قلته له صاح: "يا إلهي!"، قالها وهو يلقي بنفسه على مخدعه: "أنا فابر دجلنتين[٢] وأنت ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل نجحت إذن الحركة المعارضة للثورة؟" ولم نجرؤ بعدئذٍ على الحديث لئلا يحرمنا الحاقدون من هذه السلوى القليلة، ولئلا يسمعنا إنسان فيفرق بيننا ويشدد الرقابة علينا.

آه يا عزيزتي! إنك لا تستطيعين أن تتصورى حال من يوجد في الظلام وهو لا يعرف سبب وجوده فيه، ولا يسأل عما جناه، ولا يطَّلِع على صحيفةٍ واحدة. إن هذا هو الحياة والموت في وقتٍ واحد، أو إنه هو الحياة والشعور بأنه مدرج في كفن. إنهم يقولون إن الذي لا يقترف ذنبًا يكون شجاعًا مطمئن النفس. آه يا لوسيل! إن هذا يكون صحيحًا لو أن الإنسان كان إلهًا لا بشرًا.

وفي هذه اللحظة جاء مأمورو الجمهورية ليسألوني هل ائتمرت بالجمهورية؟ ألا ما أسخف هذا السؤال! كيف يجرؤ هؤلاء على أن يوجهوا هذه الإهانة لأشد الناس إخلاصًا للجمهورية! إني أرى مصيري المحتوم، وداعًا يا عزيزتي لوسيل، وداعًا يا لولت[٣]، وأسألكما أن تودعا أبي نيابةً عني. إن حالتي لهي شاهد على وحشية الإنسان

---

(1)Horace

(2)Fabre d Eglantine

(3)Lolotte

وجحوده، وها أنتم هؤلاء ترون أن مخاوف كانت تقوم على أساسٍ صحيح، وإن ما كنت أخشاه قد وقع. ولكن لحظاتي الأخيرة في هذا العالم لن تكون مزرية بقدرى. لقد كنت زوجًا لامرأةٍ اتصفت بأكمل الفضائل، وكنت زوجًا صالحًا وابنًا صالحًا، ولو أني عشت لكنت أيضًا أبًا صالحًا. إن مصيري الآن هو مصير إخوتي الذين استشهدوا دفاعًا عن الجمهورية، ولست أشك في أنني سأذهب إلى قبري محوطًا بأعظم العطف والتقدير من جميع أصدقاء الفضيلة والحرية والحق. إني أموت في سن الرابعة والثلاثين، ولكن من أعجب الأشياء أنني مررت بما مررت به من المخاطر في خمس سنين من عهد الجمهورية، وأنني لا أزال بعدها حيًّا أُرزق.

إنني أضع رأسي في ثقةٍ واطمئنانٍ على ما خططته من كتاباتٍ كثيرةٍ يسري فيها كلها حبي للإنسانية ورغبتي في أن أجعل بني وطني أحرارًا سعداء لا يرتكبون ذنبًا يستحقون عليه العقاب. إني أعتقد أن السلطة تسكر جميع الناس إلا القليل النادر منهم، وأن الناس كلهم يتبعون قول ديونيسيس السرقوسي[1] "إن الاستبداد هدية جميلة". ولكن في وسعك أن تعزي نفسك أيتها الأرملة البائسة لأن عنوان قبر زوجك الشقي خير من هذه العبارة وأشرف. إنه هو عنوان قبري كيتو[2] وبروتس[3]، قاطعي دابر الاستبداد.

أي عزيزتي لوسيل! لقد ولدت لأقرض الشعر وأدافع عن البائسين، وقد وقفت من أربع سنين ليالي طوالًا لأدافع عن أمٍّ لها عشرة أبناء لم تجد من يدافع عنها، ووقفت أمام أولئك القضاة أنفسهم الذين يحكمون اليوم بإعدامي، بعد أن خسر أبي قضيةً كبيرةً؛ ظهرت أمامهم وكأني هبطت عليهم من السماء، ولم يكن البكاء في ذلك الوقت جريمة لا تغتفر، وأثرت فيهم خطبتي وأهاجت مشاعرهم فكسبت القضية التي خسرها أبي. نعم كسبتها أنا الرجل الذي ائتمر بالجمهورية. إني لم أتغير عما كنت عليه قط. لقد

---

(1) Dionysius of Syracuse

(2) Cato

(3) Brutus

جئت إلى هذا العالم لأسعدكما يا ولديَّ، ولأكفل لكما ولي ولأمكما ولأبي ولبعض الأصدقاء الأوفياء حياةً سعيدة. لقد رأيت الرؤيا التي رآها الأب سانت بيير[1]. لقد رأيت الجمهورية التي يتمناها الناس جميعًا، ولم أكن أعتقد أنهم قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من ظلمٍ وقسوة. وهل أستطيع أن أتصور أن إشارةً فكهةً في كتابتي لبعض الزملاء تمحو حسناتي الكثيرة؟ لست أخفي عن نفسي أنني ضحية هذه العبارات الفكهة، وضحية صداقتي لدانتي المسكين، وإني لأحمد لقاتلي أنهم قتلوني معه...

لقد جبن زملائي وأصدقائي وفرقتي كلها إلا قليلًا منها، أولئك الذين طالما شجعوني وهنأوني على عملي، وقبَّلوني وأثنوا عليَّ. كل هؤلاء قد جُبنوا وتخلوا عني. إن أحدًا من الذين طالما تحدثوا إليَّ، أو من أولئك الذين طعنوا على صحيفتي، لا يستطيع أن يعدني مؤتمرًا بالجمهورية. إن حرية الصحافة وحرية الرأي لم يعد لها أنصار، سنموت نحن آخر أنصار الجمهورية دفاعًا عنها، ولو اضطررنا إلى أن نطعن أنفسنا بسيوفنا إذا لم تكن هناك مقصلة، كما فعل كيتو بنفسه. عفوًا يا عزيزتي، يا زوجتي الوفية التي فقدتها حين افترقنا، عفوًا إذا كنت أشغل نفسي بالذكريات. لقد كان أجدر بي أن أشغل نفسي بما ينسيك أحزانك. أرجوك لوسيل، يا أحب الناس إليَّ، ألا تناديني باسمي. إن بكاءك يمزق قلبي ولو كنت في قبري. اعتني بابنك الصغير، عيشي من أجل هوراس، وحدثيه عني، وقولي له في مستقبل أيامه ما لا يستطيع أن يفهمه الآن، قولي له إني لو عشت لأحببته أشد الحب، وإني رغم محنتي هذه أعتقد أن ثمة إلهًا، وإنني سأغسل بدمائي ذنوبي وأسباب ضعفي، وأن الله سيجزيني خير الجزاء على ما قدمت من خير، وما اتصفت به من فضائل، وعلى حبي للحرية. وما من شكٍّ لديّ في أني سأراك يومًا ما يا لوسيل... وإذا كان الموت ينجيني من رؤية أولئك الأعداء الكثيرين فهل يصح أن نعده شرًّا وبلاءً؟

وداعًا يا حياتي وروحي ويا جنتي في هذه الدنيا. إني لأتركك لأصدقاء أخيار..

---

(1)Saint Pierre

أتركك لجميع من بقي من الناس ذوي العقل والفضيلة، وداعًا يا لوسيل! يا لوسيل! يا لوسيل العزيزة... إن شاطئ الحياة يبتعد الآن عني، ولكني لا أزال أراك يا حبيبتي لوسيل. إن يديّ المغلولتين تعانقانك، وإن رأسي حين يسقط عن جسدي لتقع عيناه عليك".

***

وبعد يومٍ واحدٍ من كتابة هذه الرسالة قُطِعَ رأسه بالمقصلة. وبعد أسبوعٍ واحدٍ من مقتله سيقت زوجته هي الأخرى إلى المقصلة، إذ اتهمت بأنها حاولت أن تهرب زوجها وأن تأتمر بالجمهورية. وتقدمت لوسيل إلى ساحة الإعدام وهي أربط جأشًا من زوجها، ولم يكن قد بقي حرًّا طليقًا من الستين رجلًا الذين شهدوا زواجهما إلا رجل واحد هو ربسبيير، ولكن حياته كانت قصيرة الأجل.

تومس بين يتهم جورج واشنطن بأنه خائن في صداقته الخاصة ومنافق في حياته العامة

من أقوال بنجمين فرنكلن المأثورة: "حيث تكون الحرية تكون بلادي"، وقد عارض هذا تومس بين[1] بقوله: "حيث لا تكون الحرية تكون بلادي".

وكان بين من صغره حرًّا متطرفًا في حريته، وظل إلى يوم وفاته من ألد أعداء الطغيان، يقاومه بكل ما وُهِبَ من قوةٍ وشجاعة، في أمريكا وفي فرنسا، حتى سُمي بحق "بطل الثورة في العالمين"، وكان من أعظم أقطاب الجمهورية الأمريكية.

وقد وُلد تومس بين في إنجلترا عام ١٧٣٧، وفرَّ في حداثة سنه إلى البحر، ثم اشتغل في شبابه بتجارة الدخان، وأفلس فيها، وقابله بنجمين فرنكلن في لندن في زيارةٍ له لهذه المدينة فأعجب به ونصحه بالسفر إلى أمريكا، وكانت وقتئذ زاخرةً بالمؤامرات الثورية والآمال القومية.

وجاء بين إلى أمريكا في عام ١٧٧٥ في فترةٍ وصفها هو بعبارته الخالدة: "الأوقات التي تمتحن فيها أرواح بني الإنسان". ولم يمض على مجيئه إليها عام واحد حتى أصبح من زعماء الثورة وكتابها المتحمسين. وكان مما أصدره منشور ثوري سماه "الإدراك الفطري العام" بيع منه خمسمائة ألف نسخة في وقت صدوره، وقرأه جفرسن وواشنطن وجون أدمز؛ واقترح مجلس الأمة الأمريكي مكافأته على جهوده هذه بثلاثة آلاف ريال، ومنحته ولاية نيويورك ثلاثمائة فدان، وانتشرت آراؤه الثورية في طول البلاد وعرضها، وأصبحت عباراته القوية الملتهبة شعار الأمريكيين، وتردد صداها على الفور في إعلان الاستقلال.

وبعد أن حصلت أمريكا على استقلالها سافر بين إلى إنجلترا في عام ١٧٨٧ ليعمل

(1)Thomas Paine

فيها مهندسًا للجسور؛ وسرعان ما اجتذبته الثورة الفرنسية إليها كما يجتذب المغنطيس الحديد. ولما روعت أعمال "عهد الإرهاب" في الثورة الفرنسية إدمند بيرك[١] الخطيب الإنجليزي الشهير رد عليه بين برسالةٍ أخرى قوية عنوانها "حقوق الإنسان The Rights of Man"، غير أنه اضطر على أثر كتابتها إلى الفرار من إنجلترا، وكافأته فرنسا على دفاعه عن ثورتها بأن عينته عضوًا فخريًّا في الجمعية الوطنية مع واشنطن وبريستلي[٢] وكسيسكو[٣].

ولما كتب تومس بين كتابه المشهور "عصر العقل" زجه ربسبيير في السجن، وأبى وزير أمريكا المفوض في فرنسا أن يقدم لمواطنه أية مساعدة، لأن الوزير كان أرستقراطيًّا من الطراز القديم، وظل بين يقاسي آلام السجن عشرة أشهر كاملةً، وعد ذلك خيانةً له وجحودًا لخدماته من الجمهورية التي عمل على إقامتها، وألقى تبعة ذلك على موريس[٤] وزيرها في باريس، وعلى جورج واشنطن نفسه، ولهذا كتب رسالته التالية إلى صديقه السابق يتهمه فيها بالغدر والخيانة.

- ٦١ -

"... مخادع إن لم تكن غادراً..."

باريس في ٣٠ يوليو سنة ١٧٩٦.

لما كان الاعتذار لا يخفف من أثر النقد إلا تخفيفًا يشوهه، فإني لا أعتذر لك عن هذه الرسالة؛ يضاف إلى هذا أن الأزمة الشديدة التي تردت فيها شئون بلادك بسبب سياستك ذات الوجهين تتطلب بحثًا واستقصاءً لا أثر للمجاملات فيهما.

---

(1)Edmund Burke

(2)Priestly

(3)Kosciusko

(4) Morris

لقد أتى على أمريكا حين من الدهر كانت فيه سمعتها الأخلاقية والسياسية في العالم رفيعة عالية، وكانت ثورتها يتألق سناها أمام ناظري كل إنسان، وكان الانتساب إليها مفخرة ومجلبة للاحترام في أوروبا.... ذلك وقت لم يكن قد ظهر فيه واشنطن السياسي... إلى أجهر بمعارضتي لعدة مواد في الدستور، وأخص منها الطريقة التي يتألف بها ما يسمونه السلطة التنفيذية....، كما أني لا أوافق على نظامك الإداري كله تقريبًا....

لقد ورد في الأمثال الإنجليزية "إن ثلاثة عشر لوحًا من الخشب لا طوق من الحديد معها لا يتكون منها برميل". ولما كان أي رباطٍ مهما يكن ضعيفًا خيرًا من عدم وجود رباطٍ على الإطلاق، فقد كان لا بد أن ينشأ من ارتباط الولايات الأمريكية بعضها ببعض مزايا لا يُستهان بها. ولشد ما سر كل صديقٍ مخلصٍ لأمريكا حين رأي الأثر الطبيعي لاتحادها، ألا وهو رخاؤها المتزايد، ولكن هؤلاء الأصدقاء قد أحزنهم أن يروا ذلك الرخاء تختلط به من بدايته جرائم الفساد. فقد كانت إدارتكم من يوم نشأتها مسرحًا للاحتكار التجاري، وأغدقت الأراضي التي حصلنا عليها بثورتنا على الأنصار، وانتشر الظلم تحت ستار العقائد، وأصبح قائد الجيش نصير الغش والخداع.

وماذا ينتظر بعد هذه البداية غير ما وقع فعلًا؟ لا شيء إلا خضوعنا المذل المحقر للإهانة تلحقنا من إحدى الأمم، وخيانتنا لأمةٍ أخرى والكفر بنعمتها. ووجد الفارون من وجه العدالة من هذه الأمة الأخيرة في شخصك من يحميهم ويدافع عنهم.

وكان الدستور الأمريكي صورة من الدستور البريطاني، وإن لم يبلغ ما بلغه هذا من الانحطاط، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون مثله في نقائصه ورذائله.

وليس ثمة من يجهل الواجب الذي اضطلعت به في الثورة الأمريكية، فهو معروف حق المعرفة، ولن أكلف نفسي عناء تكراره هنا، وأنا أعرف كذلك أنه لولا ما أسدته إلينا فرنسا من معونةٍ في الرجال والمال والسفن، لكان من المحتمل جدًّا أن يؤدي سلوكك الذي لا ينطبق على أصول فنون الحرب، والذي سأبينه لك في هذا الخطاب،

إلى ضياع أمريكا، أو لما نالت استقلالها الذي تتمتع به الآن، فقد أضعت وقتك خاملًا في ميدان القتال، لا تقوم بعملٍ ما، حتى أفقرت خزائن الدولة من المال. وليس لك أنت نصيب من المجد الذي توجت به جهودنا، وقد آن الأوان يا سيدى لإظهار الحقائق التاريخية سافرة.

ولكنك حين رُفعت إلى رياسة الجمهورية اختصصت نفسك بالفضل كله، وبدأ ينكشف ما انطوى عليه طبعك من جحود؛ فبدأت أعمالك في الرياسة بتشجيع الملق في أبشع صوره، وقبوله من المتملقين، وطفت بأمريكا من أقصاها إلى أقصاها لتقبل هذا الملق، وأعددت لهذا الطواف من الخطب قدر ما أعده جيمس الثاني.

أما آراؤك السياسية فليس في مقدورنا أن نتبينها من عباراتك التي تنطق بها، ولكن أشياعك في السياسة قد فضحوا ما أخفيته أنت، وتبين منها أنك وإن لم تَسْمُ إلى أن تكون لك مطامع قد بلغت من الصغار حد الاغترار بنفسك.

لقد قال جون أدمز[1] (والمعروف عن جون أنه رجل دائب السعي إلى المناصب، وأنه لا يظن أن خدماته الحقيرة قد نالت ما هي جديرة به من الجزاء) إن مستر واشنطن ليس له أبناء، وإن رياسة الجمهورية يجب أن تكون وراثية في بيت لند واشنطن[2]. ولو تم ذلك لكان في مقدور جون أن يحصل لنفسه على منصبٍ يتقاضى عليه أجرًا، ولا يعمل فيه عملًا، وأن يضمن لأولاده ما يكفيهم. ولم يضف إلى ذلك أن منصب وكيل الرياسة يجب أن يكون أيضًا وراثيًّا في أسرة جون أدمن، بل هداه عقله إلى ترك هذه المسألة كما هي، ثقةً منه بأن الإحسان لن يكون جزاؤه إلا الإحسان.... وإن ادعاءكم حق إقامة حكومة وراثية وتدعيمها في هذه البلاد لهو جريمة أكبر من الخيانة العظمى، إنه جريمة في حق الطبيعة البشرية؛ ذلك أن ما للأجيال جميعًا من حقوقٍ متساويةٍ هو مبدأ مقرر يتفق مع طبيعة الأشياء، فهو حق للابن إذا بلغ الرشد، كما كان حقًّا لوالده

(1)John Adams

(2)Lund washington

من قبله....

وقال جون جاي[1] (وكان جون هذا على الدوام تابعًا ذليلًا لكل رجلٍ ذي جاهٍ من مستر جيرارد[2] في أمريكا إلى جرنفل[3] في إنجلترا): إن مجلس الشيوخ يجب أن يعيش مدى الحياة. ولو تحقق قوله هذا لما كان في حاجةٍ إلى منصبٍ لنفسه يدر عليه المال ولا خشي الاتهام....

ولقد بدأت أعرف أني لست وحدي الذي أسيء الظن بمستر واشنطن، إذ تبين لى أن سمعته أخذت تسوء بين الأمريكيين أنفسهم، وبين الأجانب من أبناء الأمم المختلفة. لقد أصبح زعيم حزبٍ بعد أن كان رئيس حكومة.... وأضحت بعثة المستر جاي إلى لندن.... مضغةً في الأفواه...

ولقد أرسل مستر واشنطن في عام ١٧٩٠ أو حوالي ذلك الوقت المستر موريس إلى لندن مندوبًا خاصًّا سريًّا له.... وإذا لم يكن موريس وهو وزير مفوض في فرنسا مندوبًا رسميًّا للوزارة البريطانية والدول المتحالفة معها، فقد كان سلوكه مما يبعث على الظن بأنه يعمل لحسابها...، ولا يزال هذا الرجل يتسكع في أوروبا وبخاصةً في إنجلترا، ولا يزال مستر واشنطن يتبادل وإياه الرسائل، ولذلك يجب ألا يعجب مستر واشنطن إذا عدته فرنسا هو وموريس من صنفٍ واحد، وخاصةً بعد مسلكه المعروف في معاهدة مستر جاي.

وأهم ما هنالك من فرقٍ بين أخلاق الرجلين (إذ ليس هناك فرق بينهما في السياسة) أن أحدها فاسق مستهتر يجهر بعدم اكتراثه بالمبادئ الخلقية، على حين أن الآخر قد أُوتي من الفطنة ما يستطيع به إخفاء حاجته إلى تلك المبادئ.... إن الأخطاء أو النزوات أمور يُستطاع العفو عنها ونسيانها. أما الجرائم التي يرتكبها الناس عمدًا ولا

---

(1)John Jay

(2)Mr. Girard

(3)Grenville

يؤنبهم ضميرهم عليها، كالتي يستطيع مستر واشنطن أن يقترفها، فهي جرائم لا يمكن أن تُمحي...

وليس الخلق الذي حاول مستر واشنطن أن يتخلق به في هذا العالم إلا التذبذب الذي تعجز الألفاظ عن وصفه، والذي يسمونه حكمةً وكياسةً، ويتخذ في كثير من الأحوال بديلًا من المبادئ السامية، ويتصل أوثق اتصالٍ بالرياء، وما أسهل ما ينحدر إليه.

لقد كان أول نبأ وصل إلى باريس عن معاهدةٍ يتفاوض فيها مستر جاي (لأن أحدًا لم يكن يدور بخلده أن ثمة مفاوضات مع هذا النوع) هو ما جاء في إحدى الجرائد الإنجليزية من أن معاهدةً هجوميةً دفاعيةً قد عُقدت بين إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية. وكذب هذا النبأ على الفور.... ولكن المعاهدة نفسها أُعلنت آخر الأمر.. وامتلأت الصحف الحزبية المناصرة لتلك الإدارة السفيهة بعباراتٍ تشير إلى حق السيادة. إن في وسع النذل الجبان أن يفخر بحقه الكامل في أن يركله غيره بقدمه، وهذا وحده هو نوع السيادة التي نراها في معاهدتنا مع إنجلترا..

وتظهر حكومة واشنطن رغبتها الشديدة في الاحتفاظ بالمعاهدة القائمة بين فرنسا والولايات المتحدة، وما من أحدٍ يشك في إخلاصها في هذه المسألة، وليس ثمة وزير بريطاني بأمريكا كلها إلا وهو شديد الرغبة في ذلك. إن معاهدتنا مع فرنسا تتخذ الآن وسيلةً لإمداد إنجلترا بما تحتاجه أساطيلها وبمنتجات البلاد الأمريكية، على حين أن هذه البضائع نفسها إذا صدرت إلى فرنسا عدتها إنجلترا من المهربات، وحجتها في ذلك هي نصوص المعاهدة التي عقدها جاي مع إنجلترا...

إن من السخف أن نتحدث عن الإخلاص والشرف القوي والوفاء بالمعاهدات في الوقت التي تظهر فيه هذه الخيانة سافرةً للعالم كله.

وخير لحكومة واشنطن أن توفر على نفسها عناء التأكيد للحكومة الفرنسية بأنها تعتزم مخلصةً أن تحتفظ بمعاهدتها معها. ذلك أن فرنسا لا ترغب الآن في الاحتفاظ بهذه

المعاهدة، فقد رشحت في هذه الأيام مندوبًا لها فوق العادة ترسله إلى أمريكا ليقدم هذه المعاهدة هديةً إلى المستر واشنطن وحكومته وليقطع كل صلةٍ لبلاده بهما، كما أبلغت وزير أمريكا في باريس أن "الجمهورية الفرنسية تفضل أن تكون الحكومة الأمريكية عدوةً لها سافرةً عن أن تكون صديقةً غادرة". هذا يا سيدى مضافًا إلى الاضطراب الداخلي الذي يسود أمريكا وما فقدته من مكانتها في العالم هو الأزمة الخطيرة التي أشرت إليها في أول رسالتي....

وقد يظن الأجنبي إذا رأى تلك الأنانية التي يتحدث بها المستر واشنطن أنه هو وحده الذي أشعل نار الثورة وقادها وأوصلها إلى غايتها وثبت قواعدها...، وأنها كلها من صنعه، وأن مستر واشنطن يمتاز من غيره بالثبات... ولكننا حين نتحدث عن الأخلاق العسكرية، يجب أن نفهم منها شيئًا أكثر من الثبات، يجب أن نفهم شيئًا أكثر من خطة فابيوس[١] التي تقضي بالركود وعدم القيام بعمل ما، فتلك وسيلة لا يعجز عنها أي إنسان....

ولقد كان مستر واشنطن في ظاهر الأمر هو القائد الأعلى للجيش، ولكنه لم يكن كذلك في الواقع، لأنه لم يكن له قط إشراف على جيش الشمال الذي يقوده جيتس[٢] والذي استعاد الولايات الجنوبية، ولم يكن هو الذي يوجهه، غير أن هذا اللقب الأسمى لقب القائد العام جعل الناس يعزون إليه فضل القيام بهذه الأعمال، وأظهره كأنه هو الروح المحرك للعمليات الحربية في أمريكا وقطب رحاها..

ولما انتصرت الثورة الأمريكية آخر الأمر.. أرسل المستر جاي مندوبًا فوق العادة إلى لندن ليسوي الأمور بالتوبة والرجاء.... فما الذي فعل؟

لقد كانت تجارة أمريكا حرة بمقتضى المعاهدات القائمة قبل معاهدة المستر

---

(١) Fabius القائد الروماني الشهير الذي قاد الجيوش الرومانية في حروبها مع هينبال واشتهر بخطته القائمة على عدم الاشتباك معه في مواقع فاصلة والاعتصام بالصبر وترك الأمر للزمن يفعل فعله بجيوش عدوه.

(٢) Gates

جاي.... فأصبحت حسب نصوص هذه المعاهدة خاضعةً لسلطان الأجنبي. فهي معاهدة استسلام حقيرة ذليلة لم يكن في المعاهدات كلها منذ وجودها ما يماثلها.

أما أنت يا سيدى، الخائن في صداقته الخاصة (وكذلك كنت لي في ساعة المحنة) والمنافق في حياته العامة، فإن العالم سيكون في حيرةٍ من أمرك، فهل يا تُري يحكم عليك بأنك مرتد أو مدع، وبأنك تخليت عن المبادئ السامية أو أنك لم يكن لك مبدأ من أول الأمر.

تومس بين

***

وأُفرج عن تومس بين آخر الأمر بفضل جهود الوزير الأمريكي المفوض الجديد جيمس منرو[١]، ثم تبدل موقف بين من الأمة الأمريكية الجديدة في عام ١٨٠٢ حين اختير صديقه جفرسن[٢] لرياسة الجمهورية. وعاد بعدئذٍ إلى الولايات المتحدة، ولكن الوطنيين الأمريكيين اتهموه بأنه يندد بمبادئ الثورة الأساسية، كما اتهمه السياسيون بالطعن في واشنطن، وحرم وهو في مسكنه في بلدة نيو روشل[٣] حتى من حق الانتخاب، ومات وحيدًا مهجورًا مثقلًا بالدين في الثانية والسبعين من عمره.

(1)James Monroe

(2)Jefferson

(3) New Rochelle

من تشارلس لام إلى صمويل تيلر كولردج

كتب تشارلس لام بعد أن قتلت أخته ميري أمها يطلب إلى صديقه كولردج أن يواسيه وأن يكتب له رسالةً دينية

يجد القارئ في رسائل تشارلس لام كل ما يريد أن يعرفه من صفاته وأخلاقه ومن قصة حياته بعد أن بلغ سن الرشد. وقد كتب في أول رسالةٍ عثرنا عليها مؤرخة **٢٧** مايو سنة **١٧٩٦** يقول: "لست أعرف يا كولردج ما قاسيته أنت في برستل. أما أنا ففي حياتى الآن شيء من التنوع. لقد قضيت الستة الأسابيع التي اختتم بها العام الماضي وبدأ بها هذا العام في مستشفى للأمراض العقلية في هكستن[1]، قضيتها فيه وادعًا مطمئنًا. والآن قد عاد إليَّ بعض عقلي، فلا أعض أحدًا، ولكنني كنت مجنونًا بحق، وكثيرًا ما بدت لي أخيلة وصور غريبة تكفي إذا قصصتها كلها لأن تملأ مجلدًا كاملًا".

وكان مرض الجنون وراثيًا في أسرة لام. فقد أصيب به والده في آخر أيامه قبل وفاته، واختلت موازين عقل أمه أيضًا.

أما لام نفسه فقد اضطرب عقله في فترتين قصيرتين في عام **١٧٩٥** وفي أوائل عام **١٧٩٦**، ولكنه ظل سليمًا بقية حياته. وبعد أربعة أشهر من رسالته الأولى إلى كولردج كتب إليه الرسالة التالية ينبئه بحادثٍ مروعٍ وقع لأسرته:

- ٦٢ -

".. وكنت أنا قريبًا منها.... فاستطعت أن أختطف السكين من يدها"

[في ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٩٦]

يا أعز الأصدقاء:

لعلك قد علمت قبل الآن من هويت[2] أو من بعض الأصدقاء أو بعض الصحف

(1)Hoxton

(2)White

بالكوارث المروعة التي وقعت في محيط أسرتنا. وحسبي أن أقص عليك مجملها.

لقد قضت أختي المسكينة العزيزة على حياة أمها، وكنت أنا قريبًا منها فاستطعت أن أختطف السكين من يدها، وهي الآن في أحد مستشفيات الأمراض العقلية وأخشى أن نضطر إلى نقلها منه إلى مستشفى عادي. أما أنا فقد حفظ الله عليَّ حواسي، فأنا أطعم وأشرب وأنام، وأعتقد أن عقلي سليم. وأصيب أبي المسكين بجرحٍ بسيطٍ وأنا الآن أعنى به وبعمتي، ولقد كان صديقنا الوحيد مستر نرس[1] رحيمًا بنا، ولكني أحمد الله إذ وهبني نسمة الهدوء والاطمئنان، وإن أمكنني من أن أقوم بكل ما بقي عليَّ من الواجبات. اكتب إليَّ رسالةً فيها من الروح الدينية أكثر ما تستطيع، ولكن لا تذكر فيها شيئًا ما مضى ولا رجعة فيه، فإني أرى أن ما مضى قد فات وأن أمامي من الواجبات أكثر ما يسمح لي بأن أقضي وقتي في الشعور...

إن الله ﷻ يتولانا جميعًا.

تشارلس لام

لا تذكر شيئًا عن الشعر. لقد مزقت كل أثرٍ من آثار الغرور الماضي، أما أنت فافعل بشعرك ما يحلو لك، وإذا أردت أن تنشره فانشر شعري معه (إني آذن لك بنشره) من غير أن تضيف إليه اسمي أو توقيعي، ولا ترسل إليَّ نسخةً مطبوعةً منه، ولست أشك في أن عقلك سيهديك إلى ألا تذكر شيئًا من هذا إلى زوجتك العزيزة، وأوصيك أن تعنى بأسرتك فإني لا يزال لدي من العقل والقوة ما يمكنني من العناية بأسرتي. وإياك أن تأتي لزيارتي، حسبك أن تكتب إليَّ، وإذا جئت فلن أقابلك. فليهبك الله جل شأنه، وليهبنا كلنا، حبه.

***

(1)Mr. Norris

ولقد وقعت الكارثة التي يصفها لام في ٢٢ اكتوبر أي أنه لم يكتب إلى صديقه كولردج إلا بعد خمسة أيام من وقوعها. وقبل وقوعها بثلاثة أيام –في التاسع عشر من شهر أكتوبر– كانت مسز كولردج قد وضعت طفلًا ذكرًا هو ابنها الأول الذي كان موضع قصيدة عصماء كتبها وردسورث[١]، والذي كان أسوأ حظًّا من أبيه.

وفي هذه الظروف الشديدة كتب كولردج إلى صديقه رسالةً تعد من أعظم الرسائل وفاءً.

(1)Wordsworth

من كولردج إلى لام

- ٦٣ -

"... ما أحلى أن يُوقظ الإنسان من حلمٍ مخيف..."

في ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٦

لقد روعتني رسالتك يا صديقى، إذ أقبلت عليَّ فجأةً وأفقدتني جميع مشاعري؛ وأنت تأمرني أن أكتب إليك رسالةً دينية، ولكنني لست بالرجل الذي يسخر من عظمة آلامك بما يقدمه لك من تعزية. والله يعلم أن أسهل الحادثات تنطوي على كثيرٍ من متاعب النفس وآلامها، وما يتطلب من الإنسان أن يتذرع بالصبر والاستسلام لقضاء الله وقدره. أما العواصف القوية والكوارث التي تهز النفس وتحطم القلب فليس فيها خطة وسط بين اليأس والاستسلام إلى قضاء الله وقدره. وإن من أكبر بواعث السرور أنك لم تفقد إيمانك بالله، فهو قريب منك وهو الذي في مقدوره أن ينجيك. وأنت مسيحى فباسم ذلك المنقذ الذي قاسى الآلام من أجل البشر أدعوك أن تلجأ إلى الصلاة والعبادة إلى "إلهه وإلهك" إله الرحمة والسلوى. وأرجو ألا يكون والدك المسكين على علمٍ بالكارثة.

أما الأداة التي اختارتها الأقدار لتنفيذ أمرها فهي بلا شكٍّ تجهلها كل الجهل، وأما والدتك فهي في الرفيق الأعلى. ألا ما أحلى أن يوقظ الإنسان من حلمٍ مخيفٍ على تغريد الطيور وأشعة الصباح البهجة، وأحلى من هذا ألف مرة أن يستيقظ الإنسان من الظلمة ومن الحيرة المنبعثة من كارثةٍ مفاجئةٍ مروعةٍ ليرى جلال الله ويستمع إلى تسبيح الملائكة.

أما أنت فإني أوافق كل الموافقة على تركك كل ما تسميه غرورًا. فأنا أنظر إليك نظرتي إلى إنسانٍ دعاه داعي الحزن والألم وفقدان الرجاء إلى حياة الهدوء، أو إلى نفسٍ

اعتزلت العالم وشغلت نفسها بالله. وليس في مقدورنا أن يكون لنا نصيب من النعيم السماوي إلا إذا تشبهنا بعض الشبه بالمسيح. ذلك أن الذين يتشبهون به في أصعب صفاته هم الذين ينالون أكبر قسطٍ من هذا النعيم. فإذا حلت بهم المصائب وأناخ عليهم الدهر بكلكله نادوه من قلبٍ عامرٍ بالإيمان: "فلتكن مشيئتك".

وأكثر ما أرغب فيه أن تحضر إلى هنا بعض الوقت، ولن يكون لدينا زائرون يضايقونك ويؤلمون شعورك المرهف، وستحظى في هذا المكان بالهدوء الذي يشفي نفسك. ولست أرى ما يمنعك من إجابة طلبي هذا، اللهم إلا إذا كانت حال أبيك هي التي تحول بينك وبينه، وإلا إذا كان وجودك إلى جانبه أمرًا لا بد منه. فإذا لم يكن هذا هو المانع فإني أطلب إليك أن تكتب إليَّ بأنك ستحقق رغبتي.

وأرجوك أيها الصديق العزيز ألا تستسلم للكتابة أو اليأس. إنك تقتسم مع البشر آلامهم إلى حين لكي تنال بذلك نصيبًا دائمًا من الطبيعة الربانية. أدعوك مرةً أخرى أن تأتي إليَّ إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

صديقك الوفي

ص. ت. كولردج

***

ولم تكن نتيجة العمل الذي أقدمت عليه ميري لام من الخطورة كما كان يظن في بادئ الأمر، فقد قيدت حريتها أولًا، ولكن تشارلس استطاع بمعونة بعض الأصدقاء أن يطلق سراحها على شريطة أن يعنى هو نفسه بأمرها، وأن ينقلها إلى مستشفى الأمراض العقلية إذا ظهرت عليها مرةً أخرى علامات الجنون. ولازم تشارلس أخته بعد موت أبيهما في عام ١٧٩٩، لم يفارقها إلا حين كانت تصاب بنوباتٍ جنونية، ومن أغرب الأشياء أن هذه العناية بدل أن تتلف أعصاب تشارلس الهائجة المضطربة بطبيعتها– قد هدأتها على ما يظهر– وحتى بعد عام ١٨٢٧ حين زادت نوبات ميري الجنونية واضطرتها إلى الإقامة في الريف لم تؤثر هذه العزلة في أعصاب أخيها ولم تفقده اتزان

عقله. ووهب تشارلس حياته للعناية بأخته، فمحا من عقله فكرة الزواج، وقد اشتركت معه في كتابة "قصص من شكسبير[١]" وهي التي يشير إليها في مقالاته باسم "ابنة العم بردجت".

(١) انظر ترجمتنا لهذه القصص.

ربسبير يعد دانتن بأنه سيظل مخلصًا له إلى الأبد

كان هذان الصديقان والعدوان السفاحان ربسبير ودانتن من رجال القانون ومن زعماء الثورة الفرنسية، وكان كلاهما من أبطال حكم الإرهاب وضحاياه. ولم يكن بين مولدها إلا عام واحد، ولا بين موتهما إلا بضعة أشهر، ومات كلاهما بحد المقصلة.

ولما شبت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ كان مكسملين فرنسوا مارى إزدور ربسبير[١] في الحادية والثلاثين من عمره، وكان نائبًا في الجمعية العمومية، كما كان جورج جاك دانتن[٢] في الثلاثين من عمره وضابطًا كبيرًا في الحرس الوطني. وكان الرجلان صديقين حميمين، ورفيقين وفيين، وزميلين عسكريين في أحداث الثورة، ثم صار دانتن مديرًا لمدينة باريس، ثم وزيرًا للعدل؛ ونظم ربسبير عهد الإرهاب وأشرف عليه، وأصبح بعد قليل صاحب الأمر والنهي في الجمهورية الناشئة.

ولما توفيت زوجة دانتن وتركته فريسةً للأحزان كان ربسبير لا يزال صديقه الوفي فكتب إليه الرسالة التالية التي تفيض عطفًا عليه ووفاءً له.

- ٦٤ -

"…. فلنبك معًا…."

عزيزى دانتن:

إذا كان عطف الصديق وإخلاصه مما يخفف عنك بعض الأسى في هذا الحزن الذي لا يستطيع حزن غيره أن يطغى على من كانت له روح مثل روحك، فإني أبعث إليك بهذا الخطاب ليعبر لك عن عطفي وإخلاصي. إن حبي لك الآن أقوى ما يكون،

---

(1)Maximilien Francois Marie Isidore de Robespierre

(2)Georges Jacques Danton

وسيظل كذلك أبد الدهر. وأنا وأنت في هذه اللحظة روح واحدة، ورجائي إليك ألا ترد عن قلبك صوت الصديق الذي يقاسمك جميع أحزانك.

فلنبك معًا أصدقاءنا، ولنكشف بعد قليل عن آثار أحزاننا لأولئك الطغاة الذين كانوا سبب مصائبنا العامة وآلامنا الخاصة. أي صديقي! لقد كتبت إليك من بلجيكا تلك العبارات التي تنبعث من قلبي، وكان واجب عليَّ أن أكون الآن إلى جانبك لولا إجلالي للساعات الأولى من ساعات حزنك الشديد.

صديقك

روبسبيير

***

ولم يمض إلا أقل من عامٍ على هذه الرسالة التي تفيض عطفًا وحنانًا حتى أصبح الصديقان عدوين يتنازعان السيطرة على لجنة الأمن العام التي أقامها ربسبيير. وكان دانتن معبود الشعب عضوًا في محكمة الثورة ومن أشد المطالبين بإعدام الملك، ولكنه أبى أن يساير ربسبيير إلى النهاية، وهو صاحب الكلمة المأثورة التي صارت فيما بعد شعار الثورة "الجرأة ثم الجرأة والجرأة على الدوام".

وأرسل إلى المقصلة في السادس من إبريل سنة ١٧٩٤ بأمرٍ صريحٍ من زميله القديم ربسبيير صاحب رسالة العطف والإخلاص السالفة الذكر.

وكان إعدامه إيذانًا بسقوط ربسبيير نفسه، فلم تكد تمضي على هذا الحادث أشهر معدودات، امتلأت كلها بالرعب والفزع، حتى اتهم ربسبيير بأنه قد استحوذ من السلطة على أكثر مما يحق له، ثم حكمت عليه بالإعدام اللجنة التي كان هو مسيطرًا عليها، ولم يكن قد جاوز وقتئذ السادسة والستين من عمره.



الفهرس